روايات الهلال

تأليف: ميخائيل شاروفيانو
ترجمة: يحيى حقي

البلطة

Amly

روايات الهلال

سلسلة شهرية لنشر القصص العربى والعالمى تصدر عن مؤسسة دارالهلال

رئيس مجلس الإدارة
عبد القادر شهيب
رئيس التحرير
مجدى الدقاق

المستشار الفنى
محمد أبو طالب

مدير التحرير
محمد رضوان

الإصدار الاول - يناير ١٩٤٩

العدد ٧١٥ يوليو (تموز) ٢٠٠٨م - رجب ١٤٢٩هـ أبيب ١٧٢٤ق

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٦٠ جنيها مصريا داخل (ج. م. ع) تسدد مقدما نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٥ دولارا - امريكا وأوروبا واسيا وافريقيا ٥٠ دولارا - باقى دول العالم ٦٠ دولارا.

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لامر موسسة دارالهلال .

بريد الاشتراكات
E mail : subscription dep@yahoo.com

الإدارة

القاهرة :
١٦ شارع محمد عزالعرب بك (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) .
المكاتبات :
ص.ب : ٦١ العتبة - القاهرة - الرقم البريدى ١١٥١١ - تلغرافيا : المصور - القاهرة ج. م. ع.
تلكس :
Telex 92703 hilal un
فاكس :
FAX: 3625469

ثمن النسخة سوريا ١٢٥ ليرة لبنان ٥٠٠٠ ليرة الاردن ٢٠٠٠ فلس الكويت ٥٠٠ فلس السعودية ١٢ ريالا البحرين ١,٢ دينار قطر ١٢ ريالا [illegible] ١٢ درهما سلطنة عمان ١,٢ ريالا اليمن ٤٠٠ ريال المغرب [illegible] ٣ دينار موريتانيا ٤ قرشات السودان ٣٠٠ جنيه

البريد الإلكترونى :
darhilal @ idsc. gov. eg

البلطة

تأليف : ميخائيل سادوفيانو
ترجمة : يحيى حقى

دار الهلال

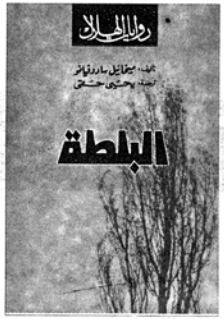

الخطوط للفنان : محمد العيسوى

الغلاف للفنان : محمود حنفى

المتابعة : ياسر شعبان

مقدمة

كلما تقدم بى العمر نحو الشيخوخة قل إقبالى على قراءة الروايات. ولا أظننى نافرا على قرنائى.

كأن الحياة بعد أن قلبتنى طويلا على فراش التجارب تهمس لى بعتاب:

– أما كفاك ما قرأته بنهم من الروايات إلى حد التخمة؟ إلى متى تسلم قيادك لخيال مخلوق مثلك يسرح بك كما يشاء وأنت قعيد؟ لماذا تتنازل فى حق خيالك أنت فى السرحان حتم أن يظل عالة على غيره هى تلفيق فى تلفيق وأكثرها لا يضره تلخيصه فى عبارة موجزة . ما أشبهها بالبخت الذى يشتريه طفل يغرر به، يفض غلافا مزوقا بعد غلاف ثم لايعثر إلا على قطعة من حلوى رخيصة لا تساوى نصف الثمن الذى دفعه ، أو مطرقة ضخمة لكسر بندقة، وعقل إلكترونى تسأله كم جمع واحد وواحد، وما أقل الروايات التى أصابتك بهذه الهزة الروحية التى تعهدها من قراءة بيت واحد من روائع الشعر، كأنه عصارة الحكمة والتأسى لقدر الإنسان أو ضوء خاطف يكشف لك فى لمحة واحدة سرائر البشر والأشياء ، وكان العقاد من هذا الرأى.

– أليس الأجدر بك أن تصرف فائض همتك ونور بصرك إلى قراءة التاريخ والسياسة والاقتصاد وتتبع الجديد من غزوات العلم للكشف عن قوانين الكون وقوى الطبيعة وسر الخليقة، وكأن هذا الجهد كله مبذول لمعاونة العلوم الإنسانية فى نهاية المطاف على حل هذا اللغز المسمى بالنفس وإدراكها، ليكن سعيك وراء الحقائق، الواقع لا الوهم.

قد تقول:

– التاريخ يتلون بلون كاتبه، فأنت تتلقاه عبر التواءات إنسان تتسلق على خياله وحقائق العلم.

بإقرار رهبانه نسبية مستقرة ولكن لأجل، هى فى نهاية الأمر مجرد فروض، ويكون الجواب:

– ليكن الحال كذلك، ولكنه يكفيك لكى تتصف بأنك تعيش فى عصرك غير متخلف عنه، ملما بتفسيراته وفروضه، هذا أقصى حد تبلغه الطاقة والغنم لمن يقتصر على التلقى من غيره دون إضافة من عنده.

وحين جريت وراء الحقائق وجدتنى لا أسلم من الجفاف ، بالعزلة عن (الآخر) الذى يقاسمنى حمل الحياة وتحديات العصر، هيهات:كما أرى نفسى إلا بانعكاسى عليه، الرواية تنفرد بقدرتها على أن تنفذ بك إلى تحت جلد هذا (الآخر) وبالأخص بعد أن أصبحت وعاء لروائع الفكر، لم تعد الرواية تقصد التسلية، بل معالجة قضايا وجود الإنسان، غير ناظرة إليه مفتتا كما تفعل العلوم، بل تتناوله كلا متكاملا، الإنسان فى الرواية ليس بطاقة أو رقما أو ملفاً أو رسما بيانياً أو نبتا منتزعا من جذوره، بل كائن ينبض بالحياة، مندس فى نسيج معقد من علاقات متبادلة تجمع بين النقيضين، فهو فذ ومتشابه، متفرد وملتحم.

من خلال تلفيق الرواية نصل إلى الصدق ومن خلال أبطالها تصل إلى نفسك وإلى (الآخر) فى هذا الكلام تأييد لرأى قرأته للناقد ريتشارد هيوز وقد سدده بحجج كثيرة .

تركت للصدفة وحدها أن تختار فى هذه المرة رواية أقرؤها، حددت يدا عشواء إلى مكتبتى وانتزعت من كوم كتاباً لا أذكر – حتى – متى ملكته أو كيف وصل لحدى، ظل فى رقاد طويل ولكنه يعلم أنه لا يموت.

لم يخدش النسيان كرامته أو كنوزه، نفض الغبار فى هذا اللقاء هو عنى وليس عنه، رضيت أولا بمظهره لأنى وجدته يصلح لأن أقرأه وأنا ممدد فى الفراش، الحروف غير منمنمة، والحجم صغير، يصونه دون أن يثقله غلاف متين، لا أعرف مؤلفه، لم يسبق لى أن قرأت له أو عنه، لك مؤلفون تحبهم ولكن – من يدرى كم هناك من هم أجدر بهذا الحب غير أنك تجهلهم لم

يجمعك بهم دليل أو صدفة، لم أكد أمضى فى القراءة باستهتار حتى شد الكتاب كل انتباهى إليه، وشعرت بمتعة وراحة كبيرة، وعددت الصدفة هداية حميدة، كأنها علمت ماذا كان دائى وعلاجى.

فقد كنت يومئذ أضيق بشىء من السأم، من دوى أحاديث الأذكياء البارعين من حولى، يعرفون كيف يستلون الشعرة من العجين، ثم كيف يشطرونها بالعرض شطرين، يفتون على الإبرة بكلام يملأ مجلدات لا حمد لهم ، لا يعجبهم العجب، لا يعرفون لذة الدهشة، من تعاليهم فقدوا الاتصال بالفطرة، الأحب لديهم وصف نفوسهم بالمرارة لا بالعذوبة، المذهب الكلبى له المجد عندهم، التعبير عن تفسيراتهم وغاض ماء الطفولة فى قلوبهم ، فهم شيوخ أياً كان عمرهم.

شفانى الكتاب الذى قرأت صدفة فقد وجدتنى أعاشر فيه قوماً بسطاء ، لهم التصاق شديد بالفطرة، بالأرض، بالناس، بالحيوان، بالنبات، بالدين، بالتقاليد. الحياة عندهم جلية مألوفة مواتية، ومع ذلك فهى متجددة السحر والتحديات ، لهم تسليم مطلق بالغيب ونظرة عملية ترسم لهم سلوكهم فى الحياة. الخرافات عندهم أعضاء دائمون فى مجلس إدرة الشركة، شيوخ لهم توقير لأنهم من رائحة الآباء والأجداد، لهم مشاركة فى التداول، ولكن ليس لهم حق التصويت، مرجعه للأعضاء ورثة العقل والحكمة والخبرة، ورثة المكر أحياناً اتسعت رقعتهم لجميع العواطف الإنسانية ، ولكن هى عندهم خام فهى أقوى وأصدق فإذا أردت أن تعرف كيف يكون بلا زيف أو افتعال مسلك الصبية إذا نهدت واستيقظت أنوثتها، فمن صبية عندهم تجد المثل الكامل ومن امرأة أم لأولاد كبار لا تزال مشغوفة بزوجها ملهوفة عليه تعرف كيف يبرأ الحب من الخجل فى الإنسان السوى فى مجتمع غير مريض، قوم بسطاء، الكل يحسب حساب الغد وراض فى آن واحد بقسمته، ولا يمتنع عندهم على زوج يفدى بحياته زوجة تعبده من أن يؤدبها بالضرب أحياناً ليطرد من بدنها عفاريتها الزرق ثم ينسى الاثنان الذنب والجزاء كأن شيئاً لم يكن..

وشفتنى هذه الرواية من سأم آخر، فقد كانت تلاحقنى روايات عديدة، بارعة الذكاء هى أيضاً، مستغرقة فى الرمز، أحياناً كل الوضوح، فلا أدرى هل أرثى للقارىء الذى طلب إليه أن يجيب عن أسئلة امتحان للأطفال، أم أرثى للمؤلف لأنه سمح لكرامة رجل الفكر أن تتحول إلى بهلوان مفضوح الحيلة، روايات لا تحترم الترابط الذى يتيح لنا متابعة ذهن المؤلف وتسلسل الحوادث، روايات سمرت ذهن المؤلف وتسلسل الحوادث، روايات سمرت نظرتها على العدم والضياع وفى كلمة روايات كأنها أحاجى أو فوازير أو هذيان أو كابوس.

شفتنى الرواية التى قرأتها صدفة لأن حديثها واضح والزمن كما نعهده. يمشى بلا قفز إلى الوراء وإلى الأمام، بسيطة هى كل البساطة، لأنها تروى حياة قوم بسطاء، ومع ذلك فقد استطاعت بهذه البساطة أن ترسم لك كل الأشخاص فى صورة بينة نابضة بالحياة فتحس كأنك تعرفهم بل أنك تخالطهم، تشهدهم فى بيوتهم وتسايرهم فى ربوعهم وتلتحم مثلهم بطبيعة أرضهم وأوضاع مجتمعهم، عنايتهم برسم الأشياء لا تقل عن عنايتها برسم الأحياء، وتكاد تحس أنها عن طريق التحديد وصلت إلى التجريد، ومن الفرد المشاع إلى النمط.

***

شفتنى هذه الرواية أيضاً من لهفة أخرى. فقد كنت أحلم برحلة، وحبذا من الضد إلى الضد. تجديداً للنفس ونفضا للسأم عنها.

فرحلت بفضلها من وادينا المنبسط تحت سماء زرقاء وشمس ساطعة، وانتقلت إلى قمم جبال شاهقة، تغطيها الثلوج. أخذتنى رجفة البرد وتدثرت بمعاطف من فرو الأغنام، فأهل الجبل رعاة، عشت فى صحبتهم مع أغنامهم بجوار مستنقع ببطن الوادى فى الشتاء وفى سفوح الجبال بالصيف، شممت رائحة الجبن الأبيض واللبن الأبيض واللبن الزبادى وهذه الزخمة النفاذة من جلود مدبوغة، عشت على حافة غابات كثيفة، وسمعت رنين الأجراس فى رقاب القطيع، عرفت وجها من جمال الطبيعة وسحرت به.

ارتددت بعده وأنا أشد إدراكاً وحمداً لجمال الطبيعة فى وادينا، واقتناعاً بأن بساطة الرعاة هناك هى صورة مكررة لبساطة فالحى الأرض فى بلدى، الطبيعة واحدة وان اختلفت الأجداد والأسماء واللغات والأديان.

هذه الرواية من الأدب المعاصر وموطنها بلاد رومانيا، وتجرى حوادثها فى منطقة الكربات الجبلية وتروى مأساة هبطت على أسرة من الرعاة، خرج عميدها نيقيفور ليبان ليشترى النعناع من سوق بعيدة، فقتله اللصوص بالبلطة وانقطعت أخباره عن زوجته فيكتوريا، رأت أحلاما وسمعت صيحة ديك على باب بيتها فأيقنت أنها إنذار لها بأن شرا قد حاق بزوجها وبعد أن استشارت الفال وأودعت بصيص أملها فى السحر ، أدركت أن لا بديل لها من أن تتولى أمرها بنفسها، لا تعتمد على أحد، لاتسترشد إلا بعقلها، فإذا بها المرأة الجاهلة المسكينة قعيدة البيت تتفجر بقوى لا يملكها أعتى الرجال إرادة وعزما وإصراراً ومجابهة للمخاطر بشجاعة، تركت بنتها الصبية مينودورا فى الدار وكان ينقصها بلوغها سن النضج فركبها دلع العذارى وهفت إلى الحب والمغازلة، سراً من وراء ظهور أهلها، واصطحبت فيكتوريا ابنها الصبى غيورغيتا - وهو راع مثل أبيه - وركبت معه الزحافة، تشق بها دروبا وعرة فى أرض مجهولة، حجت أولا إلى دير للتشفع بالسيدة مريم والقديسين، ثم مضت فى طريقها تتبع أنباء زوجها حتى بلغت مكان مصرعه، وكشفت سره وثأرت له من قتلته، ليست هذه الحوادث البوليسية بل ظل هذه الأم هو الذى يطغى على الرواية كلها، إنها تمجيد للمرأة، للأم، وإن كانت البطلة امرأة مسكينة جاهلة. ولكن أين منها أشجع الشجعان فالرواية فى آن واحد تشد انتباهك وتستدرجك لمتابعتها بفضل حوادثها ترقق قلبك بفضل فيضها الزاخر، بالعواطف الإنسانية فى توازن محمود.

واسم الرواية هو البلطة، والبلطة هى الأداة المفضلة عند الراعى، بها يقطع الحطب لمدفأة ، ويشق طريقه وسط لفيف الغابات ويدافع عن نفسه من غوائل اللصوص وقطاع الطرق، فتهوى حينئذ من يده كما تهوى الصاعقة.

ومؤلف الرواية هو كاتب رومانيا المعاصر، ميهاييل (ميخائيل) سادوفيانو، له عدة روايات ومجموعات كثيرة من قصص قصيرة، لا داعى لأن أذكرها لك هنا، تستطيع أن تجدها فى المراجع، يكفى أن أقول لك إنه نال كثيراً من الجوائز الأدبية، فى بلده وفى الاتحاد السوفيتى وترجمت أعماله إلى لغات عديدة. إنه يميل إلى وصف القرية وحياة الرعاة والفلاحين وخصائص الطبيعة فى بلاده ويسجل فى بعض رواياته أيضاً تاريخ شعبها وكفاحها الطويل ضد الغزاة، وله مشاركة نشيطة فى الحياة السياسية فى رومانيا، فأنت تتعرف فى رواياته - بصفة خاصة - على ريف رومانيا وعاداته وتقاليده وخرافاته وتعد أعماله بحق ملحمة الفلاحين والرعاة فى موطنه .

وميهاييل سادوفيانو رجل أشقر عملاق، وكان قد أهديت له ذات يوم بلطة على صفحتها زخارف من رسم الزهور، يرجع صنعها إلى القرون الوسطى تناولها بيده القوية وشرع يتحسس بأصبعه حدها المرهف وهو يتخيل الضربات الفظيعة التى تهوى بها هذه البلطة وشدة خطرها فى يد الأشرار، يتأملها ويسألها كم سجلت بأحرف من دم فتكات لها فى دروب جبال يعرفها كما عرفها آباؤه وأجداده حق المعرفة.

احتلت البلطة ذاكرته ورقدت ونعست، قد لا يتحدث عنها ولكنه لا ينساها ومر زمن طويل ، إلى أن جاءه ذات يوم راع هرم يزوره بين الحين والحين، هو رب قصص وحكايات ونوادر، روى له من قبيل السمر إحدى فتكات بلطة مماثلة، وقعت فى ربوع جبال دورنا.

وظل حديث هذا الراعى يشغل فكره، فإذا به يعلن بعد أيام قليلة بلهجة حازمة كالعهد به، عزمه على السفر إلى دورنا، كان قد رسم لبطلة روايته الطريق الذى ستقطعه، فتتبع فى سفره هذا الطريق، يسير فيه أثر خطاها لا تفارقه البلطة المهداة إليه كأنها شبح ملازم لا يطيق بعاداً عن صاحبه، وتجاوز دورنا وصعد الجبال حتى بلغ أعلى قمة لها تسمى صليب الطليان، لفح وجهه هواؤها البارد وملأ أنفه ورئتيه، كما حدث لفيكتوريا بطلة روايته ،

وأطل على الصمت المخيم على أغوار سحيقة تتكتم أسرارها ، وروى له الريح والسحاب مأساة نيقيفور ليبان كلمة كلمة ثم نزل إلى سهل سوبا حيث شاء له خياله أن يكون، موضع دفنه وثأر زوجته من قاتليه فتعود بعده إلى قريتها قريرة العين راضية النفس بأن عظام زوجها تثوى فى أرض الآباء والأجداد.

وعاد ميهاييل سادوفيانو من سفره، ها هو ذا جالس إلى مكتبه، إنه يقيم فى مدينة كوبو فى بيت كأنه حصن صغير، له برج وجدران غليظة، تحسبه إذا رأيته أن بين جوانبه ناراً تتقد وتلتهمه ليلاً ونهاراً، يكتب فيملأ صفحات عديدة مسطرة بأحرف دقيقة جميلة، تتقاطر إليه الألفاظ ليخبره كل لفظ ينبئه ويهبه ماعنده، تعطف وتتساند كأنها ترى صورتها حين تخرج من قلمه، تحاشاه أهله وكلابه، انصرفوا عنه يسحبون الضجة معهم، ومضى العملاق يكتب بلا انقطاع ، فإذا تريث لحظة خرج لنزهة فى الحديقة وقد وضع على كتفيه حرملة فضفاضة، لا يخطىء من يراه حينئذ أن يلحظ أن جبهته التى خيمت عليها دلائل الاستغراق فى التفكير معمل كيميائى لا ينقطع شغله. وجباته خفيفة وسريعة وكثيرا ما ظل النور مضاء بحجرة نومه ساعات طويلة، حمى شديدة متقدة مفترسة ولكنها قصيرة العمر، لم تدم أكثر من عشرة أيام، هكذا كتب كل مؤلفاته الأربعين باندفاع متصل ونفس واحد، وأخيراً وصل إلى النهاية، المخطوط كامل فوق مكتبه، واضح الخط بلا إضافة بين السطور، بلا شطب لكلمة.

وصدرت رواية البلطة فى العام الذى بلغ فيه الخمسين من عمره (سنة ١٩٣٠) فتلقاها النقاد والقراء بحماس كبير وبلغ من شهرة هذه الرواية أن مؤلفها عاد بعد سنين إلى شواطىء نهر سوبا التى جعلها مسرحاً لروايته فأخبره الناس هناك أنه لم يأت إلى ربوعهم زائر غريب إلا سأل أين قبر نيقيفور ليبان. أصبح عندهم جدثا يزار كما يزور الفرنسيون قبر «غادة الكاميليا».

***

رواية قرأتها صدفة، أرجو أن تقرأها صدفة، وأن تشفيك - أياً كانت قيمتها عند النقاد - من سأم وقراءة الروايات الشديدة الذكاء الغارقة فى الرمز والتعقيد، ستشملك كل العواطف الإنسانية لقوم بسطاء يستريح قلبك لمعاشرتهم، وأرجو أن تحتمل تحدث الرعاة من أهل الجبل فى رومانيا بالعربية الفصحى فليست العبرة إلا فى ترجمة الفكر وما اللغة إلا طريق يؤدى اليه، فإذا التزمت الأمانة والصدق زال الحرج الناشىء من اختلاف الخصائص بين لغة وأخرى.

***

أتمنى أن تحرك البلطة همة كاتب عندنا من أهل الريف ليكتب عنه كما كتب ميهاييل سادوفيانو عن ريف بلاده ملحمة إنسانية تعبر الحدود.

يحيى حقى

الفصل الأول

ما أن خلق الرب الأرض حتى أقامها على موازنة حكيمة، فأغدق على كل جنس من البشر بعطية ينفرد بها:

ألهم الغجرى براعة العزف على القيثار.

وأفضى إلى الألمانى بسر (بسر) صناعة الحديد.

واصطفى موسى من بين اليهود وناداه وأمره قائلا:

- أما أنت فستكون كاتب الشريعة وحين تدق الساعة فحتم (أن يقتل الفرنسيون المسيح، ابنى الحبيب، ثم من بعد تلقون من العذاب والاضطهاد أشكالا وألواناً ، ولقاء ذلك سأجعل المال يتدفق فى أيديكم، وأشار بإصبعه يستدعى المجرى، واختار له طرفته من بين أكوام الهدايا المكدسة إلى جانبه، ومدها إليه قائلاً:

- حذاء راكب الخيل ومهمازه هما لك، خذهما، ولك أيضاً هذا الزيت لتدهن به طرف شاربك فيلمع، سيكون من شيمتك الغرور، وحب اللهو فى المآدب مع الخلان. ولما جاء دور التركى قال له:

- فرزت لك الحماقة، وعوضتك عنها بسلطان لك ممدود بحد السيف وتناول الجاروف ووضعه فى يد الصربى ليفلح به الأرض ، ثم دعا أعيان قومه وأمراءهم إلى فنجان قهوة ونرجيلة، وقال لهم مالكم إلى الانغماس فى الفجور والرذيلة والإثم، فطيبوا خاطرى بالإكثار من تشييد الكنائس والأديرة.

وأوشك العرض أن ينتهى فإذا بأهل الجبل يقدمون ويركعون أمام من لا عرش يعلو عرشه، فرمقهم الرب بعطف وإشفاق وقال لهم:

- وأنتم أيها المساكين ، لماذا طال تأخركم فلم تحضروا إلا بعد فوات

الأوان.

– إذا كنا قد تأخرنا يا مولانا فلأننا مع قطعاننا وحميرنا ، ومشيها بطيء، ونحن نرقى الجبل الوعر ونهبط إلى القيعان ونشقى ليلا ونهاراً فى صمت لا يطرق سمعنا إلا رنين الأجراس فى رقاب السائمة، يعيش نساؤنا وأطفالنا فى قبضة الصخور، الصواعق والبروق وسيول الأمطار تتساقط من السماء فوق رؤوسنا (وقلوب تتعطش للسهول الفسيحة والحقول الخصبة والمياه الوادعة.

أجابهم الرب بأسف ماذا أفعل لكم وقد تأخرتم فلم تلحقوا العرض، إننى أحبكم كل الحب، ولكن لم يبق عندى ما أعطيه لكم فاحتفظوا إذن بما سبق لكم نواله، غاية ما أستطيع أن أفعله أن أهبكم قلوبا سمحة حتى يروق لكم ما تملكون، وليكن كل شيء مبعث بهجة لكم، وليكن فى ربوعكم مطاف كل عازف قيثار، وكل مدير للكؤوس، وسأجعلن نساءكم ودودات قدر ما هن جميلات.

يروق لنيقيفور ليبان أن يروى هذه الأسطورة فى حفلات التعميد والزفاف وهو ضيفها الوفى الدائر عليها جميعا طوال أشهر الشتاء، ويزعم أنه سمعها من فم راع هرم كان فى صباه على ذمة اليهود ولكن ربه أكرمه فهداه فى أواخر أيامه إلى الدين الحق، تجاوز علمه مطالب مهنته وأحاط بكثير مما هو خاف على غيره من ذلك أنه أصبح عالماً بفك الخط وكتابته، وهو أمر نادر بين الرعاة أمثاله وعنه أيضاً سمع نيقيفور كثيراً من الحكم والأمثال، يدسها بتوفيق فى أحاديثه إذا طرأت مناسبتها.

– لا أحد يستطيع أن يثبت فوق ظله.

أجابته زوجته فيكتوريا وهى ترمقه بنظرة مستنكرة:

– ماذا تعنى بقولك هذا؟

– أعنى أن الذين لهم آذان هم الذين يسمعون.

راضت الزوجة نفسها على تفسير لكلامه يقنعها، ولكنها – شأن كل النساء – مجبولة على الريبة مسارعة أبداً إلى الرد بحدة على كل مساس

بها ولو لم يزد عن خدش دبوس، أجابت:

– ربما صدق قولك يا عم ولكن من المألوف أن البحبحة فى الكلام تقترن بقلة العلم، فمن لم يتحقق يتمشدق.

أجابها ليبان وهو يتصدى لاستفزازها له:

– من الذى تعنين؟

– أعنى المحتالين الذين يبدون للناس فى زى العلماء.

– حقا؟ خبرينى عن هؤلاء المحتالين وهؤلاء العلماء من هم؟

– ما أدرانى، ولو سألتنى لما عرفت كيف أجيبك.

– ها هى امرأتى قد تلبسها الشيطان من جديد.

– كلا وربى، ما الشيطان إلا الماثل أمامى.

عادت هذه الأسطورة وهذا النقار إلى ذهن فيكتوريا وهى جالسة وحيدة على عتبة بيتها، تعمل بمغزلها تحت ضوء سماء الخريف ، عيناها فى لون بنى، كأنما تعكسان أيضاً أطيافا من لون شعرها، امتدت منهما نظرة تاهت فى الفضاء وأخذ مغزلها يدور ويدور دون أن تلتفت إليه، وتحت غابات من شجر الصنوبر تتناثر مساكن القرية، أسقفها مغطاة بقطع صغيرة من خشب السنديان، وتحوطها أسوار من جذوع خام ، ونهر (تاركا) ينساب بين الصخور يلمع ويتعرج كمسار البرق ثم يغيب فى لفة من ضباب كثيف.

عينا فيكتوريا متوهجتان، بقى لهما شبابهما، إنها الآن تتفحص بهما الأفق المجهول.

كان نيقيفور ليبان قد سافر إلى مدينة دورنا ليشترى النعاج وها هو ذا عيد القديس أندريه يقترب دون أن يعود، حاولت فيكتوريا من أعماق وحدتها أن تصل إلى زوجها بفكرها ، لم تفلح فى تبين وجهه، ولكنها التقطت صوته،

وتمثلت هذا الصوت يحكى لها الأسطورة بعين الكلام الذى حكاها به أول مرة، لم يسقط منها لفظ أو يختلف، لم تضف إليها إلا بضعة أوصاف للسهول الفسيحة والحقول الخصبة والمياه الوادعة، هى أوصاف من عندها، منبثقة من تشوف قديم، وحين أخذت تردد هذه الأوصاف اغرورقت عيناها بالدموع، ما أشق حياة أهل الجبل، وخاصة على نسائهم فمقارنة الأزواج لهن إذا رحلوا ترمل لا ينتظر يومه ، وهذا هو حالها الآن.

وإذا انتمى الرجل إلى أهل الجبل فحتم عليه أن يسعى لكسب قوته اليومى، حاملا فى يده بلطة كبيرة أو خطافا - اسمه المصطلح عليه عندهم هو النمس - أما الذين تكون البلطة أداتهم فإنهم يقطعون أشجار الصنوبر فى الغابات ويدفعونها إلى ضفاف نهر (بستريتا) ثم يصنعون طوفاً يركبونه معها إلى أن يبلغ بهم مدينة (حالاتزى) فى آخر الدنيا وإذا عمل الرجل بجد استطاع أن يملك حظائر على الجبل فيقيم بها فى وحدة وانقطاع لا شاهد عليه إلا ربه، إلى وقت أن يبدأ النهار فى القصر، وإذا أنذر الجو بأنه سيسوء هبط إلى السهول وأنزل قطعانه بأرض تتوافر فيها المستنقعات وبقى بها إلى أن يمر فصل الشتاء، فى مقامه هذا تصبح الحياة مقامها أيضاً، ولكنها تطلب المستحيل، فالحر شديد هناك فى فصل الصيف، ويضاف إلى هذا المانع أن أهل الجبل منغرزون فى الأرض التى ولدوا عليها، حالهم كحال أشجار الصنوبر.

برهن نيقيفور ليبان دائما أنه راع صادق الخبرة بمهنته ، فحظائر غنمه حسنة الترتيب، وأوامره لأعوانه مطاعة، وزعماء الرعاة أمثاله لايجيدون سرد الحكايات فحسب، بل يعرفون أيضاً أسرار صنعة اللبن الخاثر والجبن القابل للتخزين، تصلهم خطابات وطلبات شراء من أماكن بعيدة من بنادر تقام فيها أسواق ولها أسماء غير مألوفة لديهم، فكان ليبان يقصد القس دانيلا ليفك له رموزها، ثم يعرج على الحانة ليشرب مع رفاق من أهل الجبل، كلهم رعاة مثله، على علم بأشغال مهنتهم، وما تكاد الأنوف فى المرتفعات بنهر «تاركاو» تتشمم فى الجو أن نيقيفور وصلته أنباء يزيط لها

ويخشخش جيبه حتى يهرع عازفو القيثار - كأنما تطاردهم كلاب صيد - إلى حانة المعلم بودان، ليتئذ يعود نيقيفور إلى داره آخر الليل، مشوش الشعر، وتحسب زوجته أن من واجبها أن تؤنبه وتزجره فيجيبها وهو يضحك ومسح على شاربه: طيب ، طيب ، خلصينا، مالك قد ركبك سبعة عفاريت، إلى هذا الشارب البنى اللون، إلى عينين من تحت حاجبين كثيفين إلى هذا الطالع بجسد عفى مدكوك تثب من فيكتوريا نظرة خاشعة، فهذا هو حبها منذ عشرين سنة أو أكثر، انها أحبت ليبان منذ صباها، والآن وقد أصبح لها ولدان كبيران مثلهما، فإنها لاتزال تكن له عين الحب، ولكن حين يشتد عنادها وعصيانها يرى ليبان أن الساعة قد أزفت لأن يشفيها من بعض عفاريتها التى تركبها، ويلجأ إلى وسيلتين وإن لم يكن بينهما فرق كبير، الوسيلة الأولى تسمى عنده (علقة ساخنة) والوسيلة الثانية عدد محترم من لطشات عنيفة أو ضربات موجعة، تتحمل المرأة باستسلام ضربات زوجها ولكن هيهات أن تتخلى عن عنادها أو تهجرها عفاريتها، أما نيقيفور فإنه بعد أن يفرغ من الضرب، يحنى رأسه دالا على شدة ندمه وبواخ غضبه وثوابه لرشده ثم تستعيد الحياة جمالها ويخف حملها هذه هى سنة الله فى خلقه، كما تقال له فى حكايات صاحبه الراعى الهرم وهما من بعد فى نعمة من ربهما، فالبيت عامر ببضاعة من جلود تصلح سروجا وفى المخزن تحت حنية السقف، ذخيرة من فرو الحملان من بركة قطعان غنم فوق الجبل، هى خالصة لهما ملك يمينهما وفى البيت كذلك نقود موضوعة فى قدح من خشب مخبأة تحت طبقة من الرماد، إذا سئموا اقتصار طعامهم على اللبن والجبن ولحم الخراف التى تنهشها الذئاب فالنزول إلى الوادى لشراء الخضروات الطازجة أما خبزهم فمن دقيق الأذرة من جنى حقول لهم، فسيحة تغمرها الشمس، وكانت فيكتوريا تذهب اليها أحياناً وحدها وتعبىء من المحصول زكائب تضعها على ظهور خمسة جياد ضامرة راكبة هى فوق جوادها ركوب الرجال وتتبعها بقية الجياد جواد واحد خلف الآخر، محنية ظهورها ومقود اللاحق مربوط فى ذيل سابقه.

بارك المولى زواجهما ورزقهما سبعة أولاد لم يبق منهم سوى اثنين، أما

الخمسة فقد اغتالهم وباء الحصبة أو الدفتريا، انمحت أسماؤهم وذكراهم طى انمحاء ذرية العضول السابقة من الزهور والفراشات والحملان، واحتفل الأبوان بحب كبير بالولدين الباقيين لهما ، ليبان أكثر تدليلا للبنت وهى بكر أولاده سماها مينودورا على اسم راهبة فى مدينة (أغابيا) راق جرسه لأذن الراعى والابن غيورغيتا ترفرف عليه أمه وتحامى عنه كلما تفكرت عينا ليبان بسحب الغضب. فيكتوريا هى التى اختارت له هذا الاسم لأنه كان لزوجها قبل أن يعرف بين الناس باسم نيقيفور ليبان ولكن تبدل الاسم ظل سرا متكتما إذ كان اسم غيورغيتا هو الاسم الذى اختاره لزوجها كل من القس والأشبينيين فى حفل التعميد حينما رشوا عليه الماء المبارك ودهنوه بالزيت المقدس ليدخل فى ملة المسيح ولكنه حين بلغ من العمر أربع سنين تعرضت حياته للخطر، بسبب اصابته بداء الاستسقاء ، بلغ من الضعف أن أيقن أهله أنه يحتضر فاستدعوا له القس ليقوم بالطقوس الدينية،وبعد أن تلقى منه التناول الأخير ولم يبق إلا أن يسلم الروح، إذ بامرأة لازار عازف القيثار تقدم هى أيضا، مدت لها الأم من خلال نافذة مفتوحة ابنها المريض زاعمة أنها تبيعه لقاء ثمن بخس، فلس من النحاس لا أكثر، تلقفته امرأة الغجرى من حضن أمه ونفخت على جبهته وهمهمت برقى وتعاويذ ثم نادته باسم آخر لكى ينخلع عنه مع انخلاع اسمه القديم المهدد بالخطر شر المرض وينجو من الموت ، ومنذ تلك الساعة أصبح نيقيفور ومع ذلك ظلت فيكتوريا لا تتحدث عن زوجها إذ لم يكن معها غريب يسمعها ولا تناديه إذا خلت به إلا باسم غيورغيتا ، وتتجلى فى صوتها حنينئذ نغمة من الرقة والحنان تلحظها أيضا فى صوت ابنها .

وكان ابنها غيورغيتا قد نزل إلى السهل مع إجرائه من الرعاة والحملان والحمير والكلاب لقضاء فصل الشتاء وأقام بالقرب من مستنقع جيجيا ، على مسافة قصيرة من نجع يسمى كريستيشستى ، وكان أبوه قد أمر أن يبقى هناك لينتظر عودته لدفع ثمن الغاب الذى أقيمت به أسوار الحظائر وثمن التبن وأجور الرعاة وتوالت الأيام وليس هناك حس ولا خبر عن أبيه ، وظل الابن مقيدا بمربضه لا يملك العودة للدار .

وكانت فيكتوريا قد تسلمت منذ أسبوع خطابا مرسلا إلى زوجها فذهبت به إلى القس دانيلا ليقرأه لها، إنه خطاب من ابنها الشاب يستعجل به قدوم أبيه إليه ، إذ ظن أنه قد عاد للدار ومعه نقود تكفى لسداد ما هم مدينون به للأجراء وملاك المراعى (وأخبركم أن الحملان فى أتم صحة وعافية وكذلك نحن مثلها والحمد لله ، الجو هنا هذه الأيام غير متقلب وودى ومناي فى أن أعود للدار ، قبلاتى لوجناتك يا أمى ، قبلاتى ليديك يا أبى هذا هو خطاب غيورغيتا وقد حفظته فيكتوريا عن ظهر قلب ، هذا يعنى إذن أن ليبان لم يعد للمريض أيضا ، فما هو سبب غيابه يا ترى ، لا أحد يعلم فأرض الله واسعة ، وشراكها عديدة .

وبعد ثلاثة أيام من تسلم فيكتوريا لخطاب ابنها غيورغيتا نفخ ساعى البريد مرة أخرى فى بوقه ، أسفل القرية ، فنزلت إلى النهر وتسلمت خطابا ثانيا، إنه مرسل هذه المرة من إليكسا كبير الرعاة كتبه له ابنه ، الخط خط الشباب ولكن الكلام ولا ريب كلام إليكسا كبير الرعاة ، وصلنا خطابك المرسل إلى غيورغيتا وقدرت أن أفهم أنك يا ست الدار قاعدة الآن وحدك ، أما عن نيقيفور ليبان فنحن والغنم فى كفالته فأخبرك أنه لم يظهر له هنا حس ولا خبر ، ويلزمنا جدا جدا نقود لدفع أجور الشغالة وحق أكلنا وأكل الغنم .

ومن حيث أن الأمر كما ترين فرجاء المسارعة من كل يد بارسال مبلغ من النقود ويكون إيداعه فى مكتب بوستة بياترا ، مع التنبيه عليهم بأن يكتبوا لمكتب بوستة جاسى ليدفعوا منه كذا لفلان وكذا لفلان ، وبعد ذلك يحصل اجتماع بينهم ليعرف كل واحد حسابه ، كم له وكم قبض ، هذه الطريقة أحسن وتريح بالى إذ لا يكون من الضرورى عليك طخ المشوار على الركوبة وجائز أن يطلع عليك اللصوص وينهبونك ولكن إذا كان عندك رأى آخر فالرجاء الكتابة إلى ابنك لكى نبيع ما يلزم من الحملان التى فاتت السن ، وعلى كل حال فسيدنا نيقيفور ليبان ومعه النعاج التى ذهب لشرائها من دورنا كما هو معلوم .

ماذا حدث لزوجها؟. لماذا ينفرد بالتزام الصمت ، لماذا يمتنع عن الكتابة إليها ، كانت لها بالأمس فرحة لم تصدق فقد نفخ ساعى البريد فى بوقه مادا يديه ببطاقة مستطيلة ، هرولت بها فيكتوريا إلى القس دانيلا فاهتز بالضحك وهو يقرأها عليها ، تودت وجنتاها فالكلام المسطور على البطاقة غير غريب عليها ، إنها تحفظ شيئا من مثله عن ظهر قلب ، البطاقة مزينة برسم الشرابيم المجنحة من عالم الملائكة يعلوها حلية من الورد :

يا زهرة الزهور

أحبك ، ومن حولك أدور .

من المخلص المتفانى .

غيتا . س . طوبور .

هذا هو إذن ابن أندريه عريف الكنيسة ومرتل الأناشيد ، طلبه الجيش لخدمة العسكرية فسافر إلى مدينة بياترا ، ها هو ذا لا يريد أن ينتصح ويكف عن إمالة رأس ابنتها ، إنه مجنون فى نظرها وأمه مجنونة أيضا ، ستكاشفها فيكتوريا فيها برأيها وتؤنبها ، ولكن الذنب هو ذنب ابنتها قليلة الحياء التى تتودد إلى جميع الشبان بنظرات معسولة ، وما أن عادت فيكتوريا إلى الدار حتى صبت غضبها على رأس ابنتها وقذفتها بشتائم جارحة .

– أفليس لك الآن شغلة ولا مشغلة إلا جلب العار علينا أنا وأنت فى نظر القرية كلها ، تتمنين أن يقال عنك البنت كبرت طلبت العرسان ؟

لا أنا ولا جدتك ولا جدتى كان يخطر ببالنا أن نفعل ما تفعلين ، لابد أن تعيشى كما نعيش نحن وإلا ربطت حجرا بعنقك ورميتك فى النهر ، إلا يكفيك شقائى مع اقتراب الشتاء بالبقاء وحدى ، جاهلة ماذا حدث لأبيك ، أكان لزاما أن أسمع القس دانيلا يقرأ علىّ هذا الكلام الوقح ، كتاب منزل – طبعا – فى نظرك ، ولكن ليس هذا شأنه فى نظره أو فى نظرى ، سألتها ابنتها بمكر :

– أكانت هذه البطاقة مرسلة لى؟ .

– أية بطاقة تعنين؟ .

– تلك التى دسستها مقلوبة فى إطار المرآة .

– لك عندى بطاقة من نوع آخر ترن على صدغيك ، أنت مكلفة منذ الساعة حتى المساعدة بتمشيط الكتاب الذى أعددته لك ، وحذار أن أضبطك مرة أخرى كما حدث اليوم وأنت تلقين الكناسة فى عز النهار ، سترين كيف أربط بعنقك حجرين كبيرين ، هل أصبحت لا تعرفين أبدا ما هى واجباتك ؟ وما هو الصح والحسن والفريضة ، منذ أن طغت عليك نزواتك يا مغرورة .

هكذا كانت تأكل نفسها ، لا تفلح فى تهدئة قلقها لأنها لم تتلق بعد من زوجها خبرا تنتظره بلهفة .

فى تلك الليلة ، قرابة الفجر رأت حلما فسرته بأنه أول نذير لها ، تراءى لها نيقيفور ليبان راكبا جواده مديرا لها ظهره ، متجها إلى شمس غاربة ، عبر سطح تسبح فى ماء عكر .

الفصل الثانى

أخذت الشمس ساعة الظهر تطلق سهام أشعتها من فوق قمة جبل ماجورا، رفعت فيكتوريا رأسها وزرت عينيها، بدت لها أشجار الصنوبر أشد قتامة، ولكن هذا كان وهما منها، مرجعه كسف من السحاب الأبيض، ظللت الشمس، الجو دافىء. وريح لاتكاد تقوى على أن يتطاير لهبوبها فى فناء الدار وورق شجر السرو والحور. كأنها فراشات سرقها الوقت وتأخرت عن الإياب، وتردد على درب القرية رنين أجراس مألوف، هذا هو متريا صبى المزرعة يعود مع قطيعه من الغنم وبقرتيه، وصل إلى سمع فيكتوريا - دون أن تتبين الكلمات بوضوح، زجره وشتمه للقطيع كالعهد به حين يزجه فى الباب المطل على الجبل ليدخل حظيرته.

• ألقت فيكتوريا مغزلها ونادت بصوت منغم:

- يامنيودورا، يا بنت ، تعالى هنا.

أجابتها الفتاة من تحت السقيفة:

- حاضر يا أمى سأجىء إليك.

- اتركى الكتان، عندى لك عمل آخر، صبى المزرعة قد عاد قبل الأوان، فلابد أن شيئا قد حدث.

أقبلت إليها الفتاة بسرعة، ترتدى صديرية بيضاء ونصفية سوداء مخططة بالأحمر، صففت شعرها على هيئة تاج فوق رأسها، لا تضع شالا على كتفيها، شأنها شأن كل فتاة فى عمرها، حافية القدمين، فحذاؤها الأصفر طويل الرقبة اللامع من أمام والذى ابتاعته من مدينة غيور غينى لا تلبسه إلا فى حفلات الرقص والزفاف أو عند زيارة المدينة.

سألتها فيكتوريا ونظرتها تائهة وصدرها يتنهد:

- وأنت .. ألست جائعة؟.

فأجابتها الفتاة وهى تضحك:

– لست جائعة، من الذى تبحث عنه نظراتك يا أمى؟.

أهو أبى؟!.

أجابتها المرأة وهى تئن:

– نعم، نظراتى تلاحقه، لكن لا أحد سوى الله يعلم أين هو، وحيدا بلا زاد، أسرعى الآن إلى البئر لاحضار الماء وتقليب نار الفرن وإعداد القدر لنطبخ عصيدة من الأذرة وهاتى لنا بيض من خن الدجاج واملئى لنا سلطانية بالجبن وافرزى الزنخ منه ليأكله صبى المرزعة.

– حالا يا أمى.

وانطلقت الفتاة تسرع الخطى فوق المدق الترابى المدكوك وتناولت قبل خروجها إبريقاً من فوق لوح من الخشب..

ودخل ميترا إلى الفناء من باب الحظيرة، يمشى متهيبا منحرفا .. إنه رجل لاينبىء مظهره عن عمره، قصير منطفىء النظرة، جمدت ابتسامته على وجهه الأجرد، يدس بين الحين والحين يدا أصابعها كالمخلب فى شعره الأحمر الكثيف المشوش.

– ماذا جرى ياميترا؟.

– هه؟.

– ماذا حدث ياميترا؟.

– لاشىء، خالص خالص.

– فلماذا عدت مبكرا؟.

– الحكاية وما فيها أننى شفت الرعاة نازلين بالبقر والغنم، رحت نازل مثلهم، الظاهر أن الجو سينقلب..

– من قال هذا؟.

– الناس كلهم، وأيضا رأيت سربا من الغربان الزرق، تطير جهة الشمس، عائدة لبلدها، وأكثر من هذا رأيت سحابة زاحفة الينا، لم تعجبنى، إذن فقد جاء الشتاء هذه المرة وأنا طالب منك ياستى حرملة من الصوف وطاقية من الفرو وقطعة من الجلد أصنع منها حُفا لى، دخلنا فى الشتاء بحق وحقيق، جاء أوان الرياح وسقوط الثلج وسنَسمع عواء الذئاب أسفل الجبل.

كلامه تمتمة بصوت أجش، وحين ذكر الشتاء والذئاب، دارت عيناه من الخوف فى محجريهما، أحست فيكتوريا بقشعريرة تسرى فى جسدها ووضعت مينودورا الأبريق وسألته وهى تضحك:

– هناك أشاعة بأنك ستتزوج ياعم ميترا.

– حق؟.

– يقال إنك ستتزوج ..

– يا داهية سوداء! ولو أنى لا أقول إلا إذا حكم ربنا، لابد لى أن أقنع بأرملة أو بنت أم ولد لم يسبق لها زواج، فليس عندى من الغنم مايكفى لدفع مصاريف زواج آخر.

الدنيا ملعونة والنساء تطلب العلالى .. ستعطينها لى إذن؟

– أعطيك ماذا؟

– قلت لك: حرملة وطاقية وجلدا للخف، فى كلمتين الشتاء هجم.

شدت ست البيت شالها على كتفيها، والرجل جالس يأكل على عتبة الدار.

وكانت البنت قد نشطت لتأجيج نار الفرن فى الفناء، وملأت القدر بالماء ونصبته على قوائمه الثلاث فوقها، ورمت فيه بحفنة من الدقيق وقليل من الملح وفجأة هبت ريح خشخشت لها فروع أشجار الحور وارتعشت الأغصان الرفيعة لشجر الصنوبر فى غابتها، وتردد فى الجو هزيجها ..

شملت فيكتوريا هبة من ريح باردة قادمة من الجبل واهتزت على جبهتها خصلات شعرها البنى وقربت بين جفنيها بعزم كأنما تطرح من جسدها خدره وفتوره، علىّ سفح الجبل كله، وبين مزرعة ومزرعة، تتجاوب من بعيد لبعيد نداءات وردود وأخذت الكلاب تنبح وانكسرت أعمدة الدخان فافترش الأرض، قال بلهجة المستعجل:

– انقلب الجو، هيا بنا نأوى إلى الدار .. ادخلى يابنتى واشعلى نار المدفأة.

التقطت الفتاة بهمة بعض شعل الحطب من الفرن ومضت إلى الدهليز، لف الشمس ضباب خفيف ثم أقبل سحاب مسرع من ناحية الجبل الكبير..

هتفت الفتاة لأمها:

– أعوذ بالله من الدخان، لابد أن طيرا ملعونا عشش فى رقبة المدفأة.

– ربما .. ليصعد ميترا إلى السطح لانتزاع العش.

– أمرك ياستى، سأصعد، ولكن هاتى أولا الحرملة والطاقية وجلد الخف، فأنت ترين بنفسك أن الشتاء هجم.

– معه حق يابنتى. اذهبى إلى المخزن واحضرى مطالب هذا الولد الغلبان المقطوع واقذفيها فوق ذراعيه ليبلع ريقه ويصعد إلى السطح.

– كيف أصعد وأنا أحملها، ماذا تريدين منى أن أفعل لرقبة المدفأة.

– أن تهد فيها عش غراب.

– سأهده ولكن ستدفعين لى أجر تعبى.

وأخذ ميترا يزمجر وهو يأتى بالسلم على حين مضت الفتاة إلى الجانب الآخر من الدهليز، تبحث عن مطالبه فى المخزن غير المسكون تفوح منه روائح غليظة للجلد والجبن وهتفت لى وهى ترمى حملها على عتبة باب المخزن، خذ هذه هى الحرملة وهذه هى قطعة جلد تكفى لخفك. وكان ميترا قد صعد على السلم ببطء ومن قمته نظر ليرى هل تكذب الفتاة عليه،

استعان بعصا طويلة ونقب بها فى رقبة المدفأة، فانطلق دخان كثيف ما لبث الريح أن كسرته وطوحت به من قبل أن يتعالى. وكانت أوانى المطبخ قد جمعت لوقايتها من الدخان ووضعت فوق السقيفة المضعضعة المكشوفة للهواء وفى غمضة عين أعيدت لمكانها المعهود فى الردهة فوق كتف المدفأة أو حولها واستعاد الدلو الخشبى موضعه القديم خلف الباب.

ونزل ميترا وهو يلهث وتناول الكوز واغترف من الماء وأخذ يشرب بجرعات كبيرة وهو ينفخ، وصب مابقى من الماء فى الكوز فى الدلو ثم أخذ يفحص كسوته الشتوية بإعجاب، ومرت لحظات خيم فيها الصمت على البيت، وزاد وضوح هدير العاصفة فوق القرية وكانت الدجاجات قد هربت حين تساقطت عليها أولى قطرات المطر البارد واحتمت بحنية السقف، ودهشت فيكتوريا حين رأت الديك الكبير، سواد ريشه خالطه البياض – يتقدم بجرأة ويلزم عتبة الباب، وقد دب فيها الأمل بأن تواتيها علامة تستبشر بها ولكن الديك أدار إلى البيت ذيله المقوس كالمنجل ومد منقاره ناحية باب مخزن العربات ثم أطلق صيحة واحدة طويلة كأنما دهش لها هو أيضا.

تمتمت فيكتوريا بحزن:

ـ لن يعود.

سألتها ابنتها بوجل:

ـ من؟ أبى تقصدين؟

استطردت فيكتوريا بمرارة:

ـ لن يعود، فإن الديك أنبأنا بسفر متوقع.

ـ ومن الذى سيسافر؟.

لم تجبها فيكتوريا وأخذت تتلفت حولها وبدا الجد على وجهها وخيل لها بسبب المطر المنهمر أن كل شىء بارد مبتل، اختفت الشمس وشحب الضوء، وأخذت الرياح تقذف إلى الدهليز بين الحين والحين ندفا من الثلج ما

أن تمس الأرض حتى تذوب وتختفى. ونشطت الفتاة لإعداد العشاء وضعت العصيدة فوق طبلية واطئة وقسمتها ومدت بنصفها إلى ميترا فى طبق مشطوف وبقطع من الجبن فى قصعة صغيرة، واقترحت عليه:

مد يدك لأضع لك إن شئت قليلا من الملح، ثم مضت تمتحن البيض فوق الموقد لأنهم لايريدونه إلا نصف مسلوق وأخرجته من الإناء بملعقة من خشب ووضعته من فورها فى ماء بارد ورمت فيكتوريا بنظرة مترددة.

ـ وأنت يا أمى ألا تأكلين؟.

هزت رأسها بالنفى، همست لها ابنتها:

ذهب ميترا للحاصل ليأكل عشاءه، هذه هى عادته. لايجب أن يراه إنسان وهو يأكل، فرشت على الطبلية غطاء وبدا عليها الحزن فانزوت فى ركن من الردهة مسندة كتفها إلى المدفأة، رفعت فكتوريا شالها وسترت بطرفه فمها. وعقدت ذراعيها على صدرها وقد استقام ظهرها فوق مقعدها الواطىء ترنو من وراء حجاب إلى أفاعيل العاصفة التى تصب عذابها على السماء والأرض، وكان يبدو أن العاصفة تهدأ بين الحين والحين فسمع من الجبل تحت السحاب صوت أغصان الشجر، شجر الصنوبر، وهى تضطرب وتضج، وأخيرا التفتت قائلة:

ـ وأنت يا بنتى ماذا تنتظرين؟.

أجابتها ميدورا:

ـ لست جائعة يا أمى. هيا هيا لاتشغلى بالك بى، قومى لتأكلى.

أين لك بإدراك همومى أو ملاحقة أفكارى. أنت صبية عزيزة تجهل متاعب الحياة، إياك أن ينشغل ذهنك بالفتى المختل كابور، فالخلل سمة أسرته كلها، بشهادة عيونهم الضيقة وأنوفهم الضخمة، وحين أراه يتعلم من بلاد غير بلادنا كيف تكون الأشعار والملح لمن يريد التحبب إلى الفتيات، أفتظنين أن هذا شىء يبسطنى؟، والآن ياشاطرة ياغندورا قومى لشغلك، تعهدى بالنفض والتنظيف بالفرشاة ما أعطيته لك من الوسائد والسجاجيد فهذا هو جهاز عرسك.

إنى عازمة على أن أزوجك قبل عيد الفصح. سأجد لك إن شاء الله شابا عاقلا يكون له بيت جديد فى القرية وقطيع غنم فى الجبل، يأخذك ويخلصنى منك.

تمتمت لها ابنتها وقد طفرت دموعها:

ـ لا تغضبى منى يا أمى، حرام سخطك علىّ لسبب كهذا.

ـ ابكى من اليوم لباكر، ولكنى أرفض زوجا لبنتى يكون كهذا الأبله الذى ولدته زوجة العريف بشطارتها.

ـ لا أريد منك يا أمى أن تختارى لى زوجا هرما أو دميما، فمن حقى أن أستمتع قليلا بالحياة أنا أيضا مثلك أنت.

غطت فكتوريا مرة أخرى فمها بطرف شالها وجمدت متجهمة متكتمة أسرارها، لزمها مضى وقت غير قصير وهدأت من جبروت العاصفة قبل أن تفتح فمها مرة أخرى.

ـ قلت لك أكلك ينتظرك.

استسلمت الفتاة ورفعت المفرش الذى كان قد مد فوق الأطباق ونهضت فيكتوريا وسوت ثنيات نصفتيها وشدت حزامها الجوانى تحت صدرها ثم مضت إلى حجرة إلى يمين الباب لتبدل ثيابها.

ارتدت جوربا غليظا من الصوف الأسمر وحذاء برقبة طويلة ودعكت بين كفيها عودا من الريحان ومسحت بهما على جفنيها ثم رمت بمعطف مبطن بالفرو على كتفيها، وقالت لابنتها.

ـ سأذهب إلى القس دانيلا، لابد أن أرسل خطابا لغيورغيتا فلا تنسى إطعام الدجاج قبل دخوله الخن وإيقاظ صبى المزرعة لاشك أنه الآن متلفع بحرملته ويغط فى نومه بعد أن جذب طاقيته فوق عينيه.

أجابتها ابنتها وقد طأطأت رأسها:

ـ حاضر يا أمى.

تناولت فيكتوريا من وراء الباب عصا غليظة معقدة واجتازت الفناء، وكانت الرياح قد هدأت وتريثت تحت سماء داكنة ذات سحب واطئة تنذر بالمطر.

قامت الفتاة وهى ساهمة مشغولة البال تريد أن توقظ صبى المزرعة، فطرأت على ذهنها فكرة تهلل لها وجهها واستحسنت قبل تنفيذها أن تفرغ من غسل الصحون وكنس فتات الطعام من أمام المدفأة، وفجأة لحقتها، من فوق بالقرب من الباب القلاب للمخزن تحت حنية السقف ومن جوف الظلام، نظرة حادة ثاقبة من عينين مستديرتين لقطة رمادية، أخذت تموء بخفوت تطالب بنصيبها من اللبن..

قربت مينودورا قصعة مشطوفة إلى كوم الفتات وصبت فيها قليلا من اللبن فقفزت القطة بخفة وحذر من فوق سلة إلى كتف المدفأة ثم إلى الأرض، وبدأت تلعق اللبن بلسانها الصغير الوردى وأخذت مينودورا تتلفت هنا وهناك وقد وشت لمعة عينيها بأنها تدبر خطة، سيطول غياب أمها إذ ستقوم كعادتها بمشاوير أخرى، فهذه فرصة لأن ترسل ميترا ليأتى لها بجينيكا ابن معلم المدرسة .. أنها تحب من هذا الفتى العفريت همته فى الكتابة بسرعة وجرأته على التطلع إليها بعينين كحبتى زيتون .. إن علمه مهول فهو تلميذ بلغ السنة الرابعة الثانوية بمدينة جاساى، ويريد له أبوه أن يكون طبيبا، سيأتى لها من عنده بالورق والحبر، وسيجلس إلى المنضدة أمام المرآة، يتفحص فيها أولاً وجهه ثم تصفيف شعره ويقبل عليها بكل انتباهه ينتظر ما تملى به عليه ممسكاً القلم فى يده..

كانت قد أدارت فى رأسها من قبل كل ما تريد قوله لغيتا طوبور، بل تدبرت كيف تتخير ألفاظها، إذ أنها تحفظ بعض العبارات التى تعلم أنها ستروقه ولا ريب، وأخذت تتمتم بهذه العبارات وهى تنظر إلى القطة الصغيرة.

– والآن وأنا أرفع القلم عن الورق أبثك عاطر أشواقى، إذا كان الورق عليه صفرة خفيفة، فإن ذكراك مخضرة فى قلبى. إننى أتمنى لك تمام الصحة والعافية فهذا هو أهم النعم وأغلاها.

ولا يكفى هذا بل ستقول في نهاية الخطاب:

– وإليك من قلب واجف أجمل تحية منى أنا مينودورا ليبان.

حقاً إن جينيكا ابن الأستاذ مورينسكو محبب لديها، لأن خطه جميل وكتابته سريعة، ولأنه ما أن يرفع رأسه عن الورق حتى يعيد باتصال ما قرأه عليها من قبل مقطعاً وهو يمنحها ابتسامة جذابة، وكل كاتب عمومى نعرفه فى القرية يلتزم استخدام عبارات خاصة به، فليكتبوا بهذا الأسلوب رسائلهم إن شاءوا، أما هى فتريد أن تكتب رسالتها وفق رغبتها.

– تريدين مزيداً من اللبن؟

أجابتها القطة بمواء خافت كأنما تقول نعم، صبت لها قليلاً من اللبن ثم مضت وهى تردد بعض الأغانى لتوقظ صبى المزرعة الذى يغط، تحت حرملته، فى نوم عميق.

الفصل الثالث

اتجهت فيكتوريا إلى الكنيسة، سالكة دروباً طويلة متعرجة، ثم مدقاً يشق البساتين، تكاد قدمها تنزلق أحياناً فوق أرض لزجة، وأحياناً تجد الطريق مأموناً بسبب امتصاص الحصى أو الرمل للوحل المختلط بالثلج، والكنيسة مقامة وسط سفح الجبل، تحيط بها مقبرتها وعلى اليمين غير بعيد مسكن القس دانيلا وما يتبعه من مبان ملحقة ومخازن، وفى الناحية الأخرى من الكنيسة كوخ صغير له هيئة نبات الفطر فى أرض جرداء.

هذا هو مسكن ماراندا العجوز، سيجىء دورها فى جولة فيكتوريا فلها عندها حاجة.

إنها ستذهب أولاً للقس ليكتب لها رسالتها، فإذا مضى النهار تسللت إلى كوخ العجوز.. ولكن بشرط أن تسود العتمة حتى لا يلحظها أحد.

تريد أن تنجز كل مهمة فى أنسب الأوقات وأصوب ترتيب.. فعرجت أولاً على الحانة ودخلت من الباب الخلفى حتى تتلافى الأخذ والرد بينها وبين معارفها من الزبائن، إذ سيسألها كل واحد كالعادة عن زوجها.. وستضطر إلى هز كتفيها مرة بعد أخرى ليفهموا أنها لا علم لها بأخباره.

ستتعمد رغم غمها وانكسار قلبها أن تمنحهم وجهاً بشوشاً.. وأن تجيب عليهم بمرح.. وأن مزاجها اليوم لا يحتمل الثرثرة فقد أرسلت فى طلب صاحب الحانة المعلم بوردان.. وهو رجل معروف بأمانته واستقامته.. له خدان متوردان وكرش ضخم لا يلمه حزام من الجلد إلا بصعوبة.. جاءها مهرولاً وتملص بمشقة من الباب الضيق، فمدت له دورقاً أخضر صغيراً وسألته أن يملأه بخمر الزبيب.. كما طلبت أيضاً ورقة خطاب ومظروفاً.. حملتهما بين أصبعين فى يدها اليسرى وصانتهما فوق صدرها بحرص، بعد أن سترتهما بقطعة من ورق اللف رمادى اللون.. أما الدورق الأخضر فقد دسته فى جيب قميصها التحتانى. وبعد أن تزودت صعدت إلى مسكن القس، ولم تكد تظهر أمام الباب حتى جرت الكلاب إليها وهى تنبح عالياً..

نادت ودقت الباب مراراً بعصاها.. فرأت خادماً أشعث يخرج من باب المطبخ الصغير فى جناح المسكن، فزجر الكلاب وسبها ورماها بقطع صغيرة من الخشب يلتقطها لقط عشواء وهو منحن إلى الأرض، ومشت فيكتوريا مع المدق الترابى المؤدى إلى المدخل الرئيسى، فاستقبلتها قرينة القس، هى كالعهد بها منهمكة فى شغلها، عاكفة على نسج سجادة مزينة برسوم الأزهار.

إنها امرأة شاحبة الوجه نحيفة، بارزة العظام، لا تكف عن الشكوى بصوت معتل، ذابل، لأن جو الجبل لا يصلح لها، حيث هي مولودة فى أرض فسيحة.. وديان فسيحة ناحية قرية بروت، والدنيا هناك غير الدنيا هنا.

فهناك شمس ساطعة فوق حقول واعدة بمحصول وفير أما هنا فإنها حتى فى الصيف لا تخلع الصديرى الصوف المبطن بالفرو، ومع ذلك فهيهات أن تنعم بالدفء.

لقد فارقت أسرتها منذ خمس وعشرين سنة، ولم تلتق بها قط من بعد .. فأبواها من فرط الشيخوخة لايقويان على السفر إلى الجبل.

إنها أتحفت زوجها بستة أولاد كلهم صبيان أشداء، الجسم متين والخد مشدود، يتلقون تعليمهم فى مدارس مختلفة بالوادى، تطيب صحتهم فى الوادى كما تزدهر فى الجبل، فكأنها أورثت أبناءها عافيتها ودماءها ..

ألقت عليها فيكتوريا تحية المساء ولثمت يديها فقالت لها بصوتها المعتل الذابل:

– أقادمة أنت للقس يافيكتوريا؟.

– نعم .. فقد جئت أطلب نصحه وأرجوه أن يكتب لى خطابا.

– طيب يافيكتوريا .. إنه فى حجرة الجلوس، وقد عاد لتوه من الجبل، أتعبه الفلاحون كثيرا ولكنه عرف كيف يسوسهم ويصلح بينهم ..

لقد فرغ من تناول غدائه وأظنه الآن يستريح قليلا ..

انفتح الباب وعلا صوت غليظ ينادى:

– من جاء؟

– أنا، فيكتوريا، يا أب دانيلا.

– آه .. أهو أنت يافيكتوريا .. ادخلى من هنا ..

مد القس دانيلا يده لباب وفتحه على مصراعيه بباع من حجمه المهيب المبارك، وفتح أيضا ذراعيه واهتزت لحيته فوق كرشه..

إنه رجل ضخم قوى، ضيق العينين، حاد النظر شعره الأشهب مشدود فى ضفائر تتجمع شبكتها فوق قفاه، وأسنانه تلمع من خلال شاربه الطويل الكث ..

دخلت فيكتوريا وأغلقت الباب وراءها، وبقيت قرينة القس وحدها أمام منوالها وقد زاد انحناء رأسها بسبب عتمة المساء فوق السجادة المزخرفة بالزهور.

سألها القس:

– هل يلزمك إرسال خطاب وتريدين أن أكتبه لك؟، اجلسى هنا وسأشعل المصباح وأكتبه لك فورا.

أجابته المرأة:

– من أجل هذا جئت أيضا يا أب دانيلا.. إذ يلزمنى قبله شىء آخر، هو نصيحتك لى، جئت ألتمسها منك.

– طيب .. هأنذا أصغى إليك، ما الحكاية؟

مدت فيكتوريا بالمظروف وورقة الخطاب برفق فوق المنضدة الصغيرة المستديرة والتى تتوسط الحجرة ثم ترددت قليلا.

كانت نظرتها تطوف بما حولها من أثاث أهل المدينة دون أن تستقر عليه لتشبع منه، حتى قالت فى صوت تملك زمامه:

– لا أدرى يا أب دانيلا ماذا حدث لزوجى، بدأت أقلق عليه.

افتر ثغره عن أسنان عفية حين أجابها وهو يعابثها:

– قلق ، قلق . ماهذا الكلام؟ إن زوجك قد احتجزته أشغاله، غداً أو بعد غد يعود وجيبه يشخشخ بالنقود وسيأتى للم ومن بياترا بشال من الحرير جديد، بشوكه.

– ياليت! ولكنى أعتقد أن متاعب كثيرة اعترضت طريقه وأنه لم يعد إلى الآن بسببها.

– وهل عندك خبر عنه؟ هل عندك دليل على هذه المتاعب؟.

– لا .. ومن أجل هذا تفترسنى الهموم، لقد خبرت طوال عشرين سنة كيف ذهابه وإيابه فى أسفاره، إنه قد يتأخر أياما قليلة يزيط فيها مع عازفى القيثار، إنه رجل وذلك حق الرجال لكنه كان يعود حتما إلى داره مسرعا لايطيل الغياب، يعلم أن قلبى ملهوف عليه وأننى متعلقة به ..

أجابها القس وهو يضحك بانشراح:

– نعلم هذا ونشيد دائما بكما.

– على هذا فإنى وأنا امرأة جاهلة لم أجد إلا أصابعى لكى أعد عليها الأيام.. فلقد حدثت له منذ سبع سنوات أن رحل أيضا إلى دورنا ليشترى النعاج، عقد الصفقة وعاد بسلام بعد أن اتسع له الوقت ليهبط بالحملان إلى المشتى الذى استأجره وعهد بها إلى الرعاة .. ثم أحصى قطيعه وسوى حساباته ودفع ديونه. وتمكن حينها من التكلؤ يوماً آخر فى قرية جاسى ويوماً بعده فى بياترا، ولكنه عاد إلى بيته قبل مرور عشرين يوماً على سفره، أما هذه المرة فإن غيبته طالت أربعين يوما.

– أممكن هذا؟ حقا لم يكن لى علم بشىء مما تقولين.

– وكيف تعلم يا أب دانيلا، إن هذه أشياء لاتعلمها إلا الزوجة، والألم لى لا لغيرى، لا أجد سواى ليعد الأيام فى وحدتى بالليل، ساهرة أنا أسمع

صرير الجنادب فى المدفأة، وفوق ذلك فقد رأيت الليلة الماضية حلما لم أسترح له.

– دعيك من الأحلام، هى كذب فى كذب.

– ربما.

لكن حلمى هذه المرة كان ينطق بأنه إجابة على رسالة، فلقد لاحقته بندائى عليه وسؤالى بلهفة عن أخباره فاضطر أن يبعث إلىّ برده.

كان حلما كريها، رأيته فيه يخوض بجواده ماء عكرا..

– إذن هو قادم إليك.

– لا لا .. كان موليا ظهره لى ماضيا فى طريقه، مبتعدا عنى.

– حكايات نسوان، ومسئوليتى كانت وستظل أن أشفيك من مثل هذه الأوهام.

– لست واهمة، وحججى أقوى مما تتصورها.

– كل شىء جائز، لعل هناك ما عاق زوجك عن العودة، ربما ألم به مرض ملخ يده أو قدمه.

– هذا ما قدرته أنا أيضا يا أب دانيلا .. ولكن لو حدث له شىء كهذا لأخبرنى به، ولما كنت هنا الساعة، بل كنت أكون بجانبه.

– أنقول إنه اندفع فى إحدى حماقاته.

هزت المرأة رأسها تنفى هذه الشبهة، فلم يبق للقس إلا أن يقول لها:

– سأصلى لك فى الكنيسة، عسى أن يرشدك ربك وينير بصيرتك ويطمئن قلبك.

– نعم . أرجوك أن تصلى له يا أب دانيلا، فهذا أفضل إذ لم يعد لى من أمل إلا فى رحاب الله والعذراء والقديس جورج، فتشفع لى بهم فى دعواتك عسى أن أجد خلاصى بفضل رأفتهم بى. ليس معى نقود لكننى سأدفع رسوم إقامة القداس.

ليست الرسوم هى التى تشغل بالى .. ثم إننى لست فى حاجة إلى نقود وإن كنت أقبل بسرور كبشا مفرطح الذيل - من تلك الكباش التى عاد بها نيقيفور آخر مرة - فإذا صعد القطيع مع مقدم الربيع، فأرجوك أن تعطينى واحدا منها.

- على العين والرأس، لن أتأخر إذا رأيت زوجى عاد من سفره، فمن أجل غيابه جئت إليك. ليس أمامى من أستنصحه سواك. فأنت فى هذا الجبل معتبر عمدة ومأمور مركز فى آن واحد. لقد فكرت أن نكتب أيضا إلى شرطة البندر فى دورنا لنعلم منهم ماذا حدث للرجل.

- لا مانع، ولكن من الذى يعرف زوجك هناك.

- لا أحد يعرفه، فمقامه هناك مقام الغرباء العابرين. ثم إنه كان يعتزم شراء النعناع من رعاة جهة راراو.

- إذن ما الفائدة من الكتابة إلى دورنا؟.

أما عن جهة راراو فليس فيها الآن ديار أو نافخ نار، أصبحت ملكا لعفاريت الغابة.

غلبت ابتسامته على شفته، على حين تنهدت زوجة ليبان وهى تشيح بوجهها وتستر فمها بكفها:

- أراك جئت بورق ومظروف، أمن أجل خطابك إلى دورنا؟

- لا ، بل أريد أن أرسل خطابا إلى ابنى لأخبره بغياب أبيه.

- طيب، حالا، سأكتب لك الخطاب الذى تريدين.

- على بركة الله، رأسى برأسك.

طبقت حاجبيها وشخص بصرها وهى تتمثل ابنها غيورغيتا فتراه واقفا مع الرعاة فى السهل وسط القطيع، فشرعت تخاطبه وهى تزن كل كلمة.

وبقى القس جالسا إلى المنضدة ينظر قولها، القلم فى يده، وجذعه محنى إلى الأمام، وقميصه قد انفك فكشف عن صدر كثيف الشعر كأنه مقبل على أداء عمل شاق جاءها مرارا صوت خبطة الماكوك على المنوال الذى تنسج عليه قرينته سجادتها فى الحجرة المجاورة.

وبدأت فيكتوريا تقول وهى رامية نظرتها إلى بعيد:

- ياغورغيش.

- (فكهذا تنادى ابنها تدلله) يا ولدى.

أعلم أن أباك لم يعد إلى البيت، وأظنه بعون الله سيحضر إليك فى كريستيشستى، فإذا لم يحضر فعليك بالاتفاق مع الأب إليكسا أن تتخير من الكباش السمان عددا تبيعه يكفى ثمنه لسداد النفقات الضرورية..

فإذا زادت فاكتب إلىَّ لأرسل لك الفرق .. إذ لاتزال لدينا فى البيت سبعون قطعة من جلد النعاج ومائة من جلود الحملان، وستون قرصا من الجبن المجفف، سأبيع منها وأرسل إليك النقود للعودة إلى البيت مع العيد .. إننى فى حاجة إليك فإنك اليوم رجل الأسرة الوحيد..

أنصت القس باهتمام مبديا موافقته على كلامها بهزة من رأسه وهو مبتسم بتسامح وعطف، غمس قلمه المربوط بخيط فى حبر بنفسجى لمحبرة علاها التراب، ثم رفعه ورسم به فى الهواء أحرفا من مشق كبير مزخرف لكى يدرب يده ثم حرر لها خطابا بأسلوبه البليغ .. استمعت له فيكتوريا بخشوع هو يتلوه عليها بصوته الأجش.

- ابنى العزيز الغالى.

اعلم أننى برحمة من المولى سبحانه أنعم بصحة طيبة، وأتمنى أن تنعم أنت بمثلها أيضا .. سأبيع بضاعتنا المخزونة وأرسل لك بالنقود التى تلزمك..

وبدا لفيكتوريا أن كل الذى كانت تريد قوله ابنها قد ورد فى الخطاب.. وإنما بأسلوب أكثر وضوحا وبلاغة .. فلثمت يدى القس وأكدت له وعدها بتقديم الكبش.

الفصل الرابع

شقت فيكتوريا المقبرة فى الظلام.

كوخ العجوز ميراندا هو وحده الذى يلقى من كوة فى حجم الكف بصيصا من الضوء على سفح الجبل، وحين اقتربت فيكتوريا من الباب جاءها من داخل الكوخ صوت عواء عجيب، كأنه عويل مخلوق سفلى تحسب أن يدا تخنقه وأنه يتفزز وهو يصارع الموت، وأن هدهدة العجوز له من وراء الباب بصوت حنون لاتفلح فى تسكين روعه.

قالت فيكتوريا فى سريرها:

- إنها ولا ريب كلبة الساحرة، لها أسنان دقيقة صلبة المسامير، سنتها العجوز ميراندا على حجر صوان ..

وانفتح الباب .

- أهو أنت يافيكتوريا؟

لقد كنت أنتظر قدومك..

أجابتها بدهشة:

- حقا؟ لعلك رأيت مرورى إلى بيت القس.

- كلا، لست فى حاجة لكى أعلم أن أرى إن لى وسائل أخرى أعرف بها كل شىء .. ادخلى.

وظللت كلبة الساحرة الصغيرة تزمجر بخفوت وراء المدفأة، إنها كلبة قميئة عجفاء، لها أذنان منتصبتان كأذنى الخفاش، وعينان كأنهما شقان لايتجاوزان سطح الجلد، وشعر قصير فى لون الفئران، يرتعش أحيانا فيرتعش معه جلدها كله، حينئذ تصدر منها زمجرة كالفواق، كأنما تريد أن تخيف بها الناس ..

رفعت العجوز سبابتها اليمنى وأشارت للكلبة:

- اسكتى.

إعقلى، يانتوس عين ماما.

خرست نتوس عين ماما وتكومت وراء المدفأة.

سألتها فيكتوريا وهى تبتسم:

- أفى باطن هذه الكلبة تخفينه؟

- أخفى ماذا؟

- لا أدرى كيف أسميه .. أنت أعرف منى باسمه ورفعت العجوز رأسها إلى السقف وضربت كفا بكف.

- يا حبيبتى يافيكتوريا، حذرتك مرارا من أن تجىء سيرته على لسانك، وحذرتك أكثر من ذكر اسمه، فإن هذا يجلب الشر.

أجابتها فيكتوريا وهى تدير نظراتها فيما حولها:

- طيب طيب .. هل قمت بسؤاله؟

- عن أى شىء أسأله؟

جلست زوجة ليبان على طرف دكة، هى كل ما فى الحجرة من مقاعد تعبق بها رائحة دخان مختلطة بنفح زهور جافة.

إما مطروحة فى الأركان وإما متدلية من عوارض السقف، وبالقرب من الطرف الآخر للدكة صندوق صنعة ولاية ترانسلفانيا، وعليه رسوم زهور، ألقيت فوقه وسائد وأكداس من الثياب، أما للقفل فهناك رتاج غليظ وقفل ثقيل..

قالت فيكتوريا فى سرها، إنها تخفيه داخل هذا الصندوق، فهناك إشاعة يرددها أبناء القرية جميعا بأن ميراندا تخفى فى بيتها عفريتا، إذا

قبل الملعون فقد عنوه، فإذا هفا إنسان ونطق باسمه قبل أن يرسم علامة الصليب بطرف لسانه على سقف حنكه، فإنه يصاب بالخرس من فوره.

أى شىء هو هذا العفريت، لا أحد يدرى. ومالت فيكتوريا إلى الوثوق بأن الساحرة تخفيه داخل كلبتها، وقد تكررت الإشاعة كاذبة من أولها لآخرها، ولكن العجوز أثبتت أن لاشىء يخفى عليها وأن لا حيلة تعجزها. تنهدت فيكتوريا، وصبرت، إن ميراندا تعلم يقينا لأى سبب جاءتها، ولكن الساحرة تجاهلت قصدها، وأخذت تفيض فى الشكوى وتندب حظها ..

- مسكينة أنا، كم أنا بائسة، لا أحد يذكرنى لا أحد يزورنى، ولايتكرم علىّ مخلوق بقطعة من الحطب وحفنة من دقيق ولكن إذا وقعوا فى مشاكل أو أمراض فإنهم حينئذ يذكروننى.

أجابتها فيكتوريا وهى تثبت عليها نظراتها:

- بذمتك ياست ميراندا، هل خرجت يوما من بيتى وأنت فارغة اليدين.

- لا أنكر يا ابنتى وإلا كذبت على الله، حيث لاتخفى على الله خافية..

سمعت فيكتوريا هذا الكلام فصوبت نظرتها إلى الجدار من ناحية الشرق، معلق عليه لوحة للقديس سيسويه المعروف أنه هو المتصرف فى العفاريت الصغار، خيل إليها أنه يرقبهما وينصت إليهما ويبتسم، إنها لوحة من خشب الزيزفون، أعجب شىء فيها هو لحية القديس الشهباء المشوشة فقد بدت كأنما تعابثها هبة من ريح لاتنقطع.

واستطردت فيكتوريا:

- إذن لماذا تقصدينني بهذا الكلام؟.

- لم أقصدك أنت، وإنما قصدت الأخساء اللئام الذين كتب علينا أن نعيش بينهم..

- دعينا من هذه السيرة الآن ياميراندا لأنى أريد أن تحدث عن مسألة أخرى، خذى هذا الدورق، لقد جئت لك بملئه من خمر الزبيب، من أجود

صنف، من عند المعلم يوردان، صبيه فى زمزميتك وأعيدى الدورق لى حتى أملأه لك فى زيارة قادمة، وإذا بدا لك أن تأتى لبيتى فلا تنسى أن يكون معك كيس وبرام لأضع لك فيه شيئا من الجبن.

لم ترفع العجوز بصرها عن مصباح البترول الذى يتراقص ضوء فى خفوت من فوق كتف المدفأة، زمت شفتيها وهى تنوح بيأس وتهز رأسها مرارا.

– الدنيا ليس فيها خير، يا ابنتى، هى ملأى بالأذى والشر .. اعلمى أن زوجك نيقيفور ليبان قد وصل إلى الجهة المسماة دورنا ليشترى النعاج من بعض الرعاة، ولكن يشاء القدر أن يقابل بعد ذلك هذه المرأة أم العينين الخضراوين والحاجبين المقوسين، اعترضت طريقه واستحوذت عليه، وهيهات لها من بعد أن تخلى سبيله.

حبست فيكتوريا أنفاسها، تحس أنها تختنق.

– والنعاج، هل اشتراها؟

– هذا يا بنيتى مالا أعرفه بعد، ولكن نقوده على كل حال لم تنفد، إنه يعيش هناك معيشة الأمراء أبناء الملوك .. يخرج الذهب من جيبه وينثره على عازفى القيثار..

– هل هذا صحيح يا أمى ميراندا، أنى لا أصدق ما أسمع ..

– ولكنها الحقيقة يانور عينى، أستطيع أيضا أن أفتح لك الفأل بورق الكوتشينه حتى ترى بعينيك صدق ما أقول، أنا أيضا جرى لى مثل هذا مع زوجى أيام شبابى.

– وهل عاد إليك زوجك؟

– نعم عاد واستقبلته بموال يعجبك من الصنف الممتاز.

شدت الساحرة من تحت حزامها كوتشينه رثة متسخة، ووضعت على الدكة مقعدا له قوائم ثلاث، مدت فوقه غطاء وفرشت فوقه الكوتشينه، من بينها ورق عليه تصاوير ترمز للحزن والفرح.

قدمت لها ورقة البنت «البستونى» فلمستها بشفتيها لتفضى إليها بحيرة قلبها وتدعوها لإنارة بصيرتها.

– انظرى ياحبيبتى، نزلت ورقتك فى مقام الحزن والدموع، وتقول ورقة زوجك – فهذه هى صورة الشايب – إنه مع جمع من الرجال، وصورة البنت وهذه هى المرأة أم العينين الخضراوين تلتصق به، لاتفارقه، كما قلت لك..

غرقت فيكتوريا فى التفكير وهى تتأمل الورق لتتبين منه مصداق قولها ونطقها بالحقيقة .. وقالت باستسلام :

– صحيح، أهذا مايقوله الفأل؟ ولكنى أريد أن أعرف هل رآه «هو» أيضا؟

– هو من؟

أرخت فيكتوريا بصرها على الكلبة التى رفعت فى اللحظة ذاتها رأسها وصوبت إليها نظرة ثابتة وسمعتها تزمجر بصوت كأنه خارج من تحت الأرض ..

– هذه هى الحقيقة، ليس فى يدك إلا تصديقها ..

قالت لها فيكتوريا كاشفة لها عن مثار قلقها :

– رأيته الليلة الماضية فى حلم، راكبا جواده، يخوض مستنقعا من ماء عكر ..

– ألم أقل لك، رجل فوق جواده، هذا رمز للعراك.

– كان ماضيا فيما يبدو نحو مغرب الشمس .

– هذا ما يقوله الفأل أيضا، انظرى إنه أمامنا متجه إلى فراش هذه المرأة الغريبة .

تنهدت فيكتوريا وزمت شفتيها المرتعشتين من فرط الألم وقالت:

– كل شىء جائز، ولكنى لا أكاد أصدق.

– أنا عارفه، صعب عليك تصديق ما أخبرنا به الفأل، ومع ذلك فاسأليه حينما يعود عما حدث له فى دورنا، لن يعترف لك لأنه ليس غبيا .. ولكن اسأليه على كل حال .

– طيب فهمت، يا ربى، ما أكبر سعادتى لو أننى رأيته يعود.

– إنه سيعود، انظرى، ترتيب الورق يشير أيضا إلى فرحة، وإلى هدية .

وسعت العجوز بجسمها الثقيل فى الحجرة تبحث عن زمزميتها الخشبية لتصب فيها خمر الزبيب المجلوب من عند المعلم يوردان، يختلج لحمها المتهدل فوق عجيزتها .. وتختلج أيضا تقاطيع وجهها، وعادت وهى تلهث ورفعت المقعد عن الدكة وبدأت تقول لها بصوت مختلف أشد الاختلاف :

– إذا لزم الأمر فسنرسل إلى هناك الطائر الذى ينعق ليلا وله عينا إنسان.. لكن إرساله كما تعلمين لايخلو من المشقة والتعرض للمخاطر.. مع ذلك فإننى مستعدة لخدمتك .

– لكى ينعق بموت المرأة الأخرى؟

أمنت الساحرة على كلامها وهى تحنى رأسها ببطء.

خفق قلب فيكتوريا ولكنها اعتزمت فى قرارة نفسها وبلا نكوص – أن تسوق الهلاك إلى هذه المرأة أم العينين الخضراوين، لكنها رأت من واجبها نحو خالقها، ثم نحو القديس أن تقدم كفارة عن إثمها.

– سأصلى أولا للعذراء، وسأصوم يوم الجمعة من كل أسبوع حتى أكمل صيام إثنى عشر يوما، فقد لاينتهى صيامى – حتى يكون زوجى قد عاد .

تنهدت الساحرة بخفوت وعاد صوتها مرة أخرى إلى الاختلاف والغرابة.

– كان الله معك يا بنيتى .. كل شىء بإذنه ..

خرجت فيكتوريا ونظرت إلى السماء فرأت سحبا رقيقة يلقى عليها القمر ضوءه الشاحب، وجاءها صوت الكلبة من بعيد، كأنه صادر فى هذه المرة عن احتكاك أسنان منشار.. أنصتت إليه حتى لم يبق منه فى أذنيها إلا

نبهة غامضة .

وفى تلك اللحظة مرق من جانبها الطائر الذى تحدثت عنه الساحرة، ضرب الهواء بجناحيه ضربا خفيفا فوق أجداث المقبرة.

لا وجل فى قلبها، يحدثها ضميرها أنها كالعهد بها لم تحد عن الاستقامة والورع، ومع ذلك انفلتت تمشى بسرعة كأنها هاربة .. حيث كانت الريح قد هبطت أما هدير النهر فقد كان يترامى إلى أذنيها ..

اقتربت من بيتها فتبينت أن المصباح قد انطفأ، دخلت من باب السور واخترقت الفناء ورأت شعلا لاتزال تحترق تحت الرماد فى الفرن السماوى، ثم تعثرت قدمها على جسم لين، وأوشكت أن تقع، وأخذت تتحسس طريقها بطرف عصاها، سمعت ميترا ينادى من تحت حرملته بصوت أثقله النعاس.

– من دخل الفناء؟

كتمت فيكتوريا ضحكتها ولم تجب، فهب صبى المزرعة واقفا وكرر سؤاله مرة أخرى بصوت عال، واندفع نحو الباب ووقف مذهولا وقد أسقط فى يده، سألته سيدته :

– ماذا جرى يا ميترا؟.

صرخ الصبى مرة أخرى :

– من دخل الفناء، أجب، انطق، ثم استدار إليها وقال :

– لم ألحقه، هرب منى ، لقد رحل.

– من ؟

– الشخص الذى دخل الفناء، قد رأيته بعينى كما أراك الآن أمامى، ظللت أصرخ إليه لكى تخرجى أنت أيضا من البيت، فإذا به يختفى كأنما بلعته الأرض . حدث لى مثل هذا مرارا وأنا فى الجبل، أتعرفين .. هذا شغل عفاريت .

– طيب طيب .. عد ونم تحت حرملتك وارقد على جنبك الأيسر حتى تهدأ.

أجابها وهو يتمتم بصوت خافت مضطرب:

- ودينى وإيمانى هذا شغل عفاريت .

ورفع ذراعه وأخذ يحك إبطه، وضحكت فيكتوريا من كل قلبها ؟

أضيء مصباح فى البيت ... ونادت مينيدورا وهى على عتبة الباب وقد لفتها العتمة :

- أهو أنت يا أمى ؟

كنت نائمة فأفزعنى هذا الصراخ .

فأجابها ميترا وهو يبرطم :

- وكيف لا أصرخ حين أرى العفريت . لابد من استدعاء القس دانيلا ليتلو صلواته ويرش الماء المبارك، لا ياستى، سأنام من غد فى الجنب الآخر من الفناء .

جر وراءه حرملته جر جسد ميت، وشق دائرة الضوء واختفى فى الظلام.

دخلت فيكتوريا البيت وأشعلت الفتيلة السهارى أمام الأيقونة ورسمت على رأسها وكتفيها علامة الصليب، حيث لمع لوحا الزجاج فى النافذتين لحظة وهى تعكس أول توهج للفتيلة ثم استعادت بريقها الخافت .

* * *

الفصل الخامس

اقترب عيد رأس السنة، فعاد غيورغيتا من الداوى بعد أن عهد إلى الراعى الشيخ إليكسا برعاية القطيع فى الحظيرة المعدة لفصل الشتاء.

لم يعد نيقيفور ليبان على خلاف عادته التى قررها هو بنفسه أما ابنه فقد أطاع تعليمات أمه كما وردت فى الخطاب الذى كتبه لها القس دانيلا .

ضمته أمه إلى صدرها ولثمت وجنتيه ثم مضت إلى حجرة أخرى لتخلو لنفسها وتنخرط فى البكاء وفق هواها، ولكن سرعان ما تذكرت أن ابنها عائد من بعيد، متعب ولاشك جائع، فرجعت إليه تحمل له رغيفا أسمر ساخنا، ولفة من ورق شجر الصنوبر حشوها سمك مدخن وأرسلت ميترا على التو إلى المعلم يوردان صاحب الحانة ليأتى لها بلتر من خمر الزبيب من أجود صنف، وأقبلت على غيورغيتا تطلب منه أن يروى لها كل ما حدث بالتفصيل، ثم ما لبثت أن تركته لتلحق بميترا قبل أن يخرج لتصرخ إليه:

- لاتدخل إلا من الباب الخلفى .

وعادت وجلست على حافة الدكة ومنحت ابنها سمعها .

غيورغيتا شاب وسيم، أزج الحاجبين كأنهما مرسومان بقلم، ورث عن أمه عينيها، ليست الثرثرة من طبعه ولكنه يجيد رواية مشاهداته وأفعاله، على وسطه حزام عريض من الجلد، يروق له وهو يتكلم أن يفرد سترته الجلدية المزخرفة الحوافى بزهور مطرزة ويدس كفه من تحت حزامه، ابتسامته حلوة، كابتسامة فتاة عذراء، فتى طر شاربه من قريب، كانت أمه تجلس إلى المنضدة الصغيرة فى مواجهته، وترمقه بإعجاب، وانكبت مينودورا على مقعد واطىء صغير، مستعدة للخدمة، ملبية أول اشارة. الغابة من وراء البيت قد تناثر على أشجارها فتات من الثلج تحت سماء زرقاء مشمسة فى هذا اليوم الذى تبدأ فيه الثلوج تذوب .

– هل كل شيء على ما يرام هناك؟.

– نعم ، كل شيء ، وجدنا غابا عاليا فأقمنا به حظائر محكمة تغالب شتاء ثلاث سنين لا سنة واحدة، وحفرنا الأرض لإعداد الزرائب المستوردة، ودفعنا كل ديوننا، الشتاء لم يحل هناك بعد. والنعاج لاتزال تجد عشبا فى الوادى فتذمر أصحاب الأرض، ولكن الراعى الشيخ أليكسا عرف كيف يرد عليهم ويسكتهم، فهو معمر كثير التجارب وهذه هى المرة الخامسة والخمسون التى ينزل فيها هذا الوادى.. ثم بدأنا نعد النعاج وكان إليكسا يعدها بحز على لوح من الخشب، أما أنا فكنت أكتب العدد فى دفترى، فكان أليكسا يضحك منى ويقول إنه لم ير فى حياته نعاجا تتشرف بالتسجيل فى دفتر .

مدت أخته لسانها تسأله بلهفة :

– وكيف الناس هناك؟

– ناس كبقية الناس ..

– هل يرقصون يوم الأحد ؟

– طبعا .

وعاد يلتفت إلى أمه واستطرد :

– ثم ركبنا القطار، وهات يا جرى .. حتى بلغنا بياترا .

ليس لأمه وأخته علم كبير بالقطار، تتحرجان من توجيه مزيد من الاسئلة عنه، وطال صمتهم، خيم عليهم سؤال معذب !

صبرت فيكتوريا حتى هدأ هياج فرحة اللقاء التى اجتاحتها، مدت بصرها إلى النور خارج الدار وقالت بصوت خافت متمهل :

– ليس عندى إلى اليوم أخبار عن أبيك .

وضع غيورغيتا ملعقته برفق إلى جانب القصعة، ودفع الرغيف الذى خبزته أمه خصيصا له، ورمى ببصره هو أيضا إلى النافذة، الدرب المتعرج حول الدار خال من المارة، واستطردت المرأة تقول :

– لست أدرى ماذا حدث له ، وقد استشرت القس دانيلا ودعوته لإقامة قداس يصلى فيه من أجل أبيك .

سأصبر قليلا حتى تتجلى مشيئة الرب ويهدينى لما ينبغى لى أن أفعله، لقد تناهبتنى الظنون ورأيت حلما ينهش قلبى ويحرق دمى حتى شخت قبل الأوان، سأنتظر حتى أصوم آخر يوم جمعة أتم به صيام اثنى عشر يوما، أنت عليم بأننا نعيش الآن وحدنا فى القرية، ليس لى سواك من أبعثه للبحث عن أبيك، أنت الآن رجل، ورجل البيت .

أجابها غيورغيتا، بتردد :

– طيب، سأذهب ، ربما وقع له حادث .

– وماهو هذا الحادث فى ظنك ؟

القول بأن امرأة قد سحرته كما ذكرت لى العجوز ميراندا فهذا مالا أصدقه .

أدركت الآن أن عفريتها – إن كان عندها عفريت – هو فى منتهى الخيابة والغباء، إنه لا يقدر على شيء، وإلا لما عاشت ميراندا فى بؤس وعوز، ولو كان عفريتها يعرف أين زوجى لاستطاع أيضا أن يعيده، ولماذا والعفاريت عندما تلجأ إلى السحر – كما تقول – فتصنع دمى من الشمع وتخرق عيونها وقلوبها بإبرة لتمتد أيضا إلى عينى الغريمة وقلبها .

أقول لك إن حلمى هو أشد شيء يزعجنى، إنك محق فى ظنك أنه قد وقع لأبيك ما ارتعب شيء له، ومناى أن يثبت الصدق لقول الساحرة لا لتفسير الحلم.

ظل الشاب فاغرا فاه من شدة الدهشة بعد أن سارع بسؤالها :

– وماذا قالت ميراندا ؟

ثم ماذا يكون السحر الذى لحق بأبى؟ .

– وقاك الله منه كما يقيك من الأمراض، هانذا أكلمك كأننى أكلم نفسى، فإنى أتخيل الناس يعلمون همى، إنه يشغل فكرى ليلا ونهارا. لابد أن تذهب للبحث عن أبيك، هذا هو كل ما ينبغى لك أن تعرفه، وتهتم به .

... ماذهب مادام أن هذا هو طلبك. ولكن حبذا لو قلت لى كيف ينبغى أن ... ف .. لابد أن أعلم ماذا تريدين منى أن أعمله .

... فته وجفناها يطرفان بسرعة، رأته خجولا متهيبا مترددا . على حين ... ا حاسمة تتفجر عزما وإحساسا وألما .

... تنهدت طويلا، ثم رفعت الأطباق عن المائدة بعجلة .

أرادت ابنتها أن تساعدها فصدتها بلكزة من كوعها، وانحنى الابن أمام الايقونة بعد الأكل شاكرا ربه على نعمته، ثم خرج لجولة فى القرية ليجدد لقا، أصدقائه ويعرف أخبار حبيباته .

تابعته ربة الدار بنظرها طويلا وهو يبتعد فى الدرب ثم مضت إلى المدفأة وجلست بجوارها .

خيل إليها أن الهواجس التى ساورتها واستولت عليها تفرى قلبها كالدود، لقد انعزلت عن الدنيا قليلا قليلا وانطوت على نفسها .

إنها كانت تعلق أملها الوحيد على الرجل الوحيد فى الأسرة .

أدركت الآن أن لامفر من العدول عن هذا الأمل ..

يا لها من خيبة كبيرة .

لعلها فى حقيقة الأمر كانت تتوقع هذه الخيبة، ولكنها ستعرف كيف تهتدى إلى وسيلة لكى يشمر ابنها عن ذراعه فيعتمد عليها، بعون من صائب رأيها ..

وبدا كيانها كله يترصد باستغراق دياجير ظلام، الحلم يتعلق بالنور الساطع الذى ينفذ إليها ذات يوم فيبددها .. ذلك ما يسمى بالمشكلة .. وهذه الكلمة بالذات مما تجهله لفظا ومعنى أى امرأة جبلية مثلها ولا تألفه .

فمنذ أن افترستها الهواجس توقف الزمن فى نظرها، لاتقيسه إلا بأيام الجمع التى تصومها دون أن تنقطع عن عملها .

لاتأكل . لاتشرب، ولا تتكلم، ملتفة بشال يدل على الحداد ، تستر بطرفه فمها، ولاول مرة فى حياتها لا تابه بالاحتفال بالاعياد .

لقد أدارت ظهرها لصنوف البهجة فى عيد رأس السنة الذى تزيح له هذه البقعة النائية فى الجبل، من تبادل للتهانى، إلى لبس أقنعة تقليدية تمثل الماعز أو الخيل ، والناس هنا فى الجبل فى عزلة عن أهل الوادى، يتوارثون جيلا عن جيل طقوسا للاحتفال بتعاقب الايام وحلول رأس السنة، لم تتبدل هذه الطقوس من عهد بريبيستس أول ملك للبلاد .

تبدلت الأسماء والمصطلحات دون أن يتبدل أهل الجبل، أو تتبدل الطبيعة من حولهم، لذلك لم يكن من العدل حرمان ولديها من نصيبهما من هذه البهجة أما هى فقد سلكت نفسها فى عداد الأموات وعندها أن زوجها الغائب عنها هو أيضا فى عداد الأموات .

أدركت اليوم أنها تحبه حبها له فى شبابها، ليس فى صدرها حرج من هذا الحب فقد يقال كيف يكون وقد أصبحت أما لعيال كبار وأنها لاتعترف لأحد بعاطفتها .. إلا لنفسها .. حين يطبق عليها الليل بظلامه ويملأ أذنيها صرير الجنادب فى المدفأة .

وفى عيد الغطاس بارك القس دانيلا الآبار والينابيع وكل مجرى للمياه، ولف الصقيع الأشجار فى غابة ماجورا، وتحت قبة سماء لازوردية ملأت الثلوج الوهاد، وكومت سدودا على الطريق المؤدى إلى بسترتيا، وكانت فيكتوريا لم تصم من نذرها إلا سبعة أيام، يوم الجمعة من كل أسبوع، ومع ذلك قررت أن تسافر إلى بيترا ولو لم تصم اثنى عشر يوما كما كان نذرها .

وقررت كذلك أن تحج إلى دير بسترتيا .

قال لها غيورغيتا وهما عائدان من الصلاة فى الكنيسة :

- نزول الصقيع فى عيد الغطاس علامة عند الفلاحين على وفرة المحصول .

- نعم .. هذا ما يقولونه ولكن ليكن فى علمك أنه فيما يخصنا لم تعد لنا مبالاة ببهجة أو وفرة محصول .

خيم الحزن على عينى الفتى. فكل ساعات البهجة التى كانت من حقه فى عيد رأس السنة قد تسممت ..

واستطردت أمه :

- عليك باعداد الزحافة مع ميترا، وضع فيها تبنا، ولاتنس أيضا كيسا من الشعير، علف الخيل، وفى الصباح من غد سنسافر إلى بياترا .

– وهل نستطيع اجتياز الطريق يا أمى ؟

– سنحاول ، ومن لايحاول لاينال مرامه ..

أجابها بقلب وجيع، فقد أدرك أن أمله فى حضور حفلة الرقص من غد قد خاب.

– معك حق يا أمى .

رمقته بنظرة من طرف عينيها وقالت :

– أختك ستذهب لحفلة الرقص وستجامل كل صديقاتك على حين نكون أنا وأنت قد رحلنا فهذا هو واجبنا .

قال غيورغيتا فى سره وقد غلبته الدهشة :

– عجيبة ! إن أمى ساحرة ، تعرف ما يجول بالخواطر .

وما إن عاد للدار حتى مضى مغبر الوجه إلى الإسطبل فاختار جوادين أشهبين عفيين يتناسق خطوهما فيحسنان جر الزحافة، أطعمهما من شعير ملأ به دلوا خشبيا ومشط منهما الذيل والمعرفة الملبدة بفتات من الشوك .. ثم بضربة من قدمه دفع الزحافة حتى وقفت تحت الباب القلاب لمخزن التبن العلوى ..

فعل هذا كله وحده، دون استعانة بميترا، لكى ينجز مهمته بسرعة، على حين ظل مشغولا بأحلام عن صنوف البهجة التى كان الجبل يبذلها له فى طفولته.

كان إذا خرج للنهر استمتاعا بهديره ظن أنه ملك له وحده، هذا أيضا ظنه بالدروب التى تسير إلى أشجار التوت أو تصعد إلى أعشاب الرند، تلك الدروب التى سلكتها قبله قطعان ورعاة .

كان ذهنه يردد له الحكايات التى كان الولد قد سمعها فى مرابط الرعاة، تتواثب حولها من بعيد ألسنة نيران تتلفع بها الغابة .

كان يعرف إذا هبط الغسق كيف يغرى الدجاج البرى ، والأيائل فتأنس له، كل هذه الذكريات انبعثت له من رائحة التبن، يختلط بها عبير الصيف وعبير الطفولة، ولكن كل هذا قد ولى ومضى كالعطر الذى يتلاشى لافظا أنفاسه فى هواء بارد .

ها هو ذا قد وقع على عاتقه الآن واجب ثقيل سيوقعه فى ربكة بعد أخرى .

إن أباه بيغيفور لاشك مات ضحية لحادث، اللهم إلا إذا كانت اللصوص قد قتلته ، كم هو شاق أن يتحمل فتى فى مثل سنه أعباء الأسرة والبيت، وفوق ذلك فإن أمه قد تبدل طبعها .

إنها الآن لاتنظر لأحد إلا بغضب ولاتشرع إلا أشواكا كأشواك القنافذ .

دخل البيت فوجد أمه جالسة بجانب المدفأة، رفعت إليه بصرها وقالت :

– لاتنظر إلى شذرا يا بنى، أعلم أن الشمس إن أشرقت من بعد فإنما تشرق لى من أجلك .

لم يرد عليها وقال فى سره :

– ما معنى هذا الكلام ؟ ماذا تقصد ؟

واستطردت المرأة تقول :

– إننى لا أعرف كيف أفك الخط، لكننى أعرف كيف أقرأ ضميرك .. ليكن فى علمك – أقول لك لآخر مرة إن وقت اللعب قد انتهى بالنسبة لك ، ينبغى لك الآن أن تتخلق بأخلاق الرجال، إذ ليس لى من أعتمد عليه سواك، إننى فى حاجة إلى ذراعك..

كان الدمع قد ترقرق فى عينيها فحن لها قلب غيورغيتا دون أن يسعفه لسانه بكلمة يطيب بها فؤادها. ومن غد، وكان يوم سبت خرجا للرحيل مع مطلع الشمس .

كان الاثنان متدثرين بمعاطف من فرو الأغنام، الجو هادىء ولطيف ، لكن الطريق وعر تزحمه الثلوج .

أخذ الجوادان يجاهدان لجر الزحافة حتى جاء وقت اضطر فيه غيورغيتا إلى خلع معطفه واستخراج الجاروف الخشبى من كوم التبن، فما إن بدأ صراعه مع الثلوج حتى أحس بفيض من قوة وإصرار يسرى فى كيانه حتى أنه لم يهدأ إلا بعد أن أتم هدم سدود الثلج .

كان كمن يهدم عدوا، فما إن استدار ليرمق أمه حتى وجدها تبتسم .

لحظتها علم أنها فى هذه اللحظة بعينها تتلقى منه الجواب الذى عجزت شفتاه عن النطق به بالأمس ، وقال فى سره وهو يستعيد مسك اللجام :

– ما أدهى النساء؟ ما أبرعهن فى الكلام .. أما الرجال فهم أقل فطنة ، ولكنهم – على سبيل التعويض – أشد قوة ، والدليل عنده على هذه الحقيقة هو أمه .

لحقتهما الظهيرة وهما لم يبلغا، رغم بذل الجهد، إلا مشارف نهر بستريا، عبراه فوق الثلوج ثم سارا مع درب كأنه سطح مرآة، وانحرفا إلى اليسار حتى بلغا الدير وقت صلاة العصر وسط الأنوار والأناشيد .

كان الرهبان راكعين فى مقاصيرهم، على رءوسهم طواق سوداء والأرشماندريث فيزاريون يقيم الصلاة بنفسه ، وتريث غيورغيتا .

وقف عند باب الدير ليعنى بالزحافة بينما خلعت أمه – ربيبة الجبل – معطفها، وراحت تدخل إلى الدير بخطى نشطة، لا يطأ خفها السجاد إلا بحذر ..

وقفت أمام المذبح ثم ركعت أمام تماثيل القديسين، ولمست قواعدها الرخامية بيدها اليمنى، ورسمت على رأسها وكتفيها علامة الصليب مرارا وهى تتمتم بالدعاء الذى يجول فى خاطرها ويهصر قلبها .

ثم اقتربت من الشمعدانات وغرزت بها شموعا كانت قد حملتها معها وهى خارجة من البيت .. فى قماش رصعته بالترتر، حملته على يدها واتجهت إلى الأيقونة الرئيسية ، مفخرة الدير، فإليها ستفضى المرآة بأوجاعها .

وفجأة ..

ومن خلال دخان الشموع ..

سقطت عليها نظرة من القديسة حنة، فركعت ولثمت يد التمثال، وقدمت للقديسة بخشوع، هذا القماش هدية منها .

عقدت طرفا منه على قطعة من النقود الفضية وتمتمت لها بسرها وروت لها حلمها وتوسلت إليها أن تنير بصيرتها .

أنها فى ورع وانقياد، كأنها ذبيحة قربان .. وهبتها كل قلبها وتركت دموعها تنحدر من عينيها وتبلل القماش، ثم نهضت غير ملقية بالها لما يجرى حولها، وقعدت جامدة إلى يسار المذبح، وانتظرت بمسكنة، يداها معقودتان على صدرها ورأسها منحن .

جاءها صوت حنون فهمت أنه يناديها، فتحت عينيها وأدارت بصرها إلى المذبح فرأت الأب الموقر فيزاريون فركعت من فورها أمامه ولثمت ذيل مسوحه، وضع يده على رأسها .. إنه رجل هرم أعجف، له لحية بيضاء طويلة .

قالت له بصوت خافت :

– جئت يا أبى أقدم ملتمَسا وأطلب نصيحة ..

– هل صليت للقديسة حنة ؟

– نعم يا أبى .

أشار إليها قائلا :

– انتظرينى هنا .

استعادت جمودها فى جلستها وانتظرت .

وبعد أداء الصلاة أمرها أن تتبعه فصعدت خلفه الدرج المؤدى إلى خلوته، وأبقاها قبلها تنتظره مرة أخرى فى حجرة عالية السقف، تتناثر فيها الأرائك والمناضد ومعالم الترف المتخير .

لم تجرؤ على الجلوس وقالت فى سرها .

- لابد أن يعيش أب جليل مثله معيشة كبار الملاك .. جاءها الأب الموقر فيزاريون وسألها من أين هى قادمة، وقال إنه يتذكر رؤيته لها مع زوجها فى الدير من قبل .

- نعم يا أبى ، جئت تلك المرة لنتضرع أن يزول عن أغنامنا مرض أصابها حيث كانت ترعى فى السهل، لقد استجابت القديسة حنة لدعائنا . لكننى قد جئت هذه المرة يا أبى من أجل زوجى الذى اختفى ، احتاج لشراء النعاج فسافر فى عيد القديس ديمترى ثم لم يعد إلى الآن .

روت له حكايتها بكل تفاصيلها حيث كان الأب فيزاريون يتابع كلامها هازا رأسه .. إنه متعب ، مثقل بالنعاس .. مع ذلك فقد أنصت لها بود وحفاوة وعطف .

- هل أبلغت خبر غيابه إلى رجال الأمن؟ .

- وأين أجدهم ؟.

ليس فى قريتنا عمدة أو شرطة، لم أجد من أشكو إليه إلا القس دانيلا .. هذا كل ما فعلته .. وقد جئت الآن لأتضرع إلى القديسة حنة .

- حسنا فعلت يا ابنتى .

ولنصبر فإن القديسة حنة ستشفع لك عند من بيده ملكوت كل شىء ، وعليك بالذهاب إلى بياترا لمقابلة من بيدهم سلطان فى الأرض .

اذهبى إلى رجال الخفر، إلى مأمور المركز، وأروى لهم ما حدث لكى يبدأوا التحقيق فى شكواك عن غياب زوجك.

أجابته فيكتوريا .

- فهمت يا أبى .. سأذهب اليهم أيضا ، لكن أملى ليس معقودا على قدراتهم .. بل على قدرة أخرى .

الفصل السادس

أمضت الليل ساهرة فى حجرة صغيرة فى قبو الدير، فبعد أن جاذبت طويلا نساء أخر آتيات من أماكن بعيدة، أطراف أحاديث شتى انصرفت إلى نفسها بعد أن انصرفت كل منهن إلى مثواها .

أما غيورغيتا فقد طوى ذراعه وأسند إليه رأسه مستغرقا فى نوم عميق يحمله إلى آفاق بهيجة فى عالم الأحلام .

ظلت وحيدة مسهدة خاشعة أمام القنديل المعلق على أيقونة، لايشغل ذهنها إلا سؤالها :

- ماذا تفعل من غد ؟

فالمشكلة المعقدة فى نظرها هى كيف تعثر على شارع من بين عشرات الشوارع تقصده ؟

بل وكيف تعثر فى الشارع المقصود على ذلك المبنى ذى الطوابق العديدة والذى فى كل حجرة منه مكاتب يجلس إليها موظفون يسندون أقلاما على آذانهم كما يستقل أحدهم حجرة الرئيس، الذى هو العمدة أو مأمور المركز أو مدير الشرطة .

لابد أنه بدين ذلك الرئيس .. ملتح قاسى النظرة ، لاينزع البيبة من فمه إلا لكى يهدر لسانه بزجر مرؤوسيه وتوبيخهم، فإذا سمع الموظفون فى الحجرات المجاورة زعيقه أخنوا رءوسهم على الورق واصطنعوا هيئة المنهمك فى العمل، بينما هم يتبادلون الاشارات والغمزات .

ها هى ذ أخيرا ستمثل أمام الحكومة، وجها لوجه، لأول مرة ، أينما سارت ستجدها فى طريقها حتى تبلغ بوخارست، موظفون ، مأمور مركز، عمدة، ضباط الشرطة، وفى العاصمة، جلس ملك على عرش، يصدر أوامره للجميع .

ترتيب جميل، فلا عمل يتم إلا نظام مرسوم الأقوال والأحداث تقيد فى سجلات، وهكذا يتبين من سجل السوق من باع المواشى ومن اشتراها وإلى أين منصرف كل منهما، لابد أن يكون فى سوق دورنا- كبقية الأسواق - سجل كهذا ، والحال مختلف فى سفوح جبال تاركا وحيث يعيش الناس ويتعاملون وفق تقاليدهم القديمة، أحرارا فى عقد صفقاتهم كما يريدون .. فإذا انحرف أحدهم فنكث بعهده أو غش فلا مناص له من الهرب والاختفاء فى الجبل، يأكل الثمار البرية كالدب، حتى إذا هجم عليه الشتاء اضطر إلى النزول إلى الوادى، حينئذ يتلقفه الناس ويقيدونه ويسلمونه إلى الشرطة ولأقرب بندر فى السهل .

وقبل اليوم الذى جثمت فيه على دارها لم يحدث لفيكتوريا قط أن صرفت اهتمامها أو طرأت لها حاجة إلى موظفى صاحب الجلالة الملك .. كان انشغالها مقصورا على بيتها، وقطيعها ، تبيع الجبن وتدفع الضرائب والرسوم وينتهى الأمر .

حتى دفع الضرائب والرسوم كان يتكفل به زوجها فهو سيد من يعرف أى باب يطرق وأى منعطف ينبغى الاتجاه إليه ، إذ أنه منذ شبابه كثير التجوال فى أرض السهول، أما هى فإنها امرأة بسيطة لاتفارق الجبل مستوحشة أبدا، إن حصافتها سترشدها اليوم كيف تتصرف، ولكن لن يفارقها الارتياب والحذر فى كل خطوة تخطوها، فى هذا العالم المجهول لها.

الجديد عليها .

ومن غد، بعد الفجر ، رحلت فيكتوريا إلى بياترا .

كانت قد زارت هذه المدينة من قبل، وقت انعقاد سوقها، ولكنها رأتها يومئذ بعينين غير عينيها اليوم .

فلم تلحظ إلا ازدحامها وضجتها وتكدس أهل الجبل فى حاناتها، بين لهو وقصف.

وصلت إلى المدينة مع ابنها غيورغيتا، ونزلت فى فندق صغير كانت تعرفه، وطلبت شواء وخبزا أبيض وإبريقا من النبيذ ، ولم تكد تفتح فمها لتسأل أين مقر مأمور المركز حتى دلت على عنوانه .

لاشك أن حالها كان ينبئ عن همها ومقصدها . ومأمور المركز هو المختص فى تحقيق الحوادث التى تقع فى دائرة المركز كله لا فى المدينة وحدها ..

تركت الزحافة وابنها فى الفندق ومضت وحدها . ووصلت بسهولة إلى مقر مأمور المركز، فمن يسأل لا يتعب .. وجدته مبنى جميلا كبيرا، من عدة طوابق، واطمأنت حين رأت بين الداخلين والخارجين أناسا من جنس عشيرتها ، وسألتهم فأجابوها أن هذا المبنى يضم أيضا قاعات المحاكم التى تفصل فى القضايا المدنية والجنائية .

وكانت قد علمت هذا من كلام زوجها ليبان ولكنها ترى الآن المبنى عن قرب لأول مرة ..

صعدت سلما فسيحا إلى الطابق الثانى واستفسر منها حاجب هرم عن الموظف الذى تريد أن تقابله وقال لها :

ـ حضرة مأمور المركز بنفسه ؟ إذن لابد أن تنتظرى دورك ..

فانتظرت وهى تتدبر فى سرها كيف ينبغى لها أن تروى له حكايتها وكيف تتخير أفضل الكلمات .

وزاغت نظرتها من شدة الانفعال حينما دخلت حجرة جميلة أنيقة الأثاث .. مأمور المركز ليس له لحية ، ولا بيبة ، ولا يبدو عليه أنه رجل فظ ، وجدته رجلا فى مقتبل العمر ، حليقا ، قصير شعر الرأس ، يفرقه من وسطه ، فى حالة سوداء ، وكان يبتسم ، فهو ولا ريب لا يعانى هما كهمها .

تفرس فى وجهها وهو ثابت فى جلسته ، وكانت قبل دخولها قد شدت على عجل أطراف شالها الحريرى على كتفيها كما خلعت معطفها من

الفرو، وأن كان قد ولى شبابها فقد بقى لعينيها جمال أخاذ ، تلمعان تحت ظلال من أهداب طويلة مقوسة ..

ولما أحست المرأة أن جمال عينيها قد وجد من يلحظه بإعجاب استعاد وجهها تعبيره وقت وقفتها أمام المرآة .. يضيئه طيف من ابتسامة خفيفة ..

سألها المأمور وهو لا ينفك ينظر إليها ، ويعبث بفتاحة للورق ، يديرها بين أصابعه :

– ما هو مطلبك الذى ساقك إلينا ؟

– يا سيدى المأمور ، لم تسقنى إليك رياح طيبة، إن زوجى قد غادر الدار منذ ثلاثة وسبعين يوما ولم يرجع بعد ، كان قد سافر إلى دورنا لشراء نعاج ، لم يبعث لى بخطاب ، ولم يأتنى إنسان بخبر عنه ، وبقيت معلقة ، لا أملك إلا أن أنتظر غائبا لا يعود ..

– ثلاثة وسبعون يوما ؟ إلى هذا الحد ؟ أممكن هذا ؟

– ليس هذا بسفر لشراء نعاج .. هل كانت معه نقود ؟

– وكيف لا وقد خرج لشراء نعاج من سوق راراو .

– ألم تسمعى شيئا عنه ؟

– لا أعلم عنه شيئا .

– إذن فقد سطا عليه لصوص وقتلوه .

تمتمت بنت الجبل وقد وجف قلبها لوقع الصدمة:

– لا سبب غير ذلك ، وهذا ما نطقت به أيضا أحلامى .

– لا يزال هناك احتمالات أخرى فلا نجزم الآن بسبب واحد ..

– صدقت .. ربما اختار أن يخادن امرأة غيرى ، وانقطع عندها ، كم أتمنى أن يكون هذا هو الذى حدث له ..

هز الموظف رأسه وطوح بنظراته بعيدا عنها ، غص حلقها بنحيب جاهدت أن تتكتمه ، وأسالت بأناملها قطرات الدموع العالقة كاللآلئ بأهدابها، واحدة بعد أخرى .

أجابها بلهجة ودية :

– سأصدر أوامرى باجراء التحقيقات اللازمة .. اكتبى طلبا وهاته لى .

أومأت بهزة من رأسها بأنها ستطيعه .

– هل فهمت كلامى ؟

– نعم .. فهمته .

– طلبا على ورقة دمغة ، يكتبه لك موظف هنا أو محام ، ثم هاته لى لأذيله بتوجيهاتى ..

أمنت بنت الجبل على قوله بهزة أخرى من رأسها .

– هل فهمت كلامى ؟

– نعم فهمته

– لا داعى للتهويل والجزع ، فنحن فى نهاية الأمر نجهل إلى الآن ماذا حدث لزوجك ..

أجابته بنت الجبل وقد تحولت فجأة إلى الضراوة :

– أما أنا فاعرف ماذا حدث له ..

ضراوتها لم تجن على جمالها .. بالعكس .. إننا يجب علينا أن نقول إن النتيجة كانت كما يلى :

لقد زادت بسبب ذلك تألقا حيث أن المأمور وهو يشعل سيجارته بعد ذلك بعود الكبريت كان قد لاحظ أنها وهى تخرج من الباب بعد أن انحنت أمامه . تحسست مقبض الباب إلى أن عرفت كيف تفتحه ثم خرجت.

رأسها دائخ فلا أحد حتى الساعة قد استطاع أن يعاونها بالقاء ولو بصيص من الضوء على الظلام الذى يلف مدينة دورنا فى خيالها ، أن القديسين والقديسات ممن تبركت بتماثيلهم فى الدير. إنهم يعرفون كل شئ. مع ذلك فقد لزموا الصمت .

فإذا بهذا المأمور يبرز لها من بين الجميع ليقول الحقيقة بكلام نزل عليها كالصاعقة ..

إن قلبها كان يقول لها عين الكلام ومع ذلك فلم تجرؤ على الإصغاء له .

لقد فتك به اللصوص وانتهى الامر ..

* * *

علقت فيكتوريا بذراعها معطفها الفروى الذى كانت قد تركته عند باب المكتب ..

تلفتت حولها لكنها كانت كالعمياء لأن عيونها حينئذ كانت تمتلئ بالدموع ..

عندما مسحت أهدابها بطرف معطفها الخشن .. فى نفس اللحظة .. كان الحاجب الهرم الذى نمت ملامحه عن طيبة قلبه يرقبها فى صمت .

وهو يحك لحيته البيضاء بسبابة يده اليسرى ، ويضع يده اليمنى على مقبض باب مكتب المأمور حيث يده اليد الوحيدة التى تملك فتح أو غلق ذلك.. قال :

- فيم انتظارك يا ولية .

أبقيت لك حاجة أخرى .

قالت فيكتوريا .

- نعم .. إننى أبحث عمن يكتبون العرايض .

عندنا من يكتبها لك ..

ـ لم لا ؟

ما نوع العريضة التى تودين وما مضمونها ؟

- عريضة متعلقة بزوجى .. رحل منذ زمن .. لم يعد إلى الآن .

- آها .. كتابة مثل هذا الكلام ليست سهلة . لكنه لم يتم مرادك .. أستطيع أن أجد من يكتبها لك .

لكنه لكى ينبغى لى أن أذهب إليه .. واحد ثم أعود به .. اثنين .. ثلاثة أنا مشغول ..

الحكومة مثلا كما تعلمين تدفع لى مرتبى لكى أقف .

وهنا :

أمام نفس هذا المأمور .

فإذا أنا ما تركته فإن الأمر يختلف ..

أمال ؟

أكنت تظن أننى لن أستطيع مكافأتك ؟

ـ لا . اطمئن . لك عندى منحة تشترى بها نبيذا .. أدفعها لك نظير الخدمة الكبيرة التى ستؤديها لى . إنها ورقة . بخمسة لى[1] . خذها ولا تغضب .

اتفقنا .

لكنه من اللازم دفع مبلغ آخر للذى سيكتب الكلام .

- طيب .

ـ سأدفع له عشرة أيضا .

- وورقة الدمغة ؟

- عشرة أخرى ونلصقها فى العريضة .

(١) لى: عملة رومانية

- انتهينا .

سأذهب الآن لاحضر لك الأستاذ، فهو الذى إذا كتب لك عريضتك يسمع بك الملك .. شخص الملك ذاته .

ستمتلئ عيناه بالدموع لاشك ..

أستاذ انما لا يبارى فى جمال الاسلوب ، عيبه الوحيد أنه سكير قرارى فى الوقت نفسه . انتظرى هنا .. سأبحث عنه فى الحانة .. جهزى نقودك .

* * *

تخلت يد الحاجب الهرم عن مقبض الباب، ودار أولا حول المرأة كانما يريد أن يسحرها فتبقى كالرصد فى مكانها، ثم هبط السلم بسرعة مترنحا على الجنبين من فرط شيخوخته فاستعادت فيكتوريا جمودها المعهود .

ووصل الاستاذ .

يلبس حذاء عاليا لامعا ، أنفه محمر ، وفى يده خيزرانة قصيرة أبيض لونها لانه يحب أن يمشى مختالا . متحررا من ثقل لا لزوم له .

لم يخف امتعاضه حين علم أن أجره سيكون عشرة لى نظير عمل يحتاج إلى قدرة وبراعة .

ونقلت فيكتوريا نظرتها، تارة إلى الحاجب الهرم وقد أعاد يده على مقبض الباب، وتارة إلى وجه الاستاذ المعتز بنفسه ، يسرها منه أنفه الأحمر .

ثم زمت شفتيها بعزم واضعة المبلغ الذى يخص الحاجب فى يده، لكى تتفادى النزاع والشجار فى كل مكان تعد فيه من الغرباء .

ثم ارتدت معطفها .

وهبطت السلم .

وخرجت إلى الطريق .

* * *

فجأة طرأ خاطر جديد .

إنها ستذهب للبحث عن محام ، فمطلبها رجل له أساس من العلم ، لكنها ترددت بدافع من تهيبها ورأت أن الأفضل لها أن تنتظر حتى تعود لقريتها . فتطلب إلى الأب دانيلا أن يكتب لها العريضة ، إذ ليس فى العالم كله من يفوقه قدرة على الكتابة ، ثم إنه يعلم الوقائع كلها ، فيستطيع أن يرويها بدقة وتسلسل . ولكن ما جدوى هذه العريضة ؟

وما نفعها ؟

أن المؤكد أن زوجها قد فتك به اللصوص فمن الذى يستطيع إذن أن يدلها على جثة رجل ملقى فى قاع بئر بان لها فى الحلم على صورة المستنقع الراكد ؟

آه .

لماذا لا يعلم أحد بما جري لزوجها ولماذا لم يأتها الناس بخبر عنه ؟

السبب أن اللصوص قد قذفوا به فى قاع بئر ، إذن لن تظهر جثته ..

اللهم إلا إذا قيض لها الله مخرجا ، ولا غير أن تتكل على شفاعة القديسة حنة . فبفضلها بدأت بصيرتها تستنير شيئا فشيئا .

لا ريب أن القديسة سترشدها الآن بوسيلة ما إلى الطريق الذى يحسن بها أن تسلكه .. ستلهمها كيف ينبغى لها أن تتصرف .

ولحقها الأستاذ المتخفف ولمسها بخيزرانته وقال لها :

- مهلا مهلا ، إلى أين أنت ماضية .

فوقفت فيكتوريا واستدارت وواجهته وأجابت :

- ماضية إلى حيث يحلو لى .. مد يدك حتى أدفع لك هذه الورقة الصغيرة كما دفعت مثلها للحاجب الهرم .

أعطيك هذا المبلغ إكراما لك فقد عدلت عن كتابة العريضة .

والآن : عد سريعا إلى حيث كنت . فالجو بارد وقد تصاب بنزلة شعبية .

- كيف ؟

- لا شئ ؟

- تجعلينني أترك أعمالى ثم تظنين أن مبلغا كهذا يبرئ ذمتك فيما ارتكبت؟

فاجابته بنت الجبل وهى تضحك فى وجهه :

- اذهب ، اذهب . فالجو بارد .

تسمرت قدماه وهو يتمتم بلفتة للمرأة المتقلبة النزوات ، وحكم بأن فيكتوريا مصابة بجنون وهوس ، ورماها بهذه التهمة وهو يمد يده ليقبض النقود ..

اتجهت إلى الفندق بخطى سريعة ، تسيطر عليها أفكار وعزائم تتكاثف وروحها الجديدة .. تلك القوى الروحية المستجدة عليها إنما واتتها ولا ريب من ركوعها بالدير ودعائها لله أن يمن عليها بعون من عنده ، وكأنما نفذت هذه القوى إلى كيانها من وخزات ندف الثلج لوجهها، تطسه وتلسعه بها لسع السياط ، رياح باردة تهب من ناحية الدير .

حقا أن حجها للدير قد أمدها بعون كبير ، أنها واثقة الآن أن زوجها قد مات ، ورغم ما نزل بقلبها من حزن بليغ مفترس فإنها على الاقل تجد الظلام ينقشع عن بصيرتها .

واعتزمت حينما تعود للقرية ألا تتريث بها للراحة إلا قليلا ، ثم تمضى تعمل على تحقيق عزمها الاكيد خطوة خطوة ، عزم يحتبى الآن خلف نظرتها العنادية ، يتكشف لها وجها بعد وجه .

* * *

كان أول شئ فعلته فيكتوريا بعد أن عادت لقريتها أن ذهبت إلى الاب دانيلا والتمست منه أن يكتب لها عريضة إلى السلطات الرسمية قائلة له بانكسار :

- أنت تعلم أننى لا أفهم شيئا من أمور هذه الشكاوى ، أما أنت فلك من واسع العلم ما يتيح لك أن تنثر فى شكواى - نثرك للفلفل على الطعام - كل الهموم التى تحرق قلبى ، اذكر بها أيضا كيف طال انتظارى بلا جدوى لبدء رجال الشرطة فى التحرك وإجراء التحقيق .

- طيب يا فيكتوريا ، ساكتبها لك وساعرف كيف يكون الكلام .

- هذا هو كل ما أطلبه ، ولهم بعد ذلك أن يفعلوا ما يشاءون ، فليس عليهم اعتمادى .

- معك حق ، اجعلى اعتمادك على الله، فلا أمل إلا فى وجهه الكريم .

- نعم يا أبى ، ما أن أبعث بالعريضة حتى أرتب أمورى كلها وأنجز من عملى ما ينبغى لى إنجازه ، ثم أخرج بنفسى للسفر إلى دورنا .

لقد اتخذت قرارا لن أحيد عنه، هذا هو ما أحس به الآن .

أننى لن أعرف الراحة وسيظل جهادى ثائرا مكتسحا كأنه شلال نهر تاركاو .. ذلك إلى أن أبلغ هدفى وأعثر على نيقيفور ليبان ..

الله ..

- إذن ما الفائدة من كتابة العريضة .

- لكى أستطيع أن أقول إننى لم أقصر .. وإننى قد طرقت أولا باب الحكومة ، ثم لاننى أريد ممن يقرأها أن يعرف مقدار تمزق قلبى ..

لقد بقى من نذرى صيام خمسة أيام من أيام الجمعة وسانتهز فسحة الوقت لكى أبيع بضاعة يكفى ثمنها نفقات سفرى ، ساجلس إليك فى الكنيسة للاعتراف وانتاول القربان ، فإن كان زوجى قد مات فمن المحتمل أن ألحق به ..

- ربما سبقت إليه أنباء عنه .

– لم أعد أعتقد ذلك يا أبتاه.. فقد تجلت لى الحقيقة ، بفضل القديسة حنة ، لقد صوبت نحوى نظرى واحدة ولكنها كانت ناطقة بما تريد قوله لى. نظرة نفذت إلى قلبى. ان القديسة هى التى أوحت لى بكل ما اعتزمت فعله..

– يا فيكتوريا ، سافرى إذا ظننت أن ذلك هو الأحسن فذلك هو واجبك..

– سآخذ معى ابنى حتى يكون بجانبى رجل .. وسأعطى الحداد من غد قضيبا من الحديد ليصنع لى منه بلطة ، وسألتمس منك يا أبتاه أن تباركها .

– طيب .. سأفعل هذا أيضا ..

– لكن : هل قدرت كم هو طويل طريقك وكم يمتد غيابك وماذا سوف تفعلين بابنتك .

– نعم . لم أغفل عن واجبى نحو ابنتى ، فإحدى خالاتى راهبة فى دير فاراتيك، إنها الباقية لى من خالات عديدات تخطفهن الموت ، واسمها ميلانا.

وعما قريب يا أبى سأضع ابنتى على الزحافة مع جهاز عرسها وأسلمها وديعة تحت أقدام خالتى ، الراهبة ميلانا .

– وبيتك ؟ هل تتركينه خاليا مهجورا معرضا للتصدع ؟

– نعم سأتركه . ولو تصدع فلسوف أبنيه من جديد متى عدت . ولسوف أعهد إلى ميترا صبى المزرعة برعاية رأسين أو ثلاثة من الماشية وأقول له هكذا :

– أسمع يا ميترا وافهم كلامى .. ان عليك أن ترعى هذه الماشية . ذلك لأنه لن يكون له يا أبى عمل آخر .. حقا أن ربنا لم يخلقه لبذل جهد أكبر ، هذا الرجل يا أبتاه كان بمثابة عقاب نزل بالمرأة سيئة الحظ التى ولدته ..

من يدرى أى إثم ارتكبته فى حق خالقها أو حق زوجها .. لعلها أهدرت شرفه ودنست فراشه ، أو فلعلها أرهقته أو سحرته فقضى ربها أن يكون عقابها هو وليدها ، مبروك عليها ..

إنها لم تلبث طويلا بعد ولادته طويلا حتى ماتت ..

أما أنا فسأصطحب ابنا وسيما عفيا تقر به عين زوجى لو لقيه .

إنه ثمرة حب جمع بيننا منذ الصبا ظللت أحتفظ له به كأنه عقد من ذهب لا يفارق عنقى ..

اتخذت فيكتوريا قرارها ، ولن تتحول عنه ..

ولقد بدأت فى تنفيذه .

ففى يوم ٢٧ فبراير ، وهو عيد القديس بروكوب ، وضعت فيكتوريا جهاز عرس ابنتها على الزحافة ، ثم ركبت هى ويمنودورا ، وشرع غيورغيتا يسوق الجياد بلمسة من طرف سوطه .

لقد انهمرت للفتاة دموع من عينين تحجبهما بكفيها ، على حين ظل وجه أمها جامدا كأنه وجه تمثال ، وبقيت هكذا إلي أن فارقت الزحافة حدود القرية وسلكت الطريق المؤدى من الجبل إلى الوادى .. حينئذ رسمت فيكتوريا الصليب على كتفيها ورأسها والتفتت نحو الشمس وقالت بهدوء :

– يا بنيتى ..

ليس هذا وقت الحماقة والبكاء على حظك ، إنه يوم مبارك .

يوم الاثنين هذا ..

لأننا خرجنا فيه لتحقيق عزمنا ..

وبلوغ هدفنا ..

الفصل السابع

وفى اليوم التاسع من شهر مارس ..

وكان يوم خميس ..

أقام القس دانيلا فى الكنيسة قداسا مهيبا ، تخليدا لذكرى شهداء الوطن ..

هذا هو أول يوم تبدأ فيه الثلوج فى الذوبان بعد شتاء قارس ..

تساقطت قطرات الماء من السقوف ، ومن أعالى الأشجار وعكست الثلوج للشمس أشعة متوهجة تغشى لها الأبصار ، وغادرت الغربان أعشاشها ، وارتفعت وأجنحتها تصفق ، إلى سماء لازوردية ، وبعد أن دارت وهى تنعق عادت إلى البيض الذى كان قد تجمد فى فبراير تخبط قشرة الثلج من حوله بمنقارها وتضربها بأجنحتها ..

وقدمت فيكتوريا وابنها غيورغيتا هدايا جميلة إلى الكنيسة .

أرغفة من شقين ، وكعكا من دقيق القمح ، وطحين الجوز وزيتا ونبيذا .

ثم أضاءت فيكتوريا بيدها شموعا فوق هداياها كما تقضى التقاليد .

ثم كانت لها ركعة أمام كل أيقونة ، وأخيرا ، اتخذت لها مجلسا غير بعيد من المحراب .

* * *

ناولها القس دانيلا القربان المقدس ..

أغمضت عينيها حين ترطب سقف حلقها كأنما قد هبط عليه الندى .

فمشت الراحة فى كيانها كله وبعد ذلك سجدت ..

لا أحد من الفلاحين فى الكنيسة يدرك مغزى هذا التناول ..

أما هى :

فقد تطهرت من كل خاطر أو رغبة أو لهفة لا علاقة لها بالهدف الأوحد الذى ترسمته ..

* * *

كانت همسات المصلين وترتيلهم تصل إلى سمعها من بعد أن سلمت الأب دانيلا ثلاث أوراق من فئة عشرين لاى .. لكى يبارك رحلتها ، ولذلك ، ضم إلى صلواته فى القداس دعاء لم يفهمه إلا فيكتوريا ..

بل أن كيانها قد اهتز له لحظة ارتفع به صوته المتضرع إلى قبة الكنيسة:

– أنت يا قادر على كل شئ ، يا سميع يا عليم ، انظر بعين رحمتك إلى عبادك الخارجين إلى سفر وخذ بيدهم ..

* * *

تنهدت فيكتوريا ولثمت أرض المحراب ثم قامت لتنصرف ، القداس فى نظرها قد انتهى بهذا الدعاء فأشارت بنظرة منها إلى غيورغيتا تقول له :

– هيا نخرج .

إن أمامهما فى هذا اليوم عملا كثيرا لابد من إنجازه ومسائل ينبغى حلها ..

وحين جاوزت عتبة باب بيتها قالت :

– الريح مالت إلى الدفء ، وهذه علامة على أن الربيع قد اقترب .

أجابها ابنها :

– غير مستبعد أن يعتدل الطقس أثناء سفرنا ..

– أوه يا غورغيتا .

طريقنا طويل ، وستصادفنا عواصف لا مفر من مواجهتها .

وقد تتساقط الثلوج من جديد بعد أيام ، ثلوج الحملان ، ثم ثلوج طير اللقلق ، أحداث كثيرة من الجائز وقوعها لنا إلى أن نعود .

أمّن ابنها على قولها بهزة من رأسه دون أن يفتح فمه ، إن أمه هى التى تقرر متى الخروج ومتى العودة ها هى ذى تقرر أيضا أى طقس سيصادفها فى الرحلة، إذن لم يبق له إلا أن يترك لها قياده ..

ووجهت فيكتوريا كلامها لصبى المزرعة قائلة له :

– اسمع يا ميترا، إننى مضطرة إلى التغيب عن الدار بضعة أيام .

أجابها وهو يضحك :

– طبعا أنا فاهم .. إنك ستعودين برب الدار بعد انتزاعه من مقام صبابته وهيامه برب النساء .

– ومن أين عرفت هذا؟.

– قيل لى .. إن أهل القرية يا ستى على علم بالخبر .. يتلذذون بترديده فيما بينهم ويغتابون زوجك ، بل إنهم يزعمون أنه يحسن بك أن تأخذى معك زماما من حبل تلفين به عنقه ليسهل عليك سحبه إذا سافرت اليوم فستعودين قبل يوم الأحد .. اطمئنى، سأقوم بحراسة البيت ..

قبلت فيكتوريا كلامه ورضيت بتطوعه وقالت له :

– هذا هو ظنى فيك، كنت دائما موضع ثقتى .. وكل أفعالك يباركها الرب .

* * *

إننى أطلب إليك يا ميترا أن تبقى بجانب الماشية أثناء غيابنا .. هذا هو كل عملك .. ولك أن تنام إلى أن ينقشع عنك خمارك . وتسقى الماشية بين الحين والحين وتقرب العلف إلى خطومها ، ثم تعود إلى فراشك وتنام على هواك .. لا تهمل غذاءك يا ميترا ، حتى لا تفقد قوتك وتضعف .

أما البقرة . أما العجل الكبير . فهى لا تزال تدر لبنا فاشربه وأن يكن قليلا .. ولا تنس أن تربط بخطم العجل حلقة من مسامير مدببة حتى لا ترفسه أمه إذا أراد الرضاع .

إن عندك لبناً ودقيقاً وضعته لك فى هذا الكيس ، وفوق ذلك مؤونة تركتها لك هنا . وهكذا تستطيع أن تدبر حالك أثناء غيابنا .

- سأفعل يا ستى . وسأفتح عينى جيدا .

- طبعا لن تسرع إلى تبديد كل ما تركته لك ، فعليك بالاقتصاد. فعهدى بك أنك تتصرف بعقل وتحب النظام . وإذا حدث أن تأخرنا فى العودة واحتجت إلى شئ يوم الاثنين فاذهب إلى الأب دانيلا فقد وصيته عليك ..

- ماذا أفعل عند الأب دانيلا ؟

- تقول له عن حاجتك وتفعل ما يقوله لك ..

ودخلت إلى الدار وتركت سترتها المبطنة بالفرو قرب المدفأة وتناولت الملقاط وحركت به الرمال ووضعت قطعا صغيرة من خشب السرو فوق شعل الحطب ، ثم مضت مسرعة لتحضر الماء بعد أن نصبت القدر فوق قوائمه الثلاث ورمت فيه بشرائح صغيرة من لحم الخنزير المدخن حيث علا نشيشها فوق النار ..

ومضت تجمع كل ما فى البيت من سجاجيد وأبسطة وترصها فوق الفراش .

أما غيورغيتا فقد كان متابعا غدواتها وروحاتها بنظرة تنطق الدهشة كعادته منذ بدأ يرقب أمه ..

قالت له وهى تبتسم :

- لماذا تنظر إلىّ هكذا ؟

إن هذا المتاع وأشياء أخرى ستحملها الزحافة هذا المساء حين يخيم

الظلام إلى مسكن الأب دانيلا . ستعنى بها قريبته أثناء غيابنا . أما الآن فتعال نأكل .. صب العصيدة على الطبق الخشبى الكبير . وضعه فوق المائدة الصغيرة أو فاجلس فى مقعدك .. إننا إلى أن نعثر على أبيك سنظل نأكل وقوفا . وفى غنى عن الاطباق .

وافق على كلامها هذه المرة أيضاً وهو صامت وأراد أن يعوض مقدما الم الجوع الذى قد يتعرض له فى رحلته . فأخذ يلتهم لحم الخنزير شريحة بعد أخرى . وانهال على العصيدة يأخذ منها قطعا كبيرة يغمسها فى زيت القلية ويحشوها بالجبن قبل أن يضعها فى فمه.

ولحظ بعد فترة أن أمه ظلت واقفة أمامه . عقدت ذراعيها على صدرها وهى ترمقه دون أن تصيب هى شيئاً من الطعام .. قال فى سره :

- إذا كانت حقا ساحرة فإن الأكل نصيبى ، أما القوة المستمدة منه فنصيبها .

ورفعت أمه الأطباق بسرعة وغسلتها ورصتها على الرف ، فلما فرغت من وضع آخر طبق اتجهت نحو النافذة .. فرأت على عتبة الباب ضيوفا ينفضون ثيابهم من الثلج . فوضعت شالها على كتفها فى عجلة وذهبت لتفتح الباب.

لم يتحرك غيورغيتا من مقعده . يشوقه أن يعرف ماذا دبرت أمه من جديد.

قال لها الأب دانيلا وقد علا وقع حذائه الثقيل على أرض الدهليز :

- عسى أن تكون زيارتنا خفيفة عليكم .

- يا أهلا وسهلا. يا مرحبا بكم . تفضلوا ، ادخلوا ، إننى أثم يديك يا أبتاه ..

ومن وراء القس ظهر المعلم يوردان وفى إثره تاجر ، نحيف ، طويل ، فانحنى رأسه وهو يدخل لئلا يصطدم بعتب الباب.

إنه فى زى أبناء المدن ، للحيته وشاربه قصة مستديرة تركت الشعر قصيرا ، فكأنما جِزّم قنفذ أشقر على حنكه، أما بقية وجهه فقد انتشر فيه نمش أشقر أيضاً ..

خلع قلنسوته وحيا ربة البيت !

وجهت إليه نظرة قاسته من رأسه إلى قدميه ثم عادت وقاسته من قدميه إلى رأسه واستدارت تسأل :

- هذا السيد هل هو التاجر ؟

أجابها المعلم يوردان صاحب الحان :

- نعم .. إنه هو .

قاطعهما الرجل الطويل فجأة وهو يتلفت حوله باحثا عن مقعد.

- نعم . أنا أحد معارف زوجك ، بل أحد أصدقائه ، وفى بيت صديق مثله أجلس بل دعوة ، ولكن بعد أن يجلس قبلى الأب دانيلا .. فليجلس هو أولا لأحنو حنوه.. اعلمى يا سيدتى أننى أملك متجرا وحانة وفندقا فى مدينة كالوجارينى ، وكان من عادة زوجك أن ينزل عندى فيجد لحما طريا وقدحا من نبيذ وفراشا مريحا..

- إذن فأنت السيد دافيد ؟

- نعم يا سيدتى .. أنا السيد دافيد .. لقد ربحت مالا كثيراً بفضل زوجك نيقيفور ليبان ، لكنى دفعت له أيضاً مالا وفيرا ثمنا لبضاعته ، كنت دائما أقول أننى أفضل زبون عنده .. بل إننى فى أحيان كثيرة ، كنت أغنيه عن متابعة السفر ليفرغ من بيع باقى البضاعة.. كنت أمتص كل ما يعرض.

- طيب يا مستر دافيد ، والآن قل لى متى تعود إلى مدينتك ؟

- من غد مع البضاعة التى سأشتريها منك .

- إذن سنكون رفقاء طريق من هنا إلى مدينتك ..

- رجلى على رجلك ، ولم لا ؟. إن الصحبة خير من الوحدة ، هل لك عمل فى مدينتى .

- لا ولكن لى عمل فى بلاد أبعد منها ..

وهمّ التاجر بسؤال آخر ولكنه عدل وتلفت حوله وهو صامت .. وقالت فيكتوريا :

- البضاعة فى الحجرة الجانبية . ولقد خط ابنى على هذه الورقة عدد قرب الجبن الخالص والجبن المدخن ، وما بقى عندى من جلود الحملان. كما خط أيضا أمام كل صنف ثمنه الذى حددته بعد استشارة الأب دانيلا والمعلم يوردان ، بعد تخفيض أردت به منع الفصال بيننا ، إذ لا طاقة لى ولا صبر على الجدل والأخذ والرد الآن. فامتحن البضاعة . واستوثق من عددها .. ثم ضع نقودك على المنضدة .

***

تأمل التاجر قصاصة الورق التى خط عليها ابنها هذه البيانات وبقى صامتا.

أغمض عينا واحدة ، وصوب نظرة من الأخرى إلى المعلم يوردان وإن قصد أن يصوبها إلى ربه الدار.

- هل يلزمك الثمن كله ؟

تريدين أن أضعه فوق المنضدة ؟

- بكل تأكيد وإلا ضاع على يوم إن أنا حملت هذه البضاعة إلى مدينة بياترا لأبيعها هناك ..

- لو فعلت ذلك لضاع عليك يومان لا يوم واحد .

- أنا وقسمتى .

- وربما ثلاثة .

هل رأيت من قبل تاجرا يؤمر فيطيع ويخرج النقود من جيبه على الفور؟.. إننى لا أستغنى عن محاورة البائع .. أحب هذه المحاورة والأخذ من هنا والرد من هناك كى أطمئن إلى أن البضاعة تصلح لى .. هذا أولا وثانيا .. أما ثالثا فلكى أستنفد كل وسيلة للتخفيض .. وهنا يجئ دورى فى عد النقود لأعرف هل تكفى لدفع الثمن أم لا .. خامسا إن التاجر تطيب نفسه إذا أحس بأنه يتصرف كتاجر ، أما أنت فتريدين أن يكون بيعك كبيع الحكومة ، الثمن محدد ، فإما آخذ وإما ترك.

ماذا تقول ؟

- لا خيار فالثمن محدد.

- نعم. هذا هو ما أريده يا سيد دافيد ، تفضل بالانتقال إلى الحجرة مع ابنى والمعلم يوردان . وخذ كل وقتك لفحص البضاعة وعدها ووزنها ، واحسب حسابك. فإذا كنت حقا السيد دافيد الذى حدثنى عنه زوجى مرارا، إذن فإنى أعلم أنه قد آتاك أرباحا كبيرة ، واليوم أنيلك أنا أيضا أرباحاً جديدة .

- حدث لى أننى خسرت.

- إذن فأنت تاجر خائب.

- لا أنكر أننى ربحت أيضا ، هيا ، سأفعل ما تريدين ، سأفحص البضاعة وأحسب حسابى وترضين لى بتخفيض آخر فإذا بنا نتفق ونتصافح .

أطال السيد دافيد فحص البضاعة ثم خرج من البيت مع المعلم يوردان للتشاور ، يمسح بيده اليسرى أشواك لحيته ويحرك بالأخرى مفاتيحه فى جيب معطفه.

أغمض عينه اليمنى واقترب من المعلم يوردان وانحنى على كتفه وهمس له :

- دعنى أقل لك كلمة يا معلم يوردان ..

لو كنت على دين غير اليهودية وأعزب بلا زوجة ، ولو كانت بنت الجبل هذه بلا بعل ، إذن لكنت تزوجتها من قبل أن يمضى أسبوع واحد ، اسمع.. ولكان الأب دانيلا هذا هو الذى قام بعقد القران . سأشترى البضاعة .. وهذا هو حق السمسرة الذى طلبته لنفسك فى خطابك.

***

عد التاجر أوراق النقد ووضعها كوما فوق المنضدة .

تناولتها فيكتوريا وعدتها هى أيضا واحدة واحدة .

٣٨ ألف لاي لفت عليها نصف الصحيفة التى أخرج السيد دافيد من عليتها نقوده ، ووضعتها فى كيس من الجلد أحكمت رباطه ثم سلمته إلى الأب دانيلا راجية أن يبقيه عنده إلى غد..

أما غيورغيتا فقد كان متابعا كل ما يصدر عن أمه باهتمام متصل .. لقد لقيت هذه المرأة رضاءه لكنها أثارت دهشته ..

لم يعلم لماذا سلمت أمه النقود إلى القس فقال فى سره :

- لعلها خشيت أن يسطو عليها اللصوص هذه الليلة ، فلما رأى أنه دعن إلى حقيقة مقصدها اهتز من المرح وانطلق فى الضحك بينه وبين نفسه..

وبعد أن رحل الضيوف قال لأمه :

- ولم الخوف ؟ أليست معى البلطة التى باركها الأب دانيلا؟

أجابت فيكتوريا :

- هذه البلطة لها مهمة أخرى ..

***

عند الغروب .

جاء التاجر ومعه زحافة يجرها جوادان ضامران ..

أخذ البضاعة وحملها على مركبته ..

كانت أذيال أشعة الشمس الغاربة منعكسة على الثلوج المتدلية من الأسقف كأنها دبابيس من البلور .. ثم على سماء عميقة الزرقة .. لف الجو هدوء .. وتصاعد دخان المدفأة فى عمود متصل لا ينكسر ..

أبكرت ربة البيت فى اعداد فرش الأسرة استعدادا للنوم ، وقال لها ابنها إنه ذاهب إلى القرية ولن يعود إلا عند صياح الديك..

فهو لا يريد أن تفوته زيارة أسرة تسهر فتياتها فى تمشيط الكتان.

اطفأت فيكتوريا الفتيلة السهارى وبقيت فى الظلام طويلا من قبل أن يطبق الكرى على جفنيها..

واستيقظت على خبط رياح الجنوب على خشب النافذة واهتزازه مرة بعنف ومرة بخفوت ، والتقطت أذنها أيضاً شتائم تلفظ بحدة من صوت أجش فعلمت على الفور أنه ميترا صبى المزرعة ..

وثبت من فراشها ولبست خفيها ولصقت أنفها بزجاج النافذة وتفحصت الظلام ثم كرت راجعة ونزعت بندقية بروحين مقطوعة .. مقطوشة معلقة من رباطها على الجدار كما تركها زوجها..

تأكدت من حشوها ونصبت الزنادين ، اكتفت بسترة لبستها على عجل واتجهت إلى مدخل البيت فزاد صوت ميترا وضوحاً .

لا ريب أن وحشا ضاريا قد تسلل إلى حظيرة الماشية ، فقد هاجت كلاب القرية وتعالى صياحها وتجاوب ..

شدت الترباس وفتحت الباب فسمعت أيضاً صوت ابنها غيورغيتا يختلط بصوت صبى المزرعة ، أسندت البندقية إلى المزراب وأطلقت طلقة واحدة ،

فاذا بشبحين آدميين يمرقان من خلف الدار ويهربان فى جوف الظلام نحو الغابة .. وجذبت الضجة أهل القرية المجاورة ..

كان بعضهم متسلحا بقوائم خلعوها من الأسوار الخشبية التى صادفتهم فى الطريق ، بينما أخذ ميترا صبى المزرعة يروى الحادث وكأنه يروى معجزة ..

وصف لهم كيف أن ذئبا ضاريا قفز من فوق حرملته الكامش تحتها ليهجم على إناث الخنازير فى غياهب الحظيرة ، فانفجر لها فجأة كنمر فما كان من إناث الخنازير إلا أن دافعته بأسنان تصطك بعنف وبضربات قوية من خطومها ، فأتاح هذا الاشتباك لميترا أن يسرع فليتقط عصاه ، إنها نبوت صلب من خشب الزان ، يبقيه دائما إلى جواره ليواجه به مثل هذه الطوارئ ..

ولقد وقعت أول ضربة له على الذئب فما كان من الأخير إلا أن أنّ أنين البشر. ثم تلتها ضربة ثانية قضت عليه تماما فانهد على الأرض بلا حراك .. فهجم عليه الكلبان الكبيران الأبيضان وأعملا أنيابهما فى زمارة رقبته ..

سألته فيكتوريا:

- مادمت قد هجمت عليه وقتلته فلم هذا الصراخ كله ؟

اعترف ضاحكا وهو يرفس جثة الذئب :

- صرخت من الرعب.

***

رمت فيكتوريا جثة الذئب بنظرة غير مبالية ، إن ذهنها سارح وراء الشبحين الهاربين .. لقد جاء الخطر معهما يدق بابها .

رفعت عينيها إلى النجوم وأحست بهبة من ريح دافئ تتخلل سترتها..

وبدا لها أن الفجر قد طلع عليها بأحداث تنبئ عن نذر لا تزال مبهمة..

عادت إلى الدار وأشعلت المصباح وطلبت إلى ابنها غيورغيتا أن يجدد حشو البندقية.

إنها تدرك الآن بوضوح أنه لابد لها أن تأخذ معها بندقية زوجها .. هذه البندقية من أين جاءت فى الأصل ؟ لا أحد يدرى .. لعلها قد انطلقت ذات يوم فقتلت رجلا .

إنها مقطوشة بسبب أن يدا قد اختزلت بمبرد ماسورتها مثلما يفعل قطاع الطرق ببنادقهم ، كان زوجها قد اشتراها فى عهد بعيد من رجل شرير لا يعرف له مسكنا ولا أهلا.. واحتفظ بها لتسعفه فى الطوارئ العصيبة.

ينبغى لفيكتوريا أن تأخذها معها وتسلمها إلى زوجها ، يدا إلى يد .

ليس لها الآن رغبة فى الراحة ، فأسرعت تلبس مداسها بعد أن حشت كيسا بحذائها الطويل الرقبة مع تغييره من ملابس داخلية .

كانت قد أنجزت إعداد سرج الجوادين وعلقت به زكائب ملأى بمؤونة السفر واضعة إلى جانبها معاطف وصديريات من الفرو . فحين تتقشع فى الطريق سحب حبلى بالثلوج ، وحينما يميل الجو إلى الدفء تتخفف مع غورغيتا فى أحد الفنادق من هذه الملابس الثقيلة حيث يستطيع كل منهما أن يشمر عن ساعده.

سألها ابنها غيورغيتا بدهشة لا تحد :

- ولكن كم من الوقت سنمكث هناك ؟

- لن نمكث فى مكان يا غيورغيتا ، سنمضى إلى أن نعثر على ضالتنا ، هذا هو هدفنا الأوحد ، لا تنس أن تحمل بلطتك ليكون لنا عليها اعتماد..

وفى فجر اليوم العاشر من شهر مارس ، وكان يوم جمعه ، امتطت فيكتوريا جوادها ، وامتطى ابنها جواده ثم اتجها أولا إلى دار القس دانيلا، فدخل إليه غيورغيتا وعاد إليها بالنقود المودعة عند القس ، ثم مرا

بالحانة وأيقظا المعلم يوردان ، ليملأ لهما زمزميتهما الخشبية بخمر الزبيب..

وحين طلعت الشمس كانا قد فارقا حدود القرية ، يسيران مع خورسيل بحسب فى نهر بستريتا..

إن للريح همسة وهى تلفح الثلوج الهشة التى تكدست فوق الطريق..

وهذه السماء فى لون شقائق النعمان.

كان غيورغيتا قد ربط البلطة بحزام علقه فوق كتفه الأيمن ، أما فيكتوريا فقد احتالت حتى وجدت للبندقية المقطوشة موضعا تستقر به فى مؤخرة السرج ، وصار بهما الجوادان خببا.

***

جنبا إلى جنب كانا يسيران .

فما أن توهجت الشمس فى الأفق الشرقى من ناحية مدينة بسترا رسمت الأم علامة الصليب على رأسها وصدرها ثلاث مرات ، فحذا ابنها حذوها ، ونصب كل منهما جبهته لضياء الشمس.

الفصل الثامن

بعد فترة قليلة لحقت بهما زحافة التاجر اليهودى وهتف إليها من
ابها:

أراك يا بنت الناس، إن لم أخطئ، قد خرجت لسفر طويل.

تابع غيورغيتا سيره أما فيكتوريا فقد شدت جوادها وتأخرت به حتى
سارت إلى يمين الزحافة ، ثم سألته دون أن تدير إليه وجهها أو تنظر
اليه..

- ومن أين أدركت أن سفرى طويل ؟ . هل أخبرك ذلك المعلم يوردان؟.

وماذا قال لك ؟.

- وهل أنا فى حاجة لمن أستقى منه الخبر؟. دعينى أصارحك أنك
تجشمين نفسك مشقة كبيرة لا بسبب طول الطريق أمامك بل بسبب قلقلته
لك بتشعبه وطلوعه ونزوله ، ولنقل أنك تريدين الذهاب إلى مدينة دورنا ،
للبحث عن زوجك .. أفلم يكن من الأسهل عليك ركوب الزحافة ، فيقودها
ابنك أو سائق آخر حتى تبلغ بك مدينة دورنا ، فالطريق إليها مفتوح
مادامت الثلوج تغطيه.

ألم يكن الأفضل من هذا أيضا أن تجعلى وصولك أولا إلى مدينة بيانزا
ثم تركبين منها القطار وينتهى تعبك.

قال غيورغيتا وهو يهز رأسه ، باقيا على التفاته إلى الأمام:

- صدق التاجر ونطق بالحق.

أجابه السيد دافيد وهو يضحك :

– سارعت إلى تصديقى . هل تظن أننى على حق ؟ إن الصواب على خلاف ما قلت ، فلو كان سفركما بالزحافة كما أشرت . ثم إذا بالثلوج تنوب فجأة بعد ثلاثة أيام.. أفليست هذه ورطة لا تعرفان سعها ماذا تفعلان بالمركبة الثقيلة ، وما نفعها إذا لزمكما عبور خور أو اجتياز أرض عارية لمراع مهجورة .. مشكلة تصبح الزحافة معها عبئا لاعونا ..

هذا بخاصة إذا ما صادفت هذه المشكلة – لحظة اندلاق السيول من قمم الجبال .. أما ركوب الخيل فأمر مختلف . لهذا قررت أنكما خرجتما لسفر يتاح لكما فيه التريث هنا أو هناك بين الحين والحين كلما دعت الضرورة.

وكذلك الصبر عند التحرى عن الغائب ، وشق الدروب المتشعبة للوصول إليه .

قد رأيت وجه ابنك يتهلل بالفرح حين ذكرت القطار. لكن ركوب السكة الحديدية دوخة وصك للآذان وعفرتة للنظر . أما أنا فسعتزم إلى أن أبلغ مدينة دورنا أن أتريث فى فنادق على الطريق أو أنزل فى بيوت الفلاحين فأبشرق عينى وأذنى..

خبرينى..

إنك ذاهبة لمدينة دورنا للبحث عن زوجك. ولعله لم يصل إليها قط..

أنصتت إليه وهى تتدبر كلامه:

– إذن فقد أفضى لك المعلم يوردان بسبب سفرى.

– أخبرنى بخطاب منه أن عندك صفقة طيبة تنتظرنى وأنك فى حاجة إلى نقود لانك ستسافرين للبحث عن زوجك.

كما سمعت فى الليلة الماضية من رواد الحانة أحاديث عنك تقصد المزاح. قالوا إن زوجك قد هجرك ، وإنه حيث يقع بين مخالبك ستسحبينه إلى البيت وتقفلين عليه بالضبة والمفتاح .

لا تبالى بثرثرة هؤلاء المغتابين ، لكن خبرنى ، حين شاورت أهلك وأهله..

من الذى نصحك منهم بأن تصبرى ولا تتعجلى فطال قعودك عن السفر بحثا عن زوجك ؟

تنهدت بنت الجبل وأجابته :

– واحسرتاه ، ليس لى ولا لزوجى أهل أو أقارب فى ماجورا . فلقد رحلنا عن وطننا فى الصغر ثم جئنا هذه القرية للتوطن بها .. إن لزوجى خوة ، رعاة مثله ، ولقد سمعت أنهم ابتعدوا ذات شتاء فى طلب المرعى حتى بلغوا مع قطعانهم بلاد القرم فاقاموا بها ، نازلين فى مروج خصبة على شاطئ البحر ، والوعد أنهم سيرجعون إلينا بعد خمسة عشر عاماً.

إنهم لا يسوقون إلا حميرهم وإن كانت جيوبهم ملأى بالذهب.

أما أنا، فليس لى أخوة من الذكور ، لى أخوات خلفتهن ورائى فى جبال بعيدة . لم نتقابل منذ الفراق ، أما كبار السن من أسرتى فقد نزلوا إلى القبور.

إننا فى القرية أسرة منقطعة لا يزيد عدد أفرادها عن أربعة .. أنا وزوجى وولداى . إذ ليس لى من أشاوره كما أنه لا ناصح لى ألا هذه المسكة من العقل.. والتى وهبها الله لى ..

فإذا كنت قد تأخرت طويلا عن السفر فلأنى كنت أنتظر زوجى ، كل صباح أقول إنه سيأتى اليوم ..

بل وماذا عساى أن أفعل غير ذلك ؟

أمّن التاجر على قولها وأجابها :

– معك حق ، الآن يدور فى خلدك أنه مات هناك ..

– لماذا تقول هذا ؟

– إنك خرجت تتقصين أثره لتعرفى أين انتهت خطاه واختفى شخصه ، وإلا لو قدرت عودته لبقيت إلى اليوم فى انتظاره ..

– معك حق مرة أخرى ، ولكن لا أظن أن اللصوص قدروا على الفتك به بعد أن قطعوا عليه الطريق وهو راكب من بلد إلى بلد .

حقا أنه كان يحمل نقودا ، مثلى الآن ، وكان شجاعا لا يهاب السير بالليل ، أما أنا فقد اعتزمت ألا أسير إلا فى وضح النهار .. وأن أجد كلما استطعت صحبة مسافرين ، فهذه الدنيا مليئة بالأشرار ، لكنها لا تخلو أيضا من الأخيار.

فى الليلة الماضية بعث لى ربى بذئب متوحش لينبهنى أن لصين يريدان السطو على منزلى ، وأنهما يحومان حوله ، سمعا ولا ريب أننى قبضت منك ثمن الصفقة وهذا دليل على أن المعلم يوردان رجل طيب مؤتمن إذ لم يفض إلى أحد بأننى أودعت الثمن عند الأب دانيلا ..

تمتم غيورغيتا وهو يكتم ضحكه :

– أخيراً فهمت لماذا فعلت أمى ما فعلت ..

أجابها التاجر وهو يبتسم ويغمض عينا وينظر بأخرى إلى جنب ، رافعا سبابته بموازاة عينيه اليمنى :

– اسمعينى يا بنت الحلال واسمعى كلامى .. اطردى هذه الهواجس عن بالك .. إنها تعقد حياتك ، زوجك لم يمت ، لا وهو فى طريق السفر ولا وهو فى مدينة دورنا ..

انطلقت منها بالفرح صيحة تكتمتها:

– أواثق أنت ؟

– كلا – لست واثقا.

أحنت رأسها من جديد ، واستطرد التاجر يقول :

– وكيف يكون كلامى موثوقا به ، وأنا لم أكن فى صحبته ، ولكن ليكن فى علمك أن عقلى يقول لى إن كل شئ فى هذه الدنيا له اسم وإفصاح

ودلالة ..

انظرى هناك .. إلى اليسار.

فوق التل ترين أمامك سبعة منازل من الخشب ، تغطى الثلوج سقوفها ، كما يتعالى فوق كل منزل دخان مدفأة ، إنها خرساء صامتة ولكنها تنطق لنا مع ذلك بكلام مفيد وفصيح ..

نعلم منه أولا عددا ، فهى سبعة منازل ، وزمنا أننا فى فصل الشتاء..

واجتماعا ، ذلك لأنها تقول لنا إن فى كل منزل أسرة مزارعين تتحلق حول النار تطبخ العصيدة ودهن الخنزير ، أما إذا لم يتصاعد فوق سطح دخان فهذا إفصاح بكلام آخر مختلف وهكذا.

كل شئ فى الدنيا له مغزاه ودلالته ، بذمتك يا بنت الحلال هل سمعت من قبل عن جريمة قتل بقيت فى طى الكتمان ولم تكتشف ؟

إن العقبان والغربان ترشدنا إلى المكان الذى تتوارى فيه جثة القتيل ضحية قطاع الطريق .. أما جثة الغريق فتدفعها الأمواج تلفظها على الشاطئ ، وحتى لو ألقى بالجثة فى قاع بئر.. فسيأتى موسم الجفاف ويغيض الماء. فإذا بالقتيل يشير بساقيه المرفوعتين إلى أعلى لأول حان على البئر .. ولو دفنت الجثة فى العراء فستتكفل الذئاب بنبشها ، هذا يعنى أن كل شئ فى هذه الدنيا له إفصاحه وتعبيره ..

وتلك مشيئة الرب وحكمته ..

ما من علم إلا تنقل تباعا من فم إلى أذن حتى يبلغ من يخصه.

وهيهات أن يضل عنه..

بذمتك مرة أخرى ، ألم تقولى بلسانك منذ قليل أن إخوة زوجك قد ابتعدوا فى طلب المرعى، وحتى بلغوا بلاد القرم ؟

هذا إذن انقطاع بالغياب يماثل الانقطاع بالموت، مع ذلك فقد وصلت

اليكم أخبارهم ..

فإذا لم يكن قد وصلك بعد خبر عن زوجك ، فذلك لأنه مختبئ فى مكان .. ملتزم الصمت ..

ولو كان قد هلك لتسامع الناس بخبر هلاكه ، دعينى أسمعك نصيحة أخرى :

لابد لك من الوثوق والإيمان بأنه حى يرزق حتى تواتيك القوة على مغالبة متاعب السفر ومشقة البحث عنه ..

هزت فيكتوريا رأسها وزمت شفتيها على ابتسامة لا تفصح إلا أقل افصاح عن استخفافها بكلامه وقالت له :

– فهمت من طريقة كلامك لى يا سيد التجار أن الذى سمعته منك هو من قبيل المواساة التى يجود بها رجل عطوف القلب ، لكنى أحب لك أن تعلم بأننى حين خرجت للسفر ، كنت أطيع إشارات وأوامر علوية ، ثم إن البحث عن زوجى أشد وجوبا لى لو أنه مات قتيلا ، لانه لو كان حيا يرزق لقدر على العودة وحده ، وبإرادته ..

أمن التاجر على قولها وأجابها :

– الرأى رأيك ..

ثم حث جواده بسوطه فجرى بالزحافة.

***

وصلوا إلى مدينة بستريتا والشمس تتوهج فى الأوج ، وفى قرية تاركا كان تساقط الثلج مع دفء الجو كحبات مسبحة من زجاج له بريق ، هذا على حين بقى النهر جسرا متجمدا من ثلج فى لون الزمرد ، تمر عليه زحافات محملة بالحطب ، وفلاحون يسيرون وكل منهم يهز بلطته إلى جنبه ، أما الاستثناء فهو ملتقى النهر بفرعه ، فقد تألفت عنده بقعة يبقبق فيها ماء فضى لامع ، كأنها الشمس أوت فيها إلى عشها ..

وبلغوا الشاطئ الآخر فتريثوا لتستريح الجياد ، وجلست فيكتوريا وابنها بأكلان بجانب زكائب المؤونة ، أما السيد دافيد فقد تذكر طلبا له عند تاجر ، لاشك أنه سيقابل أيضاً تاجرين أو ثلاثة ، يقرب لحيته الشائكة إلى لحاهم وهم لا يكفون عن لف شعورها على أصابعهم ، تلك صورته كما تخيلتها ، ظلت الجبل بابتسامة وهى تنتظر عودته ، وتحرس بضاعته .

وأقبل السيد دافيد بعد تأخر طويل ، يبدو عليه ، إنه فى عجلة ، يوسع من خطوته ، ويغرز حذاءه الثقيل فى الثلج الهش..

خلع مخلاة الشعير عن رقاب الجياد والتقط السوط وقال :

– هيا بنا ، سنمضى الآن ، أخبرك أننى تحدثت إلى بعض اليهود هنا ، وكعادتى جاذبتهم أطراف الحديث ، وتكلمنا عن كل شئ فى العالم ..

فلقد ذكروا لى أشبان العلال فى جالانزى وفى هامبورج ، وفى باريس ، لم يذهب واحد منهم إلى دورنا هذا الشتاء ، فقلت لهم أى جنس من الناس أنتم ، ما خطبكم ، لماذا لم يذهب منكم ولو واحد إلى دورنا ؟

فأجابونى :

– ها نحن قدامك ، تراانا..

لم يذهب واحد منا إلى دورنا كما قلت فأجبتهم عادلا عن تقريعى :

– طيب ، رعى الله أولادكم ، سيكون فيهم الخير والبركة ، وليمد الله فى أعماركم حتى نتقابل هنا بعد مائة عام.

فكان جزاء تلطفى ، أكراسهم لى بكأس من أطيب النبيذ .. ولماذا النكران؟.

إن أجود نبيذ فى بلادنا هو من كروم ملتقى نهر تاركا بفرعه ، وهو يتخمر مع زبيب مستورد من القسطنطينية ..

صاح له غيورغيتا بلا حياء :

– عدت بعد تأخر طويل ، يا سيد دافيد ، وأنا وأمى فى عجلة من أمرنا .

– أمامكما وقت فسيح قبل أن تنوب كل هذه الثلوج ، لقد تأخرت لأنى رزيت قبل أن أتبادل الحديث مع التجار أن أستعير شالا ينبغى أن أعطى به كتفى عند الصلاة ، ثم ذهبت إلى المعبد لتأدية الفريضة ، والآن هيا بنا نرحل ، سنصل قبل الغروب إلى نهر بكاز ، وهناك ، سننزل عند رجل مسيحى طيب القلب ، من معارفى ، إن لى معارف كثيرين .

ولسوف أذهب إلى الأسر اليهودية لأشرب خمر الزبيب ، فهو عندهم مر لا حلو .

سأسأل أفراد هذه الأسرة أيضا ، هل ذهب واحد منهم إلى دورنا هذا الشتاء ، فإذا خاب توقعى فإنى لن أنجيهم من تقريعى .

***

وساروا بعد ذلك على مهل مع وادى نهر بستريتا على طرق تغطيها ثلوج هشة ، وحكمت بنت الجبل أن رفيقها فى السفر هو مبعوث العناية الالهية لها ، فقد انتفعت به .

لسانه ذرب .

لايحجم عن الهجوم يمنة ويسرة ، على الناس ، بأسئلة ..

ومع الغروب كانوا قد وصلوا إلى قرية بيكاز فتريثوا فى فندق السيدة دوريا ، مسحوا على جيادهم وقدموا لها علفا من شعير ، ووضعوا متاعهم فى مأمن فى حجرة بالفندق .

ثم استدعوا صاحبة الفندق وزوجها ، فلما ذكروا لها اسم نيقفور ليبان لم يجدا هذا الاسم غريبا عليهما .. وتذكرا صاحبه .

وقالت السيدة دوريا :

– إنه رجل لا مثيل له فى طيبته وكرمه ، إذا حالفه التوفيق ونال ما يريد،

لم يبال كم يصرف ، قد مضى زمن طويل منذ رأيته آخر مرة ، لعل شغلا احتجزه فى مكان ما بالوادى ، أو لعله قد استطاب المرح فى التردد على حفلات الزواج والتعميد فى قريته ..

وحالما يأتى الربيع سنراه قادما إلينا ..

سألتها بنت الجبل :

– رؤيتك له آخر مرة ،هل كانت منذ مدة طويلة ؟

– نعم . أطول من العادة .. منذ الخريف الماضى .. كان ذاهبا يصعد الجبل على جواده عفى ..

أشار السيد دافيد بغمزة خفيفة من عينه اليمنى فلم تلح فيكتوريا على محدثتها بأسئلة جديدة ..

وقالت دوريا :

– ولماذا سؤالكم لى عنه ؟

رد عليها السيد دافيد ، قاطعا الكلام على فيكتوريا:

– لأننى مدين بمبلغ من المال إلى هذه الولية .

– ولماذا لا تبحث عنه فى قريته بأعالى تاركاو إنه غير موجود هناك ، وقد تحققت من ذلك بنفسى ، ونحن قادمون من قريته ، وسنظل معا رفقة طريق حتى نبلغ كالوجارينى ..

– ترى أين يكون إذن ؟

إذا لم يكن فى الجبل فلعله باق مع قطعانه بقرب مستنقعات منطقة بروت أو منطقة جيجا ..

– الظاهر أنه توقف فى دورنا بعد أن مر من هنا ..

– نعم .

هذا محتمل ، كان قد قال لنا أن فى نيتهم شراء نعاج من بعض الرعاة فى دورنا إذا كان قد وجد مراعى طيبة ، فلعله مكث بها .

- هل بلغك خبر عنه ؟ هل حدثك إنسان عنه .

- كلا .. لم أعلم عنه شيئا .

تنهدت فيكتوريا ومسحت برفق عينيها بكفيها ثم عدلت شالها على كتفيها ..

وفى صبيحة اليوم التالى ، وكان يوم سبت ، امتطيا جوادهما من جديد لكن السيد دافيد لم يلحق بهما إلا بعد تأخر طويل ..

ذلك لأنه لم يخرج بزحافته إلا بعد أن توهجت الشمس وأذابت الثلوج فوق السقوف ، وبعد أن بدأت المياه تسيل من المزاريب ..

اعتذر لهما ضاحكا :

- لا تغضبا منى هذه المرة لطول تأخرى إننى غير محقوق ، فالسبب هو معاهدة بين اليهود وربهم ، فاليوم يوم سبت ، وهو يوم يحرم علينا السفر فيه ، أما إذا كان السفر فوق الماء فالأمر يختلف .

إذ يحل لنا السفر حينئذ إلى أن ينقطع الماء من تحتنا . فمن ركب الماء لا يستطيع الا أن يتابع السفر لذلك ..

أجاز لنا ربنا السفر فوق الماء يوم السبت ، ولما كان ينبغى لى من كل بد أن أصل قبل المساء إلى بيتى فى كالوجارينى فقد انتظرت إلى أن سالت المزاريب ، وذابت ثلوج الطريق لأن الماء غمر مسندى زحافتى فتحقق لى شرط السفر فوق الماء ، فلا آثم على ..

وسيظل الماء تحتى إلى أن أبلغ بيتى ..

كيف فقهت كل هذا ؟

أكان بينك وبين ربك حديث متبادل عن الحرام والحلال ..

- لم يكن حديثه معى ، بل مع رجل من أقربائى منذ عهد بعيد ، اسمه موسى بن عمران .

فأنت ترين أننى سأسافر على الماء إلى أن أبلغ بيتى .

فتستقبلنى زوجتى - نصفى الحلو - بذراعين مفتوحتين ، سينتهى ركوبى للماء عند عتبة الباب وأدخل حيث أجد نبيذا وطعاما منوعا أسمع نشيشه على النار بلذة .

وستنزلان ضيفين عندى كما كان ينزل نيقيفور ليبان ..

- أفهم من كلامك أنه كان ينزل عندك مرارا .

- أحيانا كثيرة ، وأدعو الله أن ينزل عندى من جديد فإنى أعتقد أنه سيكون صحبتكما فى رحلة العودة إلى البيت ..

وهكذا تابعوا السير وهم يثرثرون بانبساط . كانوا قد خلفوا وراءهم مناخهم الذى استراحوا عنده وقت الظهيرة . وظلوا من بعد يلمحون من بعيد الظلال الزرقاء لجبال سياهلاو التى تكسوها الثلوج . ففى هذا الموسم تتحرك الدببة فى أغوار الجبل المشمسة وتخرج رؤوسها من كهوفها ويتردد وهى تستقبل الشمس شخيرها وعطاسها وعما قليل تصفق ديوك البرارى بأجنحتها فوق الأشجار ثم تهبط على الأغصان لتنقر ثمار شجر السرو .

كما تهدر السيول بصوت شبيه برنين الأجراس . وتتواثب فوق درجات الصخور وكتل الثلوج . ويعج لها فى سيرها ، هنا وهناك ، زبد متحرك رائما الفناء والتجدد ، بين تماسك وانتثار . كأنه الدانتيلا .

تتسمت بنت الجبل هى أيضا كحيوان الغابة أريج الربيع وخرير مائه، وكانت قد تعبت من امتطاء جوادها نهارين كاملين ، واشتهت أن تجد فراشا وثيرا .

***

السيد دافيد يسكن فى قرية كالوجارنى ، غير بعيد من صخرة الزيزفون

فى حجرة ملحقة بدكان صغير وحانة .

أقبلت إليه زوجته تجرى ، وهى امرأة شمعية البياض لها لغد مزدوج ، ورحبت به بصوت تتراقص فيه نغمات الفرح ، ثم صوبت نظرة مدهوشة إلى بنت الجبل حين رأتها تنزع من السرج بندقية مقطوشة شأن قطاع الطرق..

ودخلت فيكتوريا وابنها حجرة اشتدت تدفيتها وأكل غيورغيتا بشهية ، وجبة دسمة ، أما فيكتوريا فقد ظلت واقفة .

بحثت عن إبريق الماء ثم شربت بلهفة لترطب جوفها المحموم من عناء السفر ، ومن نافذة الحجرة راحت ترسل النظرة إلى بعيد .. إلى تلك القمة .

وقالت فيكتوريا للسيد دافيد :

– سمعت من زوجى ذات يوم حكاية هذه الصخرة، أجابها :

– نعم ، لهـا حكاية ، تروى أسطورة أن الشـيطان نزع ذات ليلة هذه الصخرة من قمة جبل سياهلاو ثم حملها على ذراعيه قاصدا أن يلقى بها فى عرض نهر بستريا لتكون سدا يعوق جريانه فيفيض ويغرق الوادى ، فإذا به وهو يطير بها فى الهواء تفاجئه آخر صيحة للديك فى وداع الليل ، فيترك الصخرة تهوى قبل أن يبلغ مقصده ، كأن يخشى أن تطلع الشمس فتصعقه، فمضى فى الظلام قفزا نحو الجحيم تاركا الصخرة تقع حيث ترونها ، وهذا الكلام كله من قبيل حكايات السمر ، لكن الناس تصدقها وترويها مرة بعد مرة ..

عارضه غيورغيتا قائلا :

– إذا كانت الناس ترويها لأنها قد حدثت فعلا ..

– كل شىء جائز .

ولكن هذه الحكاية من العسير تصديقها وإلا لكان الشيطان فى قمة الغفلة والبلاهة .

لماذا لم يعد فى الليلة التالية ويدفع الصخرة بضربة واحدة من قدمه

فتسقط من الجبل إلى النهر توا . لا تنطلى على هذه الحكاية ، فالصخرة موجودة فى مكانها قبل خلقة البشر ، وقت إن لم يكن هناك بعد آنس أو جن، أما نيقيفور ليبان فلقد كان كلما نزل عندى ، وجلس إلى هذه النافذة، غلب عليه من حيث يدرى شغف بأن نتسلق هذه الصخرة ليحدث بها شجا ببلطته قاصدا أن يشج رأس الشيطان بالطبع .

كنت أخانقه وأثنيه عن عزمه .

وكان يجيبنى أنه سيحمل أيضا زقا من النبيذ ويصحب جماعة من الغجر عازفى القيثار ليحتفل بانتصاره ، فلما سمع جيرتنا من الغجر كلامه اختبأوا وراء بيوتهم ..

واعترضت فيكتوريا قائلة :

– حقا إنه شديد الانفعال إذا سكر ، وكنت أعجب بسطوته حين تلعب الخمر برأسه ، أنت لا تعرف سطوة زوجى .

كنا عائدين ذات مرة من بياترا وأنا حبلى بابنى هذا الذى تراه أمامك ، وفجأة هاجمنا منسر من الأشرار لطخوا وجوههم بالسخام طلبا للتنكر .

هددونا بنبابيتهم وأمرونا أن نلقى إليهم بما معنا من نقود ومؤونة .

طلعوا علينا من تحت جسر عال عند مفترق طرق حيث كان زوجى متسلحا ببلطته ،فرمى طاقية من الفرو ، وهز شعره الطويل ورفع بلطته وزعق إليهم :

– يا أغوات . تبا لكم .. ولسوف أهوى بالبلطة على جباهكم ، وبضربة من قدمى أقذف بكم إلى هاوية الجسر .. فتراجعوا لائذين بالأدغال ثم انطلقوا هاربين ، هيهات أن يقع عليه اعتداء ، إنه كان لا يهاب قطاع الطرق .. يعرف كيف يغالبهم ، فإذا كانت قد قتلته يد ، فلابد يد رجال زعموا له أنهم أصدقاؤه ، طعنوه غدرا ، فى ظهره ..

وأخذت زوجة السيد دافيد تشير وتتكلم بلغة غير مفهومة ، فترجم عنها زوجها قائلا :

– تقول إن هذا هو الذى لابد أن يكون حدث له ، وإلا لكان من المستحيل قتلته ، إنها أيضا تحب نيقيفور ليبان وتعجب به .. فصوبت فيكتوريا إلى اليهودية نظرة حانية وقد علت شفتيها ابتسامة رقيقة وأضافت ربة الدار كلاما آخر شرحه لهما التاجر بقوله :

– تقول إنه حين نزل عندنا فى الخريف الماضى وهو فى طريقة إلى دورنا كان وحده ، ليس معه من رفيق ..

ثم أضاف :

– أما أنا فأعترف لكما بأننى لم أره يومئذ ، كنت فى المدينة أبيع بضاعتى .

وعادت ربة الدار إلى الكلام .. فقال زوجها :

– تقول إن نيقيفور ليبان لم يتريث هنا إلا وقتا قصيرا ، وأنه قد تابع سفره مع قدوم الليل .

مدت فيكتوريا نظرتها إلى الظلام خلف النافذة وهى تزن فى سرها هذا الكلام الذى سمعته ..

بينما قال السيد دافيد مترجما عن زوجته :

– تقول إنه كان يحمل نقودا ، وإنها ناشدته ألا يرحل ، لكنه لم يستمع إليها وتابع سفره .

أجابتها بنت الجبل من بين شفتين مزمومتين :

– هذا شىء غير مستبعد .

وحين خلت فيكتوريا إلى نفسها أخذت ترسم علامة الصليب بسرعة ومرارا ، على باب الحجرة وعلى السوادة التى ستسند إليها رأسها ، ثم تهاوت على مقعد واطىء ، له ثلاث قوائم ، ثم ضمت ركبتيها بذراعيها وبقيت ملمومة ، نظرتها الغائمة بالظلال شاردة فى متاهات المستقبل المجهول الذى ينتظرها .

وحاولت أن تقتنص بمخيلتها صورة زوجها ليبان وتدير رأسه نحوها لتبين وجهه ، لكن صورة نيقيفور ظلت تتراجع عنها ، وقد انهمرت فوقها دموع الربيع .

ومن خارج الحجرة تساقط الثلوج عن السقوف ، قطرة فقطرة ، وربح الجنوب تتراوح بين علو وخفوت .

تمتمت كأنها تحادث زوجها :

– غيورغيتا ..

قال لى ..

هل أنت مع امرأة أخرى ؟

تقلقل الفتى فى فراشه وفتح عينيه :

– هل كنت تتكلمين يا أمى ؟

أجابته ونظرتها مثبتة على النافذة :

– كلا .. لم أتكلم ..

تأملها قليلا ثم أطبق فجأة جفنيه واستعاد نومه الهنىء .

أما هى .. فظلت فى سرها تحاكم زوجها .

***

وجهت إليه عقابا طويلا دون أن تفتح شفتيها ، كانت تحدثه من صميم قلبها وتستنفذ من النسيان شكوكها القديمة وآلامها الماضية ..

كانت من قبل تصارحه وتؤنبه على هيامه بربط جواده إلى أبواب نساء العرفهن ويُطيل المكث معهن ، فكان هدفا للوم شيخ الرعاة من أتباعه ، ولوم من العقلاء الذين أنقذهم الله من الغواية منذ زمن بعيد ، أما الآن .. إذا كان حقا قد مات .. فإنها تحمد له ما منحها من ابتسامات رقيقة وساعات سفو حلوة .

ومنذ تسع سنوات حدث لها ذات يوم إبان عيد القديس جورج أن هجمت عليه كالنسر الجارح ، تهم أن تنشب مخالبها فى زمارة رقبته وعينيه ، فدفعها بذراعه برفقٍ وهو يضحك فاشتط هياجها درجة فوق درجة وقذفت فى وجهه باسم امرأة مشهورة فى القرية بدمامتها وتبذلها ومهانتها فى خدمة البيوت .

وصرخت إليه بصوت متهدج وهى تشرع من جديد مخالبها .

– هذه هى التى تجد عندها انبساطك ونعيمك وتبدد عندها مالك .

فانهال زوجها عليها ضربا ثم أخذها فى حضنه وحبس فيه ذراعيها ، فهدأت وصمتت فجأة كأنما ماتت وأصبحت جثة بلا حراك .

ثم أسندت جبهتها إلى كتف زوجها ، وترقبت بمسكنة عفوه وتدليله لها بقبلاته. وضربها ذات يوم منذ سبع سنوات بسبب امرأة أخرى ، ضربها مرة بسبب غيرتها من عينين سوداوين ، ومرة فى السنة التالية من أجل غيرتها من عينين زرقاوين ، إرثا عن الألمان ثم أدركت وهى لا تصالح نفسها كل المصالحة ، أن رجلا مثل زوجها يأخذ هذه الأمور مأخذ التسلية العابرة، شأنه وهو يشرب قدحا من النبيذ أو يقطف زهرة ، أما هى فلها سمو على بقية النساء .

تنبعث منها قوة أو سحر لا ينجح ليبان فى تفسيره فلا يلبث أن يعود إليها ، كما لو كان يعود إلى نبع مياه صافية .

واستفاقت من ذكرياتها وقالت فى سرها :

– محال أن تكون قد اقتنصته امرأة يهودية ، أو امرأة مجرية خضراء العينين .

لا شك أن جثته ترقد فى مكان علمه عند ربى .

نادته مرة أخرى من صميم قلبها وغفرت له كل نزواته ، ولكن ليبان ظل صامتا لا ينطق لها بكلمة ..

وفى صبيحة يوم الأحد عادت من جديد تمتطى صهوة جوادها .

جسدها مخلع من التعب وعيناها تحيط بهما هالات سوداء .

ه استمتعت وهى سارحة الذهن إلى نصائح التاجر اليهودى ، ثم شدت ... انتباهها حين بدأ يتكلم عن حساب عليها وعن توصياته فيما يتعلق ...وذها ، أجابته :

معك حق .

ـــأدفع مـا أنا مـدينة به نظير الأكل والنوم ، وأريد أن تفك لى بعض ...راق من فئة ألف لاي لأجد ما أدفع به نفقاتى الصغيرة فى الطريق ، إذ لا ...د أن يرى أحد أنى أحمل معى مبلغاً كبيرا ، يسيل له اللعاب .

إنه لو كانت النقود نقودى ما باليت ، ليأخذها من يريد ليفعل بها ما ...اء ، لكنها نقوده .

ـ نقود من ؟

تمثل فى ذهنها أن ترد قائلة :

- نقود ليبان ..

نقود رجل ميت .

لكنها أحتفظت بإجابتها لنفسها فلم تنطق بها ، تناولت الفكة وعقدت ...ها طرف شالها ولكزت بكعبيها جانبى جوادها .

وسارا تحت شمس مشرقة حتى بلغا قرية فاركاشا ، فإذا على مدخلها ...ستقبلها ريح باردة تهب من ناحية الجبل الكبير وتجر معها سحبا سوداء ...عاصير ثلجية .

وحين مرا أمام الكنيسة لم يكن يستبين لنظراتهما شىء فى السماء أو ...وق الأرض .

شدت فيكتوريا جوادها وترجلت وركعت أمام الكنيسة وقالت لابنها :

– يا غورغيتا .

هذا أمر من الله بأن نتريث هنا . فترجل ابنها بدوره ومضيا وهما ...دودان الجوادين بزماميهما يبحثان عن مأوى لهما .

الفصل التاسع

القرية غريبة عليهما .

سارا على غير هدى فى الحارة الرئيسية يتلفتان تارة يسرة وتارة يمنة ، العاصفة الثلجية تخبط عيونهما بأذيالها ، ثم هدأت زوبعتها وأشرقت الشمس فاستعادت قبة الأفق كسوتها الزرقاء ، فإذا بهما كأن عالما جديدا قد انكشف لهما فجأة .

فلقد انعطف الطريق بغتة ورفعهما إلى ربوة شاهدا عليها أمامها حشدا كثيفا من القرويين لهم ضجة مختلطة ، آخر القادمين يقلقون المزدحمين امامهم فلا ينقطع التدافع .

ووقف فروى يتكلم بصوت عال على عتبة منزل ، وانشق الحشد ليفسح الطريق لرجل قصير أسمر ضخم الرأس ، يبدو من كل أحواله أنه من رجال الحكومة ، يرتدى قلنسوة مخروطة من فرو الأستراخان ، ومعطفا له ياقة من فرو القندس ، يتشمم الهواء ويتابع بنظرته زعابيب الثلوج المنسحبة هربا نحو الغرب .

وتقدم إلى الحشد عند مفترق طريقين ثلة من القرويين قادمين من جهة أخرى .

ويسبقهم اثنان من رجال الخفر والبندقية على الكتف وهما يدفعان أمامهما رجلين يرتديان ملابس تستحق إلى حد كبير وصفها بأنها رثة .. معطفاهما الضيقان عليهما ولهما أكمام تقصر عن أذرعتهما ، ومع ذلك فيبدو عليهما أنهما غير مستاءين من الوضع المهين الذى رآهما الناس عليه..

وحين لحظهما الرجل اللابس قلنسوة فرو الأستراخان والمعطف ذى

الياقة من فرو القندس ، بدت عليه علامات الجد والقسوة ، وتلبث مكانه ينتظر أن يسوق الخفران هذين الرجلين إلى موطىء قدميه .

هذا الإذلال هو قصده الذى يريد من الناس أن تفهمه .

كان معتليا لربوة ، فوقف الخفيران أسفل منه قليلا ، وكانت الريح قد هدأت وبسطت أشعة الشمس مرحها الحلو البريء ، فوق الأرض ، فلم يعد أحد يشغل باله بعذاب العاصفة وعسفها .

وثار فضول فيكتوريا وغيورغيتا – شأنهما شأن الجميع – لغرابة صورة قدوم هذين الرجلين ، وسألت الأم بلهفة رجلا من أهل الجبل :

– ترى أى محظور ارتكبه هذان الرجلان ؟

– لا أدرى ، فسيجرى استجوابهما وسنعلم .

– وهذا الموظف شديد القصر والسمرة ، هل تعرف من هو ؟

– هذا رجل مهم ، إنه وكيل مأمور المركز .

– وكل هؤلاء الناس المحيطين به .. لماذا ؟

– لأنه دعا إلى عقد اجتماع فى بيت العمدة ليذيع على الأهالى تعليمات الحكومة ، إذ بعد بضعة أيام سيكون مطلوبا منهم انتخاب نائب جديد للبرلمان ..

لا علم لفيكتوريا بكل هذه المسائل ، إن أكبر اهتمامها منصرف إلى الرجلين فى الملابس الرثة .

نهضت من السرج مرتكزة بقدميها على المهمازين حتى تنال رؤية أفضل، وكان وكيل المأمور يستجوب الرجلين بلهجة قاسية ، صوته عال وكلماته تنطلق بالرصاص .

سأل الخفيرين :

– من همها هذان الرجلان ؟

أجابه أحد الخفيرين:

– ضبطناهما فى الحانة يعرضان على روادها لعبة قمار غريبة ، فرشان غطاء من المشمع عليه رسم مربعات مختلفة الألوان ولكل مربع رقم ويستدرجان القرويين إلى وضع نقود على المربع الذى يختارونه ، ثم يرمى كل واحد منهم بالنرد فإذا جاء برقم يطابق الرقم الذى راهن عليه دفعا له ربحه . أما إذا لم يخرج هذا الرقم فإنهم يلمون نقوده المرصوصة ويضعانها فى جيوبهما .

صرخ إليهما وكيل المأمور :

– أهذا هو الضرع الذى عرفتما كيف تحلبانه ؟

اندفع أطول الرجلين يجيبه محتجا مكثرا من الإشارة والتلويح بيديه ، على حين ظل الثانى صامتا منكسرا يرفع نظراته ويخفضها :

– يا سيدى وكيل المأمور .

ألتمس منك أن تتكرم بالاستماع إلى كلامى .. من فضلك وإحسانك ..

فسترى أن اللعبة ليس فيها غش أو احتيال .. وإنما تعتمد على الحظ .

يا سيدى وكيل المأمور . إنى أعرفك حق المعرفة ، أنت السيد أناستاس بالميز وكيل مأمور المركز . أنت رجل عادل . هذه شهادة كل الناس .

فإذا كنا نكسب من هذه اللعبة فى بعض الأحيان فأنت تعلم أننا لا نسلم أبدا من الخسارة . بدليل أننا خسرنا فعلا فى بعض الأحيان ، كما حدث لنا فى قرية هانغو.. هذه هى شغلتنا ، مثل أية شغلة أخرى ؟

***

هاهو السيد أناستاس بالميز وكيل مأمور المركز قد شد من قامته وعدل ظهره فصوبت قلنسوته المخروطة قمتها المدببة نحو السماء ، ورد عليهما

بلهجة فيها دهاء ومكر خبيث :

- عجبا .. كنتما أيضا فى قرية هانغو ؟ تسرحان على حل شعركما وأنا هنا مغروز أجاهد فى تجميع الأهالى منشغلا برعاية مصالحهم ، لا صنعة لكما غير مد حبائل لاصطياد الناس غشا وخداعا ..

- إننا أناس غلابة .. مساكين .

لا لنا ولا علينا .

فيا سيدى وكيل المأمور ، هيهات أن نتصور أن إنسانا يبلغ به الحمق أن يفعل ما تنسبه إلينا .

إننا لا نغش أبدا ، ولعبنا هو مع رجال بالغين عيونهم مفتحة ، ولا تنطلى عليهم حيلة ، نحن نشرح لهم قواعد اللعبة ولكن لا نملك إرغامهم على المقامرة .

منهم من تروق له اللعبة فيضع بمنتهى طيب الخاطر نقوده على رقم .

فهل نستطيع منعه بالقوة والغضب ؟

- كلام فارغ .

أنا أعرف من أى طينة أنتما .. فالأفضل أن تشرحا لى قواعد هذه اللعبة.

- هى لعبة النرد ، ياسيدى وكيل المأمور ، هناك رقم يكسب ورقم يخسر، فإذا راهن رجل على رقم يكسب، دفعنا له سبعة أمثال المبلغ الذى قامر به أيا كان .

- شىء عظيم ، إذن لو كان بين الناس هنا من كسب بهذه اللعبة ، فليرفع إصبعه ، فهأنذا أرى أن لا أحد قد رفع إصبعه إرضاء لصاحب المهنة الشريفة الواقف أمامى يدافع عن نفسه بفصاحة .

والآن . أرجو ممن خسر أن يرفع أصبعه !! إلى هذا الحد كثر عدد الخاسرين ؟

إن نظرى يعود لى قائلا أنكم جميعا بلا استثناء من الخاسرين .

واندفع القرويون يضحكون ويهزون أذرعتهم . إنهم مصممون على أن ينالوا بهذا المرح مقابلا ولو قليلا لنقودهم التى ضاعت عليهم .

زادت علامات القسوة على وجه وكيل المأمور وقال لهما :

- من فضلكما يا صاحبى الذمة الشريفة ، أريد أن يرينى كل منكما بطاقته الشخصية ، من أنتما ، ومن أين جئتما ؟

قدم إليه أحد الخفيرين تقريرا شفهيا حسب الأصول ، متكلما باحترام شديد:

- لى الشرف ياسيدى وكيل المأمور أن أحيطكم علما بأنى استجوبت هذين الرجلين فى هذا الخصوص فتبين لى أنهما لا يحملان بطاقة تحقيق الشخصية .

من أنتما ؟ ومن أين جئتما ؟

- نحن من مدينة جالاتزى ، اسمى سبيرو غورغيتو واسم رفيقى أيناكولاى .

- تقولان أنكما من جالاتزى ، إذن فأنتما تعرفان أهل الجبل لأنكما تريانهم هناك نازلين إليها فوق النهر بأطواقهم المحملة بالأشجار المقطوعة .. إلى هذا الحد بلغ بكما الشوق لرؤيتهم حتى جئتما هنا لمقابلتهم ؟

أريد أن أرى الآن الترخيص الممنوح لكما لمزاولة القمار ؟

- ليس معنا ترخيص .

صرخ السيد وكيل المأمور، وقد شد من قامته فبدا كأنه طويل جدا، قائلا

للخفيرين .

– عليكما باقتياد هذين الهمامين من نقطة بوليس إلى نقطة بوليس حتى تبلغا بهما المركز تحت الحراسة ، ولكن لابد لهما أولا من رد النقود المسلوبة من هؤلاء القرويين وستسلم إلى حضرة العمدة مع محضر التحقيق .

ارتفع صوت من وسط الحشد يسأل :

– وماذا سيفعل حضرة العمدة بهذه النقود؟

– سيرد منها لكل منكم المبلغ الذى خسره ..

– إن شاء الله يعرف من هم الخاسرون وكم خسر كل منهم .

تعالت الضحكات من جديد ، استمتعت فيكتوريا بهذا المشهد ، وودت لو أنها جربت حظها وقامت بالمراهنة بمبلغ لتكسب سبعة أمثاله ، وأحست أن ابنها غيورغيتا يرثى مثلها لهذين الرجلين من مدينة جالاتزى يسيران مقبوضا عليهما بين خفيرين شاكى السلاح .

وتشاور القرويون ماذا يفعلون بالنقود إذا ردت إليهم ، فانقسم الرأى .. اقترح بعضهم شراء برميل من النبيذ واقترح آخرون دفعها إعانة للكنيسة .

ترك وكيل المأمور مكانه وتقدم نحو فيكتوريا وغيورغيتا ، ورغم قامته الضئيلة فإن بنت الجبل لم تجسر نظرتها على مقابلة نظرته ، بل نسيت أيضا أن تتحول إلى جانب الطريق .

سألهما :

– وأنتما ؟ ماذا تفعلان هنا ؟

أجابته بخوف .

– أنا أيضا ليس معى بطاقة تحقيق الشخصية .

– لا أسألك عن بطاقتك ولست فى حاجة إليها . إذ مما لا شك فيه إنك

زوجة لراع مالك لقطعان من قرية تاركاو .

أجابته وهى تبتسم :

– صدقت يا سيدى .

– وهذا الفتى هل هو ابنك ؟

– نعم ، هو ابنى .

– إذن لماذا هذا التسكع ؟ اركبى جوادك من جديد وسارعى بالعودة إلى بيتك ، فلا شك أن زوجك قلق لغيابك .

– لم أكن فى طريقى إلى بيتى يا سيدى ، بل أنا ذاهبة إلى مدينة دورنا .

– فهمت ، سفرك لقبض ثمن بضاعة لكم من مشتر لها فى دورنا ، والربيع قادم وستكون لكم حاجة إلى النقود ، هيا ، مع السلامة .

رأت بنت الجبل من واجبها أن تضيف :

– أنا زوجة نيقيفور ليبان.

هز وكيل المأمور كتفيه ، إنه لا يعرف من هو نيقيفور ليبان ، ولا يعرفه أيضا أحد من القرويين الذين اقتربوا منهم ليستمعوا إلى الحديث وكل منهم يريد أن ينال منهم نصيب الأسد .

أحست فيكتوريا كم هى بعيدة عن قريتها ، كم هى قاسية غربتها ، ولكن ها هى ذى نعمة قد هبطت عليها ، باعلان السيد وكيل المأمور أنها مسافرة للبحث عن تحصيل نقود .

إذن فجيبها فارغ ، وهذا ما ينبغى أن يتناقله الجميع فينقطع اغراء اللصوص بالسطو عليها ، وقالت له :

– إننى معجبة بك يا سيدى وكيل المأمور ، لأنك تفهم كل شىء ولا تخفى

عنك خافية .

أجابها السيد أناستاس باليز بلهجة تنم عن الاغتباط :

– ليس هذا بمستغرب ، فقد عشت طول عمرى مع أهل الجبل ، إننى أعرفهم مثلما أعرف زوجتى .

لمحت فيكتوريا خلف وكيل المأمور رجلا من أهل الجبل يتكتم ضحكته ، وبعد أن انصرف السيد أناستاس باليز منتفشا كالديك سمعت همسا ما لبثت أن ضحكت له أيضا :

– وهل هناك رجل يعرف زوجته ؟

إنه بهذا القياس لا يعرف عنا أمورا كثيرة .. هبت فجأة زوبعة ثلجية جديدة ، فلفت الواقفين بقماط من ندف غليظة مبللة ..

وتفرق الجمع وهم يتضاحكون ، واحتمت فيكتوريا وابنها ومعهما الجوادان فى أول مخبأ صادفاه ، وكان مخزنا مليئا بالدخان ، اعتزما البقاء به ريثما تنتهى العاصفة الجديدة ..

لكن عسفها استطال ولم تنته سريعا هذه المرة ، كأن الشمس قد اختفت وهاجرته إلى عالم آخر .

وهبط الثلج بعنف كثيفا غزيرا فى أفق غشاه لون الرماد ، وقال غيورغيتا :

– كان الأمل أن نقدر على متابعة سفرنا فإذا بنا نواجه ضرورة التوقف والبحث عن فندق ننزل فيه .

– سنبحث وسنجد وعسى يعود الجو سريعا إلى الصفاء ، ألا تعلم أن العجوز دوكيا تنفض معاطفها فى هذا الموسم ثم تجففها فى الشمس واحدا بعد آخر .

دوكيا شخصية أسطورية ترتدى تسعة معاطف ترمز إلى الأيام التسعة التى تسبق اعتدال الربيع ..

انطلق إليها سؤال بحدة وانفعال :

– ومن تكون دوكيا هذه ؟

والسائل رجل كان قد دخل المخزن للاحتماء به أيضا من العاصفة ، يرتدى معطفا واسعا من الفرو ملبداً بالصوف ، وبيدين مسودتين ناتئتى العظام خلع قلنسوته من الفرو ونفض عنها الثلج بقوة .

إنه رجل بادى الشيخوخة سرى لون الرماد فى فوديه ولمته وتهوش شعر الحاجبين ، يتنفس بشخير عال ، ولحظت فيكتوريا على الفور أنه مخمور. انحنى الغاضب هامته قليلا ، من قبل أن يفرد قامته وينتصب أمامها بطول جسده ، شأن المستفسر الغاضب والمستخف بمحدثه معا ، سألها من جديد فى زمجرة:

– من تكون هذه العجوز دوكيا التى تتحدثان عنها ؟

قال له غيورغيتا :

– العجوز دوكيا يا عم...

– ولكن أيهما تقصد ؟

هل هى دوكيا ساكنة الجبل ، أم دوكيا صاحبة البيت؟.. تدخلت فيكتوريا قائلة :

– مهلا شيخنا ، لا تغضب ، لا أحد يعرف من هى دوكيا العجوز التى تسأل عنها ، ولم يرها أحد .

– أقول لك إن التى أعنيها اسمها دوكيا .

بارك الله لها فى اسمها .

حلال عليها ، ولكن أنتما ، ماذا تفعلان هنا، تدخلان المخزن اقتحاما ، وسعكما جوادان أيضا ، لا تباليان بشيء ، هل هى الأصول ، لا إذن ولا دستور ، كان لابد من الاستئذان أو مناداة زوجتى من تحت البيت لتخرج إليكما .

- لا تغضب ، سنرحل فورا ، ذلك أننا قادمان من رحلة طويلة .

- لا ليست هذه الأصول يا جماعة ، أنت يا ولية قادمة من تاركاو ، قاصدة دورنا ، مسافة طويلة ، والجوادان فوق ذلك فى غاية التعب ، وكيف لا أغضب ، كنت أنتظر منكما بدلا من اقتحام المخزن أن تدقا على الباب وتناديا زوجتى فتلبى طلبكما ثم تفتح الإصطبل وتسوق إليه جواديكما وتقدم لهما العلف ، ثم تحتفى بكما فتطلب منكما إيداع أمتعتكما فى البيت والدخول إليه لتستريحا كما تشاءان. فإذا جئت قدمت لكما خبزا ولو بلا أدام وكوبا من الماء ، فلا أحد يستطيع أن يعطى أكثر مما يملك. إننى لا أقبل إهانتكما لى بأن تكون استضافتى لكما فى المخزن لا فى البيت ، وفوق ذلك فإن كل حافر فى جوادكما محتاج إلى حدوة جديدة . وأنا حداد .

واشتغل أيضا بصنع الحد وتركيبها ، ولكنى لا أستطيع تجهيز جوادكما قبل صباح الغد ، فاليوم عطلة ، إنه يوم الأحد .

كنت فى الكنيسة ثم عرجت قليلا على الحانة ، ولكن أين هى الست دوكيا.

وصرخ منادياً :

- يا دوكيا .. يا دوكيا ..

وأخذ يقرع الباب بقبضتى يديه مرارا:

- هذا هو الغضب وإلا فلا .. ما باليد حيلة .

أدركت فيكتوريا وابنها سبب مثار النقاش معه أول الأمر .. إن زوجته تسمى هى الأخرى دوكيا ..

أقبلت زوجته وسألته :

- لماذا تدق الباب هكذا يا رجل؟

- لكى تفتحى الباب ، ألا تفهمين .

- ومتى كان هذا الباب مغلقا؟ ما على الداخل إلا أن يدفعه فينفتح ، أرى أنك عدت ومعك غرباء .

- وهل هذا يضايقك ؟

- ولماذا تحسبنى أتضايق ؟ إننى أدعوهما عن طيب خاطر للنزول فى بيتنا .

- سأضع لجواديكما حدى صباح الغد .

- طيب هذا عن الغد ، أما الآن فادخلهما الدار ، لا تتركهما بلا مأوى ، رد الباب وسق الجوادين إلى الإصطبل واحمل أمتعتهما على حين أطبخ أنا لكم العصيدة .

- حاضر .. سأفعل كل هذا ، ولكن ليكن فى علمك أننى فى شدة الغضب .

التفتت إليه فيكتوريا وقالت له بصوت رقيق :

- يا أبتاه .. ما اسمك ؟

- اسمى بريكوب .

- يا أبتاه بريكوب .. كفى غضبا ودعنى أقول لك إن زوجتك كانت بلا ريب جميلة جدا أيام شبابها .

- معك حق ، كانت جميلة ، ولكنها أرتنى النجوم فى عز الظهر ، لهذا

فإنى لا أنفك غاضبا ، ولا ينقضى غضبى سريعا ، ثم إننى لا أحب معارضة كلامى، هيا إلى البيت ، تاكلان وتشربان معنا ، ومن غد أجهز لكما الجوادين ..

ترى أى خاطر دعا فيكتوريا ، وهى تصف مع ابنها أمتعتهما أمام المدفأة أن تعتزم ملاحقة مضيفهما بمزيد من الاسئلة ؟

* * *

كان الشيخ قد خلع معطفه وحمل مضيفيه على التخفف من ملابسهما الثقيلة وأجلسهما على مقعدين واطئين حول المدفأة ، وصب لهما نبيذاً فى كأسين من زجاج أخضر ..

- ألم يسبق لك يا أبتاه بريكوب صنع حدى لجياد قادمة من تاركاو ؟

- نعم .. حدث هذا مرارا .

- ألم يقدم عليك فى الخريف الماضى رجل على جواد أسود يخالطه بياض .

- نعم جاءنى جواد كهذا .

- هل تتذكر كيف كان ملبسه ؟

- نعم ، أتذكر ، كان يضع على رأسه قلنسوة من فرو رمادى غامق ، ويرتدى معطفا ثقيلا من فرو لا يتجاوز ركبتيه ، وحذاء عاليا .

- هذا الرجل يا أبتاه زوجى ..

- آه .. أهو زوجك؟ لا جدال أنه رجل شهم ، لكن الذى لم يعجبنى منه أنه أصر على متابعة السفر رغم قدوم الليل، كنت أود أن أقرع كأسى بكأسه كما أفعل معكما الآن ، ليست هذه خلقتى مع القرويين ، لكننى أحتفظ بها للغرباء المارين ، فإنى أدرك متاعبهم وعناءهم ..

إننى أستقبلهم بكأس من النبيذ وبكلمة حلوة طيبة ولكن هذا الرجل قال لا يهاب السفر بالليل ، وإنه يحب السير تحت ضوء القمر ويزعم أنه يهزأ بقطاع الطرق ، فهو مسلح بغدارة مضمونة ، أحسن حشوها كما قال ..

وهكذا لم يشأ المبيت ومضى ..

وبعد قليل سمعت خشخشة صدفات كان يضعها فى جيبه ، فعلمت أن هذه هى وسيلة تسليته وهو مسافر وحده فى طريق خال ..

تمتمت بنت الجبل :

- هو زوجى بعينه ..

وقبل أن ترفع الكأس إلى شفتيها صبت منه بخشوع بضع قطرات على الأرض .. استدعاء وتكريما لذكرى نيقيفور ..

* * *

الفصل العاشر

ما أعجب هؤلاء الناس .

أهل الجبل الذين يعيشون تحت ظلال شجر السرو . لطبعهم حدة وتقلب، شأن سيولهم . شأن طقسهم .

يصمدون للآلام صمودهم لقسوة الشتاء . بقلوب لاهية يتقبلون المرح ويتقبلون هجير الصيف القائظ فى ربوعهم ، يحبون الحب والخمر وعادات لهم قديمة قدم الزمان ، لهم ريبة بالغرباء وسكان السهول ، يتحصنون فى بيوتهم كالضوارى فى كهوفها ، وقلوبهم فوق ذلك وهاجة كالشمس ، تفيض بالأناشيد والوداد أغلب الوقت ، هكذا كان نيقيفور ليبان الذى انقطع الآن دابره .

ولم يحدث لفيكتوريا أن صادفت فى طريقها أحدا من أهل الجبل إلا ولقيها بكرم وحفاوة كما فعل الشيخ بريكوب ، وفى قرية بوركا صادفت حفلة تعميد ، فأقبل عليها أهل هذه القرية الجبلية يمسكون بلجام الجوادين ويجبرونهما على الدخول إلى فناء بيت مزارع . كانت وجوههم قد علتها حمرة الشراب ، فلابد للعابرين من أن يشربا معهم ، أن يأكلا معهم . وهكذا لم تجد فيكتوريا مفرا من أن تستجيب لهم ، ودخلت عند الأم النفساء ودست تحت وسادتها رمزا للتعميد، قرطاسا به قطع من السكر ، وألصقت بجبين الطفل ورقة نقد من فئة عشرين لاي، ثم رفعت كأسها لتشرب فى صحة الإشبينين ، ولثمت يد القس ، وشرحت لكل من يريد الإنصات أنها فى ضائقة مالية شديدة ، وأنها منذ أيام طويلة تتبع مدينا لها فى دورنا دون أن تفلح فى قبض حقها منه ، وأنها أنفقت آخر نقودها فى سفرها هذا الشتاء ، بل أنها لا تدرى هل تستطيع الوصول ولو إلى قرية بروشتنى ، فمن حسن حظها أن لها بها معارف لا يرفضون إقراضها نفقة مواصلة السفر إلى أن تبلغ غايتها .

وأعرب القس عن دهشته كيف يكون فى الدنيا أناس بلا خلق أو ضمير إلى هذا الحد ، وأضاف وهو يتنهد :

– من المؤلم والمحزّن أن أقول هذا ، لا مفر من الاعتراف بأننا نجد أيضا بيننا نحن أهل الجبل أفرادا لهم قلوب كالحجارة أو أشد قسوة ، لا يتورعون عن اغتصاب حقوق الناس ونهب مال التجار ، وهيهات أن ينضح لهم بئر .

نعم. نجد بيننا من يشتط ضراوة جشعة فيصبح كالضبع الناهش للقبور.

نعم . هذه نقمة من الله عليهم وإن أخفوا خبث طويتهم بكلام حلو مزوق من لسان معسول ، ومنهم من يصبح قاطع طريق ، يحمل بلطة ويهوى بها على المسافرين المساكين ويستولى على أموالهم .

واستطرد القس وهو يضحك :

– فأهل الجبل إما أناس مثلنا ، عامرة قلوبهم بأناشيد الحب ، لهم الجنة ونعيمها ، وإما أشرار ، غيلان ، سيمضون واليد باليد إلى الشيطان فيقذف بهم إلى الجحيم ، يسألون عن يمين وعن يسار من أين النجاة ولا مجيب .

هكذا نحن أهل الجبل ، إما تمام الطيبة ، وإما تمام الشر ، ولا وسط .

ومع أن فيكتوريا كانت معجبة فى سرها بدهائها حين زعمت لهم أنها مفلسة ، فقد أجابت القس :

– واحسرتاه يا أبتاه ، إن غرمائى هم من الصنف الذى مآله إلى الجحيم .

وفى قرية الصلبان صادفت حفلة زفاف ، الزحافات المزدحمة بالضيوف تمرق بسرعة فوق سطح نهر بسترينا المتجمد ، والعروس والفتيات المختارات لشرف ملازمتها يضعن جميعا على رءوسهن تيجانا من الزهور ، والنساء المتزوجات يرتدين ملابس مطرزة ويلتحفن بالفراء ، والرجال يطلقون

رصاص من مسدساتهم فوق أشجار السرو كأنما لتخويف الشتاء فيولى مدبرا بسرعة .

لم يكن الجمع يلحظ فيكتوريا وابنها فوق الطريق المردوم ، حتى اندفعت إليهما زحافتان ركابهما من الفتيان المختارين لشرف ملازمة العريس ، وقد تطايرت بفعل الريح فوق أذان الجياد فى الزحافتين كسوة من قماش أبيض، وقدم الفتيان إليهما زمزمية ملأى بالنبيذ ، وشهروا فى وجهيهما مسدساتهم لا خيار لهما . إما أن يشربا نخب العروس ست الحسن والجمال ، ونخب العريس ألطف الأمراء ، وإما أن يستعدا للهلاك فورا .

ومال موكب الحفلة أيضا إلى الطريق ، رفعت فيكتوريا الزمزمية وهتفت تحية جميلة للعروس ، علا البشر وجه فيكتوريا . وانحلت عقدة لسانها ولكن كان من واجبها أن تبدى لهم سحنة مغبرة لأنها تلاحق فى دورنا مدينا تتهرب منها .

وقالت لهم :

– إننا من قرية تاركاو ، وزوجى اسمه نيقيفور ليبان ، لا شك أنه عبر الطريق هنا مرارا عديدة ، ولعله شرب معكم نخب عروسين من أهلكم ، لقد صادفت فى سفرى حفلة تعميد ، ومن حسن حظى أنى أصادف الآن حفلة زفاف ، وكان ينبغى لهذا الترتيب أن ينعكس ، فأصادف أولا حفلة زفاف ثم أصادف بعدها حفلة تعميد ولكن الأمور لا تسير دائما كما نريد ، ولا بأس ، مادامت هذه هى إرادة الله .

وبقى لى شىء أدهشنى منكم ، فقد مر بنا فى قريتنا المنادى العمومى ، ونفخ فى بوقه وأعلن أن قانونا جديدا قد صدر بتعديل التقويم فإذا بنا نعلم أننا استيقظنا وقد شخنا ثلاثة عشر يوما ، فنحن الآن وفقا للتقويم الجديد فى أيام الصوم الكبير ، وأنتم تحتفلون اليوم بزفاف كأنكم فى أيام الدسم ..

نهض إشبين العريس وإشبين العروسة فى زحافيتهما وصرخا إليها :

– يا ست يا بنت قرية تاركاو . أنت تجهلين ولا ريب أننا أناس لانستسلم وأننا نريد أن لا يتقدم بنا العمر بل يتأخر بنا ثلاث عشرة ليلة ، نحن نتمسك بالتقويم القديم قدمّ الزمان . التقويم الذى شرعه الرب لآدم ، لا نقبل غيره ، ونجبر القس سواء رضى أو لم يرض أن يحترم شريعة الحق ، ينبغى له أن يقول ما نقوله ، وإذا كان عندنا أناس يريدون الاقتداء بالألمان أو باليهود فهذا شأنهم وليس شأننا ، مآلهم فى العالم الآخر هو الجحيم.

أجابته بنت الجبل :

– اهدأوا ولا تغضبوا ، إن أهل قريتى تاركاو يحترمون أيضا التقويم القديم ، دعونى من هذا وقولوا لى هل رأى واحد منكم رجلا من قريتنا يلبس قلنسوة رمادية من الفرو ويركب جوادا أسود خالطه البياض .

لم تجد بينهم رجالاً يشهد بأنه رأى مثل هذا الرجل ولكنها وجدت بين النسوة امرأة قالت أنه يخيل إليها أنها تذكره ، ثم عدلت وقالت إنها لم تره .

وتابع ركب الزفاف طريقه على سطح نهر بستريا وقد تعالت الضحكات بمرح صاخب .

وسار الجواد بفيكتوريا على مهل ، مستغرقة فى الفكر ونظرتها داكنة ساهمة ، تعمد أحيانا إلى الإفصاح لابنها باقتضاب عن بعض ما يجول فى خاطرها ، حقا أنها غير مستاءة من هذا التعطل المتكرر فمن الخير مخالطة الناس ، وبالأخص إذا أبدوا حفاوتهم بها ؟

فإنها حينئذ تستخدم عينها فى الملاحظة وأذنها فى الانصات لكل ما يقال حولها ، بل إنها حينئذ تتلقى دروسا ترشدها كيف تتصرف وتأخذ حذرها إذا مرت من بعد بأقوام جدد عليها .

حقا أن اللقاء بأصدقاء لها يتعارفون كلهم عيانا بياناً أفضل من اللقاء فى مكان مجهول بأناس مجهولين لها ، لعلهم من الأعداء الاشرار ، فعندها أن الاجتماع بالناس حالات ، حالة تجد فيها نفسها مضيعة ، غفلا ، وسط

حمة مختلطة ، إنها حينئذ تستطيع استخدام عينها على راحتها فى للاحظة .. فكل مخلوق فى الزحمة كأنه منفرد بنفسه ، لا رفيق له .

وحالة تجد فيها نفسها بين عدد قليل من الناس ، حينئذ ترشقها النظرات كأنما تريد أن تخترقها ..

لم يفهم غيورغيتا هذا التصنيف لأنواع الالتقاء بالناس ، ولكنه قال فى سره :

– ربما يكون هذا هو الحق كما تقول أمى ..

، أغلب الاحتمال عندها الآن أن نيقيفور ليبان قد مر بهذا الموقع سالما وتابع سفره .

وقالت فيكتوريا :

– ربما قدرنا نحن أيضا على متابعة السفر فى أمن حتى نبلغ مراعى المرتفعات وسفرى كيف هى ربوع دورنا ، وكيف هو جبل راراو .

وهذا هو ما جرى ..

تابعا السفر ، ولم يخطئا العثور على فندق ، كلما دعت الحاجة إليه ، وبلغا بقرب ربوع دورنا ، فرفعت فيكتوريا رأسها وتشممت الهواء كأنها تتشمم عطرا ذكيا ، سرها دفء النسيم وهو يهب من الغرب ، سينتصر على الثلوج ويذيبها قليلا قليلا ، ولكن شعور فيكتوريا بالطبيعة حولها مشلولا ، فليس من شاغل إلا هذه النار الخفية فى قلبها .

تلتهمها وتصيبها بلهثان.

– وأحست أن الأرض التى تجتازها الآن هى المسرح الذى سيتكشف عليه قدرها الجديد .

وربوع دورنا ما هى إلا جداول هادرة وربى تكسوها أشجار السرو وحقول خضر ، تتناثر فيها القرى وبعدد الأسر .. عدد النجوع ..

أما رجالها فيالهم من رجال ، لهم وسامة وكرم ، أعجبت بهم فيكتوريا

حين راقبت حفلاتهم الشعبية ورقصهم فيها بحماس واندفاع ، كأنها آخر وداع للدنيا قبل أن تقوم القيامة بعد ساعات قليلة ..

لم تجد فى دورنا هذه لا سوقا ولا بيعاً أو شراء للنعاج ، ولكن الناس قالوا لها إن سوقا كبيرة أقيمت فى الخريف الماضى فى جهة فاترا ..

أحنت فيكتوريا رأسها وسرحت لها نظرة تعبر عن إعياء شديد .

تنهدت وقالت لهم :

- ما العمل يا ترى ؟ أفينبغى أن أبلغ فاترا حتى أعثر على مدينتى؟

ثم قالت لابنها :

- هيا يا غيورغيتا . كل وأنت راكب ، فلا وقت عندنا للتعطل ، وسنطعم الجوادين بالشعير حينما نصل ، إنى لم أسترح منذ أمس ، لم أنم ولا أحس بجوع أو عطش .

يبدو لى أننى أقترب من اللحظة التى سيصدر فيها الرب حكمه ، وينبغى لى أن أسجد له .

* * *

وسارا قاصدين فارنا ..

لفحتهما شمس الظهيرة ببهاء لمعتها ، وذابت الثلوج عن الطريق درجة بعد درجة ، وتحت أكوام الثلوج همس خرير الجداول ، ومع ذلك فقد كان يظن من صدى وقع حوافر الجوادين على الثلج المتجمد أنهما يسيران فوق أرض من خشب ، وانقشع ضباب الشتاء وتكومت طبقاته فى بطون الوادى من بعيد .. وبدا للعين صعود نفثها وبخارها نحو السماء..

صاحبها منذ قليل رجل طويل ، سائر على قدميه ، مخلع المشية ، يحمل صديريا من الفرو يرميه على كتفه ، يلبس حذاء من جلد رقيق ، ويمسك بهراوة قصيرة لا ينفك يرسم بها هنا وهناك خطوط متشابكة فوق الثلج ، من قبيل التسلية ..

كان يسير بخفة وراء الجوادين .. ثم أسرع الخطى حتى صار محاذيا لكتوريا فسألها من أين تاتى ؟ وسألها بالأخص أين تنوى التريث ؟

اجابته :

- إنى قادمة من بعيد يا أخى ، ولن أتريث حتى أبلغ فاترا .

- لك فيها مطالب ولا ريب .

- نعم ، مطلبى رجل مدين لى .

- وأنت .. ألا تسالينني من أين أنا قادم وإلى أين أنا ذاهب ؟

- إن كان هذا يسرك فلا مانع أن أسالك ..

كان رفيقهما مبسوطا رائق البال ، يتكتم ضحكة تحت خصلات شعره ، وقد من قامته كأنه يشد خيطا من بكرة حتى بلغ فمه أذن فيكتوريا ، وهمس لها بكلام يخفيه عن سمع ابنها غيورغيتا ..

ضربت بنت الجبل جوادها من فورها بطرف اللجام وتجاوز بسرعة الرجل السائر على قدميه ثم أدارت وجهها إلى غيورغيتا وهتفت له بامره :

- أخرج البلطة واضربه .

صوتها الحاد المملوء بالحنق قذف الفزع إلى قلب الرجل الغريب وقلب وجهها على السواء ، أمسك غيورغيتا البلطة بيده على الفور ، قفز الغريب وانحدر إلى درب جانبى متعرج واختفى وراء ربوة .

كان يضحك فى سره مندهشا لما رآه ويقول :

- أى امرأة هذه التى انشقت عنها الأرض ؟ كأنها قادمة من عالم آخر ، فالنساء هنا على عكسها ، لطيفات ، قد يكون لهن فى بعض الأحوال ردود قاطعة ، وإنما بحد اللسان لا بحد البلطة ..

أما فيكتوريا فالعالم الوحيد الذى تنتمى إليه هو عالم الأرض التى تغرز

فيها قدميها وتعرف كيف تخطو بهما عليها وعينيها مفتجلة .

تابعت الرجل بنظرة ملؤها الحقد والاشمئزاز ، ثم لكزت جوادها فسار بها جنبا ..

لم يفت فيكتوريا وهى تلتفت إلى الشرق أن تتعرف على صخور العذراء وجبل راراو دون يلفت أحد نظرها إليها أو يسميها لها .

أنا عرفتها من أوصافها التى سمعتها مرارا .. فإلى ربوعها المنعزلة فى صقيعها كان الرعاة بلا شك ينزلون مع قطعانهم لمقابلة نيقيفور ليبان ..

دخلا قرية فارتا ورأت فيكتوريا تاجرا يصف فى العراء بضاعته من جلود مدبوغة ومصنوعات حريرية .

سألته :

- أين شارع السوق ؟

فأشار لها بمد يده إلى اليمين ، فساقت جوادها إلى تلك الناحية وهى مغبرة النظرة متوترة الأعصاب ..

وجدا فى شارع السوق فندقا نزلا فيه ، أودعا أمتعتهما فى حجرة صغيرة ، مطلبهما هو الاطمئنان على هذه الأمتعة لا التماس الراحة أو القيلولة ، فلم يتريثا بل خرجا على الفور وذهبا بناء على نصيحة صاحب الفندق إلى مكتب حكومى يعمل فيه موظف هرم ضئيل يلبس كاسكته، فهمت فيكتوريا من لهجته أنه ينتمى إلى عرق ألمانى .

ورفع الموظف يده إلى الكاسكيت ، تحية لها وقال :

- من فضلك ، ما هى حاجتك ، أنا تحت أمرك ..

أجابته بنت الجبل وقد اضطربت نظرتها ووجف قلبها :

- أرجوك يا سيدى أن تتفضل وتبحث لنا فى سجلاتك عن بيانات تتعلق ببيع نعاج فى الخريف الماضى .

- البحث سهل ولكنه يكلفك كثيرا ..

- سندفع الرسم المقرر وقد قال لى التاجر الذى أرشدنى إليك أننى لابد أن أقدم لك أيضا ثمن قدح كبير من البيرة ..

- إذا كان قد قال لك ذلك فلا بأس ، ولكن ينبغى أن أبحث أولا عن البيانات ، فى أى شهر تمت الصفقة ؟

- فى شهر نوفمبر .

- فعلا .. هاتذا أجد أمامى فى بيانات شهر نوفمبر أن غيورغ أو أماكى فاسيلى أو رساكى قد باعا يوم أحد ثلثمائة نعجة لنيقيفور ليبان .

هتفت فيكتوريا :

- نعم . هذا هو ما كنت أريد معرفته ..

لهثت أنفاسها ، واتسع إنسان عينيها .. ومدتهما تتأمل الموظف ، سألها باهتمام :

- من فضلك ، ماذا بك؟

- لا شىء سوى أن نيقيفور ليبان هذا هو زوجى .

- طبعا ، ولماذا كل هذا الانزعاج ؟

أزاح ورقة النقد التى كانت قد وضعتها أمامه ليشترى بها البيرة رافضا تناولها وقال :

- لست مكلفة بدفعها لى ، فقد شربت البيرة اليوم على حساب أناس آخرين ، وهذا يكفى ، الصفقة التى تتحدثين عنها كانت أكبر صفقة تمت فى الموسم ، فقد جاء زوجك هنا وصافح البائعين وأخرج نقوده من جيبه. عدها وطلب الإيصال، وجاء رجال يطلبون شراء نعاج ولكن النعاج كانت قد بيعت كلها.. ثم تقدم إلى زوجك اثنان من المزارعين وناشداه فى كرب أن يتنازل لهما عن نصيب من الصفقة.. فدعاهما للشرب على حسابه. وقال أنه يرحب بطلبهما متنازلا لهما عن مائة نعجة، فدفعا له الثمن وفوقه علاوة

بسيطة، فدل هذا التجرد من الانانية والطمع أنه رجل شهم.

أعجبت به وتصادقنا..

من فضلك.. قولى لى: لماذا تبكين؟

كانت فيكتوريا تحيط رأسها بكفيها، وانهدت على صندوق وهى تنشج بالبكاء:

- من فضلك، اجلسى على هذا الكرسى.

ولكنها رفضت أن تتحول عن الصندوق.

- من فضلك قولى لى: ماهى الحكاية؟

أفضت إليه بأشجانها وهى تمسح دموعها بكمها من الفرو، وأخذت تتكلم بسرعة:

- بعد هذه الصفقة لم يعد نيقيفور ليبان إلى بيته ولم يبلغنا عنه خبر.

- شىء غير متصور؟

لا.. بل هو متصور.. وهذا هذا هو سبب تطوحى فى السفر إلى هنا لأقف على أثاره.

- هذه مسألة لا أستطيع فهمها.. فلقد حضرت فرز النعاج المائة، ثم سار الجميع مع شلة البائعين، غيورغ.. أداماكى.. فاسيلى، يسوقون الغنم ومعها الحمير والكلاب إلى السهل لتمضية فصل الشتاء، وحين لم يكن يبدو من غبار القطيع إلا سحابة خفيفة على الأفق، رأيت جماعة زوجك يربطون جيادهم ويمضون.

- جماعة زوجى؟ من هم؟

- طبعا زوجك ليبان واثنان من أهل الجبل، ذكرتهما لك من قبل، هما اللذان اشتريا النعاج المائة..

- من هما، من أين كانا قادمين؟

- هذا ما أجهله.

الظاهر أنه كان لهما شغل مع زوجك، وأظن أنهما من معارفه، فقد ضمتهم جلسة مرحة، شربوا معا ودعوا الغجر للعزف على القيثار لهم وتبادلوا العناق، ثم مضوا للالتحاق بقطعانهم، وكنت قد ودعت زوجك وقلت له:

- إلى اللقاء، ستجدنى دائما فى خدمتك.

وأنا أيضا لم أرهم قط بعد ذلك..

سوّى الموظف الهرم شاربه الأشيب بإصبعه ومسح بظهر يده ذقنه الناعمة، ورفع نظراته إلى السقف كأنما يريد أن يشرق ذهنه بفكرة تفض حيرته، وقال وهو يهز رأسه:

- شىء عجيب.. تقولين إن زوجك لم يعد لبيته..

هزت فيكتوريا كتفيها دلالة على حنقها وضجرها من تكرار هذا السؤال..

- لعله فى المشتى مع قطيعه.

هتفت له بضيق:

- إذن لماذا لم يكتب لى.. لماذا لم يصلنى منه خبر؟

أجابها مدافعا عن نفسه وقد مد أمامها يدين مبسوطتين:

- وما أدرانى أنا.. لم يحدث شىء بسبب خطأ منى، وأظن أن زوجك إذا كان لم يصبه سوء لابد عائد إلى بيته، بإرادته وحده، بلا حاجة إلى سائق..

رمته بنظرة ساحقة وقالت له:

- لا أفهم ماذا تعنى بقولك هذا.

أجابها بلهجة مالت إلى الرقة:

- يعنى إذا كان لم يصبه سوء.

فهم غيورغيتا كلام هذا الموظف الهرم وبدا له أن أمه لم تفهمه، ومع ذلك لم يجسر على التدخل ليشرح لها ما فات عليها..

ونظر فجأة من طرف عينيه إلى أمه فإذا به يدرك من رؤيته لها أنها تتصور الآن بجزع كل ما حدث.. بل أنها تعلم ما حدث علم اليقين، وهذا هو سبب مجيئها إلى قرية فاترا.

سألها الموظف الهرم بصوت فيه نغمة احترام وتهيب:

– والآن ماذا ستفعلين؟

أحاطت صدغيها بكفيها وأخذت تترنح بهدوء، وكانت قد أغلقت عينيها ففتحتهما وتلفتت حولها..

ودهش الموظف حين رآها تبتسم.

ترى ما الذى دار بخلدها؟ أجابته:

– سأذهب الآن لأتتبع قطيع زوجى، فقد قلت إنهم نزلوا نياجرا.

– نعم، من فضلك.

– وهل داوموا السير مع السهل فى طريقهم إلى المشتى؟.

– نعم، من فضلك، فقد فهمت أنهم ساروا مع وادى نياجرا.

– أمدنى الله بعون من عنده كى أتمكن من الاهتداء إليهم.

أجابها الموظف الهرم الضئيل:

– نعم، من فضلك.

وحين خلا لنفسه استغرق فى التفكير مندهشا أن يكون بين الناس مثل هذه المرأة العجيبة.

الفصل الحادى عشر

وكرت فيكتوريا عائدة إلى الفندق، فإذا بالطقس يسوء فجأة.

زعابيب رياح وصفير هواء، وانقطع الثلج عن النوبان، وشحب ضوء الشمس فوق ضباب كثيف، سارت فيكتوريا وابنها صامتين.

رياح باردة تدفع فى ظهورهما وندف من الثلج تتطاير فوق رأسيهما، وزاد صمتهما أنهما يجوسان خلال ديار غريبة عليهما.. كانا قد قدما إليها بالأمس وليس لهما بها إلف إلى الآن.

امتطيا من جديد جواديهما وسارا يطلعان ربى ويهبطان إلى أخاديد كلها مكسوة بالثلج، تدق حوافر الجوادين على الأرض بفضل الحدى التى صنعها لهما بريكوب الحداد الهرم.

الطريق خال مهجور، هيهات لواجهات الحانات، وهى تعرض أنواعا من البقسماط حول زجاجات خمر متعدد الألوان، أن تفض ما يجثم على الجو من مسحه الوحشة والكآبة، ولكن مهلا، عما قليل ستسطع الشمس مزهوة بانتصارها، وكانت الطبيعة كلها ترقب، عما قليل ستنحدر السيول حاملة أبناء طيبة، هذا هو التفسير عند فيكتوريا لتقلبات الطبيعة.

وحين بلغا آخر قرية فى ربوع دورنا وجدا فى مداخلها فندقا، كأنه أقيم لينتظرهما، فترجلا وتركا الجوادين جنبا لجنب على الباب، واللجام فوق الظهر والبطن ضامرة خاوية.

نهضت لهما وراء عوارض الاستقبال امرأة يغالبها النعاس وتكتم بكفيها تثاؤبها. طلبت فيكتوريا إبريقا من النبيذ ثم طلبت أيضا قدحا ثالثا، واشتركت معهما فى ثرثرة عن الجو وعن الحصاد، وبغريزة الأنثى لا بحصافة ربة فندق فحسب، رأت المرأة من واجبها رغم نعاسها أن تطرح عليهما الأسئلة المعتادة لتشبع فضولها:

... أين أنتما قادمان؟

- قادمان من قرية "فاترا".

- وإلى أين تذهبان؟.

- ذاهبان إلى الوادى فى هذه الناحية.

ترددت فيكتوريا قليلا ثم قالت لها بلهجة من يستأمنها على سر:

- أبحث عن مدين لى.

- ها، فهمت، طيب.

- الدين باق من صفقة نعاج نزلت إلى المشتى فى الخريف الماضى.

أجابتها بلهجة من لا يعنيه الأمر:

- ها.. فهمت..

- ألم يمر القطيع من هنا؟.

- جائز.

- هى صفقة ثلثمائة من النعاج، وكان أصحاب القطيع يمتطون جيادهم.. هم ثلاثة.. واحد منهم جواده أسود.

- لا أذكر شيئا من هذا القبيل.. ربما مروا وقت غيابى عن الفندق، ولو أنى كنت فى زيارة لابنتى المتزوجة والقاطنة غير بعيد من هنا.

- وأين زوجك، هل يعلم شيئا عن القطيع؟.

- إنه ليس هنا.. فقد ذهب بدوره يزور ابنتنا.

ثم أضافت بلهجة مريرة:

- أخذتما حقكما من الجلوس والكلام نظير مشروب واحد.

وامتطيا جواديهما من جديد، وتعمدت فيكتوريا أن تتكلم بصوت مرتفع حتى تسمعها صاحبة الفندق وهى بداخله.

- يبدو أن هذا الفندق غير مجهول للإقامة به..

برزت رأس صاحبة الفندق من الباب باندفاع وأجابتها بصوت عال:

- ولأى شىء إذن مجهول هذا الفندق؟

أجابتها فيكتوريا بتحد ومن بين أسنانها، نظرة واحدة تكفى لإثارة الرغبة فى مغادرته.

أحست صاحبة الفندق أن هذا الرد يخترقها كسهم مسموم فخطت فوق العتبة، وانهال من فمها سيل الشتائم.. لم تتنازل فيكتوريا بإدارة رأسها نحوها، تصنعت أنها لا تسمع الكلام وإن كان حنقها منه يخنق أنفاسها.

هذه هى أول مرة فى سفرها يصادفها إنسان أساءها.. ودعت على صاحبة الفندق بأن تموت وتدفن أمام عينيها.

شقّا القرية دون أن يتبادلا كلمة.. وحين بلغا آخر منزل شدت فيكتوريا اللجام وقطعت سيرها..

سألها ابنها فى حيرة خفيفة:

- ماذا؟ ألا نكف عن التريث هنا وهناك، وعن الكلام مع هذا وذاك؟

- نعم. ينبغى لى أن أفعل ذلك.. أليس هو واجبى؟

كانا حينئذ أمام فناء واسع لفندق بقيت عليه آثار مرور عجلات عديدة، صاحب الفندق رجل أشهب الشعر، لوحته الشمس واكتسى وجهه بسمرة شديدة، رشيق القامة، لا يوحى بأنه جلف نكد، وتنبعث من عينيه نظرة حادة، قال لهما:

- أبهذه السرعة عدتما، لم يمض على رؤيتى لكما آخر مرة إلا ليلة واحدة.

- نعم، عدنا يا أخى، ما العمل، لقد تعقدت أشغالى سأسألك سؤالا وعسى أن يصدق ظنى بقوة ذاكرتك فتجيبنى عليه.

- وهو كذلك، اسألينى كما تريدين.. هذا هو قدح النبيذ، وهذان هما الكأسان.. اشربى أنت أولا فأنت التى تطرحين الأسئلة، فإذا رأيت أننى كنت ذا نفع لك شربت بعد ذلك بدورى.

قالت له فيكتوريا بصوت رقيق:

– لا قلب لى للمزاح يا صاحبى يصونك الله من كل شر كما يصون أهلى.

– لا أستطيع أن أكون ذا نفع لك إلا إذا كشفت لى إذن عن همومك.

حدثته فيكتوريا عن قطيع النعاج الثلاثمائة وعن أصحابه الثلاثة فوق جيادهم.

أشرق وجه فيكتوريا قليلا حين رأته يتذكر بيقين رؤيته لهؤلاء الرجال مع القطيع وقال إنه قرابة عيد الملكين جبرائيل وميكائيل مر فعلا أمام الفندق هذا القطيع الذى وصفته فيكتوريا ثم نزل إلى حقل قريب واتجه الرعاة الأجراء إلى الحانة ثم لحق بهم أصحاب القطيع.

نعم، نعم.

كان واحد منهم يمتطى جوادا أسود يخالطه البياض، ويلبس قلنسوة رمادية من الفرو هو الذى طلب إلى الشرب، حساب للرعاة، ودعاهم إلى الشرب، ثم طلب قنينة له ولزميليه، وكان القس فاسيلى فى الحان فدعاه هذا الرجل ليشرب معهم أيضا، فلم يرفض القس لأنه رأى الدعوة جاءت من أناس طيبين.

وقدم صاحب الحانة للقس كرسيا وضعه أمام مائدة الثلاثة، ثم طلب الرجل اللابس القلنسوة الرمادية دورا آخر من الشراب، وبعد قليل سأل القس أن يصلى له وأن يرش القطيع بالماء المبارك.

رق قلبى لهذا الرجل الطيب الشهم، وأرسل القس يطلب شاله الأحمر الذى يلف به قلادته وكتاب التراتيل وبقية الأشياء التى تستلزمها الطقوس الدينية، وبارك القطيع ودعا له بالسلامة إذا بلغ المشتى، وبوفرة النتاج فى الربيع.

وكان الرجل اللابس للقلنسوة الرمادية هو الذى أخرج نقودا من حزامه ودفع رسوم هذه الصلاة، فكان سرور القس فاسيلى عظيما.

وفى ساعة متأخرة من النهار نهض الثلاثة عن المائدة تلبية لإشارة بالرحيل..

– من الذى أعطى هذه الإشارة؟

– هو أيضا الرجل لابس القلنسوة الرمادية.

فهو الذى يملك ثلثى القطيع وزميلاه لا يملكان إلا الثلث، وقد سمعتهم يتحدثون ويحددون نصيب كل واحد منهم فى نفقة المشتى، وكان زميلاه يقولان إنهما يعرفان مرعى خصبا رخيصا تطيب الإقامة به للقطيع.

كما نسيت أن أخبرك أن الرجل اللابس قلنسوة رمادية قبل أن يمتطى جواده تذكر واجبا آخر يلزمه القيام به.

طلب منى رغيفا وقدمه لكلبه، فزاد قلبى رقة له، كانوا قد دفعوا عن طيب خاطر ثمن شربهم كاملا، ثم مضوا.

– هل فى حسبانك أن زميليه كانا رجلين طيبين وكانا من أصدقائه.

– نعم هما كما قلت، كان أحدهما نحيفا وسمرته شديدة مثلى والآخر وهو أقوى الثلاثة كان دائم الضحك والقهقهة، شفته العليا مشرومة، له فم الأرنب.

وكان هذا الرجل أكثرهم شربا ولكن كلامه كان على الضد من شربه، قليلا، يقهقه ويشرب، أما لابس القلنسوة فكان حلو الحديث.

– لابس القلنسوة الرمادية.

– نعم.. لابس القلنسوة الرمادية كما قلت..

تنهدت فيكتوريا وقالت:

– هذا هو طبع زوجى وكيف لا أعرفه من وصفك له، إننى خرجت من أجل هذا الرجل للسفر.

– أهو إذن زوجك؟.

– نعم.. إنه زوجى.

ـ وأنت تبحثين عنه الآن هنا.

ـ وما العمل. إذا كان لم يبحث عنى فلأبحث أنا عنه.

قال لها صاحب الفندق يمازحها:

ـ ابحثى عنه بالأخص فى مكان طاب له وأخذ فيه راحته..

هزت فيكتوريا رأسها ولم تسمح لشفتيها إلا بطيف لابتسامة خفيفة، هكذا كتمت إجابتها الجارحة التى كانت تهم بنطقها هاتان الشفتان، ثم أدارت رأسها وفكت عن حزامها طرف شالها الذى عقدته وأخرجت منه نقوداً لتدفع ثمن النبيذ.

وبعد أن ركب غيورغيتا جواده استأذن من صاحب الفندق قائلاً له:

ـ أستودعك الله ياسيد ماكوفى، وأتمنى لك صحة طيبة..

ـ مع السلامة وبالتوفيق.

قالت فيكتوريا لإبنها ببرطمة:

ـ تتفالح أنت أيضا ياخى، من أين عرفت أن اسمه ماكوفى؟.

ـ وكيف لا أعلم اسمه وهو مكتوب على لافتة فوق باب الفندق.

إن اسمه ديمتريو ماكوفى..

ـ طبعاً حلال لكم جميعا العلم والنصاحة.. أما أنا فلست ـ وياحسرة ـ إلا امرأة بلهاء.

لاد الفتى بالصمت.

حقا.. لقد ضاق ذرعاً باحتفاظ وجه أمه بتجهمه.

***

افترس بنت الجبل قلق شديد، ومع ذلك أحست بأنها تتواثب فيها قوة عارمة لاسبيل إلى قهرها.

هاهو ربها قد قبل شفاعة القديسة حنة ومَنَّ عليها بأول ضوء ينير بصيرتها.. وهداها إلى أول الطريق المؤدى إلى زوجها.

إذن فلتقسم فى قلبها على أن تقدم الشموع والعطايا لدير بستريتا، وكان الريح وهو يدفع فى ظهرها يريد أن يسوقها حتى تبلغ بطن الوادى.

تدرك أن ابنها قد أنهكه التعب والجوع ولكنها تصنعت عدم الملاحظة.

مطلبها أن تسرع ما أمكنها لتبلغ قرية بروشتينى، وليس إلا حين يبدو على الجوادين عجزهما عن متابعة السير، سترضى إكراماً للحيوان بالترنح قليلاً على الطريق..

كان لنظرتها حينئذ لهيب متصل، على حين انطفأت عينا ابنها، وأخذ الجوادان يمضغان الشعير بلذة، يمد كل منهما خطمه إلى قعر المخلاة المربوطة من وراء أذنيه.

يهز عرفه ويحمحم ويترقب ماء عليلاً يمده بكل ما فى الأرض من قوة. بدأ غيورغيتا يعانى من آثار قلة النوم، تقلص وجهه وشحب لونه، فقالت أمه بابتسامة ماكرة:

ـ شكلك هكذا أجمل.

أجابها:

ـ سينتهى كل هذا ذات يوم، كل هذا.

أجابته أمه تعارضه:

ـ آه يا حضرة الكاتب القارىء.. واضح أن كل علمك مرجعه إلى كتب محنطة وأوراق بالكوم، ورق فى ورق، كان يحسن بعلمك أن يكون مرجعه أن تأكل صيداً لتملك قوته، لا من أجل أن تكون ضربتك بالبلطة عفية.

ـ اسمعى يا أماه.

هناك شىء واحد لم أفلح فى فهمه، لماذا يلزمنا نحن ركوب الطريق ويقع على عاتقنا نحن متابعة البحث، على حين هناك أناس تدفع لهم مرتبات

شهرية لكى يفعلوا ما نفعله نحن.. أليس فى بلدنا قوانين ومحاكم وشرطة وخفر.

أجابته باحتقار:

ـ لا تحدثنى عن هذا واتركنى لشقائى.

أجابها طائعاً:

ـ سأفعل كل ما تطلبينه منى، يا أماه، ولكن هل سينتهى بحثنا بالعثور عليه؟.

ـ على من؟.

ـ أبى، طبعا.

ـ نعم، سنعثر عليه، ثق من ذلك..

وفعلاً أرشدها شاهد بعد شاهد إلى الطريق. أى فندق بعد فندق.

ويبدو أحيانا أن الطريق قد انبهم عليها، فإذا به يتضح لها بعد سير، يطول أو يقصر، أنها لاتظفر بشىء إذا كان صاحب الفندق قد سرقه الذهول مع أنها تسأله عن حوادث لم يمضى عليها إلا أربعة عشر أسبوعاً.

تستنجد بذاكرته فإذا هى عاجزة عن استعادة ولو إشارة، ولو نظرة ولو كلمة من هوة النسيان، فكأنه حجر لا تعثر عليه القدم بل تعثر به القدم، وقد تمر بمكان فتصادف فيه الذكريات لاتزال حية عند إنسان، ثم تتجاوزه إلى مكان آخر فتجد هذه الذكريات قد انطمست ولايسعفها أحد بجواب.

إن أسرع الذكريات إلى ذهن محدثها تتعلق بالرجل المشروم الشفة، المقل فى الكلام المسرف فى القهقهة والشراب حتى السكر، أما ثالث الرجال فصورته عند من تسألهم كأنها ظل شبح سارب.

إنه يمثل فى الذاكرة مع الآخرين، ولكن لا وجهه ولا جماع أحواله يبقى منها أثر فيها.

***

وجدت فيكتوريا فى قرية بروشتنى ذكريات عن زوجها لاتزال حية، قيل لها إن القطيع مر بها وهو يثير التراب فى طريقه إلى ملتقى نهرى نياجرا وبسترتيا.

وكان يصحب القطيع رجل أكرش أراد أن يوفر جهده فركب حماراً مثقلاً بالأحمال، وفوق حمار آخر ثلاثة جرار حديثة الولادة تطل رءوسها من زكيبة لتتعرف إلى هذا العالم الشاسع الذى جاءت إليه على حين أخذت الكلبة أم الجرار تجرى بخطى قصيرة تحت أولادها بين قوائم الحمار.

كان الأطفال على جانبى الطريق يصطفون ليروا هذا المشهد الظريف، ثم ظهر إثر القطيع ثلاثة خيالة وقفوا أمام باب الفندق دون أن يترجلوا وأفرغ كل واحد منهم فى حلقه قدحاً من النبيذ صبه لهم صبى الفندق من إبريق، وخرج صاحب الفندق إلى الباب، وهو رجل شيخ من عرق ألمانى ودود، مبادر للخدمة، قال لابس القلنسوة الرمادية لزميليه:

ـ نبيذ طيب تعتق على مهل فى قبو رطب، اعلما عنى أن هذا الألمانى يحتفى بالمسافرين حفاوة الأب بعياله.

هذه الذكريات ظلت باقية فى ذهن صاحب الفندق فرددها كما سمعها كلمة على الأم وابنها.

استغرقت فيكتوريا فى لجة الأفكار وتاهت نظرتها، ومع ذلك استمعت إلى رواية صاحب الفندق بسرور كبير.

وحدث أيضا فى قرية بوركا، ذكريات عن الخيالة الثلاثة، وعلمت أن طريق القطيع مال عند هذه القرية إلى اليسار بعيداً عن مجرى نهر بستريتا.. وجدت فيكتوريا نفسها من جديد تجتاز ربوعاً تجهلها كل الجهل، لجبالها وقراها أسماء لم تسمعها من قبل.

حطت رحالها فى قرية تسمى ساباسا وهناك وجدت ذكريات عن القطيع وعن الخيالة، ثم تسلقت طريقاً متعرجاً مغموراً بين الصخور واجتازت مواقع موحشة ليس بها إنسان، تحلق فوقها النسور.

هى صحراء من الثلوج والجليد. تهب عليها الريح بقوة وعنف حتى ليستطيع السائر أن يسند إلى هذا الريح جسده كأنما يسنده إلى جدار.. ومن هذا الموقع المرتفع تكشفت المنظر من ناحية نهر مولدافا.

أراض شاسعة تغمرها الشمس، والجبل الذى تلف سطحه دروب متعرجة تطل حافتها الصخرية على مهاو سحيقة.

هذا هو جبل ستنتسورا، وكانت فيكتوريا تستقى أسماء المواقع التى تمر بها.. من صبى استأجرته دليلاً لها، هو ابن صاحب الفندق فى قرية ساباس.

ووصلت فيكتوريا إلى قمة جبل صليب الطليان، فتركت الجوادين يستريحان قليلاً مستترين من الريح وراء كتلة من الصخور، والتزمت هى الصمت لتنصت إلى زمجرة الريح فى الأغوار وإلى حفيف أشجار السرو، لاشك فى أن نيقيفور ليبان قد اتجه إلى ناحية الشمس التى تسطع هناك فوق مجرى نهر مولدافا.

هكذا كان قلبها يحدثها..

ولاشك فى أنه تريث أيضا حيث تريثت هى.. كما لاشك أنه نظر مثلها إلى هناك من بعيد.

***

استغرق الهبوط من الجبل وقتاً أقل من صعوده.. وكان النزول على طريق معبد يحاذى جدولاً أخذت تلوجه فى الذوبان، ولم تتوقف فيكتوريا وابنها إلا عند مخرج قرية سوها على الجانب الآخر من الوادى.

قال لهما الصبى الدليل الذى استأجرته من قرية ساباسا:

ـ هنا فندق السيد يورغى فاسيلى، ستنزلان به، أما أنا فعائد لأن أبى قد أمرنى أن أرجع إليه قبل حلول الظلام.

قالت له فيكتوريا:

ـ بلغ السيد دورما خالص شكرى، قد يقيض الله لى أن أنزل عنده مرة اخرى، وأن يكون بالى أقل انشغالاً منذ الآن، هذه النقود لك ياعزيزى نيقولا. فهذا هو المبلغ الذى وعدتك به. وسلم لى أيضا على أمك وردد عليها ما أقوله لك الآن.

إننا سرنا إلى الأمام مع الطريق ونزلنا إلى سهل وادى مالدوفا قاصدين مدينة فولتشينى، فإذا بلغناها فربما لزمنا مواصلة السير حتى قرية بروت فى ربوع بوتشانى.

أجابها الصبى نيقولا:

ـ وأنا أيضا أشكرك.

ركب فرسة كبيرة الكرش، سرجها قطعة رثة من غطاء صدفى، تتدلى شراشيبه، وكر راجعاً على الطريق الذى قدم منه. كان الصبى يلبس صديريا من فرو الغنم يتحزم عليه بحبل، ويلبس أيضا قلنسوة ضخمة من الفرو، ضحك غيورغيتا لمنظر هذا الصبى الضئيل فوق رأسه الضخمة ودخلت فيكتوريا فندق السيد يورغوفاسيلى، قر رأيها أن تنزل وتستريح به هى وابنها وفق هواهما، وليعرفا نعمة الشبع بعد الجوع.

حكما على السيد يورغوفاسيلى من مظهره أنه رجل جاد، فهو يلبس نظارة ويكتب فى سجل، ولما رأت فيكتوريا صلعته حكمت أيضا بأنه رجل ذكى.

إنه بيدين صغيرتين مطخطختين يلف خصره بفوطة زرقاء، فهو إذن رجل لا يجيد الكتابة فى السجل فحسب، بل يحرص أيضا أن يكون له مظهر مهندم نظيف، رفوف حانة الفندق من الخشب الأبيض تعلوها زجاجات متلاصقة بترتيب حسن، وإلى جانب الرفوف صفوف من الأدراج تكدست فيها أنواع متخيرة من طعام محفوظ.

أخرج من برميل، إكراماً لفيكتوريا، سمكة مدخنة من صنف السالمون، تناولها برشاقة بين إصبعين ووضعها باعتناء على ورقة بيضاء فرشها على منضدة أحكم تنظيفها وتلميعها.

ثم ملأ من برميل خشبى كأسين كبيرين من البيرة فعلت لهما رغوة..

قالت فيكتوريا فى سرها:

ـ ما أطيب شرب البيرة لمن حل به التعب وأحس بالجوع والعطش، أما غيورغيتا فلم يعتد شرب البيرة ورفع كأسه إلى فمه ثم أنزلها ودفعها، ظن أن البيرة فاسدة بسبب مذاقها المر..

***

يتنقل السيد يورغوفاسيلى بهدوء. لايسمع لوقع أقدامه صوت.. فهو يلبس خفا له نعل من اللباد، ويجيب بحسن أدب على كل سؤال. خلت الحانة من الرواد، ليس بها سوى فيكتوريا وابنها غيورغيتا.. يلمع زجاج النوافذ بضوء الشمس المائلة، فقد كانت الساعة الواحدة بعد الظهر. فى ظن فيكتوريا أن الرياح قد هدأت. فلما تحولت من الظن إلى التأكد تملكها القلق، انقضى العذر ولابد لها من متابعة السعى وراء زوجها.

وبفضل حصافتها وسابق تجربتها قادت الحديث هذه المرة أيضا مع يورغو حتى دار بعد قليل عن المسألة التى تهمها.

فلما فهم غرضها قال إنه لابد أن يبدأ من البداية، فهو رجل يحب الترتيب والنظام، استوثق أولاً من تحديد السنة والشهر ثم فتح سجله وقارن بعناية بين بياناته وأقوال فيكتوريا، ثم لجأ إلى ذاكرته يستنطقها بصبر وعلى تمهل فوجدها تشهد أيضا بما تريد فيكتوريا أن يؤكده لها.

إن قطيعاً من النعاج مر من أمام الفندق فى سنة كذا كذا فى شهر كذا كذا، قال غيورغيتا فى سره.

ـ إذن فنحن فى الطريق الصحيح ولابد أن نمضى معه إلى الأمام.

لكن فيكتوريا لم تقنع بما سمعته.. إنها تريد أن تقف على كل ما لدى صاحب الفندق من معلومات عن أصحاب القطيع، لاشك فى أن القطيع قد مر أمام الفندق، مع الرعاة الأجراء والأوانى والكلاب والحمير ثم ظهر فى أثره أصحابه.

أجابها صاحب الفندق بعد أن امتحن ذاكرته طويلاً، أن هذا الذى تقوله هو الذى حدث فعلاً، فقد تريث القطيع والرعاة الأجراء بالقرب من الفندق وانتظروا أن يلحق بهم أصحابه.

سألته فيكتوريا:

ـ جاءوا راكبين جيادهم، أليس كذلك؟.

ـ هذا ماحدث فعلاً، لماذا تقولين أصحاب القطيع، لم أر إلا رجلين نزلا عندى وقدمت لهما طعاماً كالذى قدمته لك، سمكة مدخنة من السالمون وخبزاً وبيرة، كل شىء عندى من أجود صنف، هذا ما أحرص عليه منذ جاء العمال الطليان لتعبيد الطريق وإقامة كوبرى بعدنا بقليل.

قالت له فيكتوريا:

ـ كيف تقول إنهما اثنان، وأصحاب القطيع ثلاثة.

ـ لا.

لم أر إلا رجلين اثنين..

أغمضت فيكتوريا عينيها على لجة من الظلام غمرت قلبها وذهنها فجأة.

وأعاد السيد يورغو تأكيده أنه لم ير إلا رجلين. فى تقديرها أن لجة الظلام التى غمرت قلبها وذهنها لابد أن تنجلى عنهما.

لزمت الصمت وهى مستغرقة في التفكير تنتظر ما ستأتى به الأيام من جديد لها.

إنها الآن على يقين بأن الرياح قد هدأت وصمتت أيضا مثلها، بعد أن تحولت وهبطت إلى الوادى، هذه علامة واضحة لفيكتوريا.

ينبغى لها أن لاتتابع الطريق بل أن تكر راجعة إلى الوراء.

ليس هناك أقل احتمال بأن نيقيفور ليبان كان أحد الرجلين، فطريقه قد انقطع قبل هذا الفندق، هنا لا أثر لوجوده حياً.

سألت صاحبه من جديد بهدوء فى يقظة شديدة:

ـ رأيت رجلين فحسب، أحدهما طويل مشروم الشفة وله فم الأرنب،

والثانى قصير أسمر، أليس كذلك؟.

ـ نعم.

بالضبط.. لم أر إلا هذين الرجلين، ويخيل إلىّ أننى أعرفهما، فهما يسكنان فى أحد الوديان قريبا من هنا، أما صاحب الشفة المشروخة فيسمى بحق بيورا ـ بيورا فى الرومانية اسم الأرنب ـ كلا، أخطأت، هذا هو اسم الرجل الآخر، وقد رأيتهما وهما يغادران الحانة ليلحقا بالقطيع.

ـ وهل عندك خبر بأنهما عادا بعد ذلك؟.

ـ طبعا، فإنهما بعد أن أنزلا القطيع بالمشتى لم يبق أمامهما ما يفعلانه هناك، فلاشك أنهما قد عادا .. انتظرى.. تذكرت اسم الرجل الطويل هو كاليسترات بوغزا.

ـ أى الرجلين هو؟.

ـ الرجل المشروم الشفة وقد قلت لك أننى لم أر إلا الرجلين، وها أنذا أتذكر فجأة اسميهما بوضوح، لماذا تقولين أن أصحاب القطيع كانوا ثلاثة؟.

أجابته بصوت حائر وقد أغمضت جفنيها نصف إغماضة:

ـ هذا ما سارع به لسانى فقد كنت أظن أنهم ثلاثة، أنا متأكدة الآن أن الحقيقة هى كما تقول..

ها قد بدأ بصيص من النور يتراءى لها فى لجة الظلام، كانوا ثلاثة حينما بلغوا قرية سوباسا وفى قرية سوها اختفى كل ذكر لنيقيفور ليبان.. هل طار بين القريتين فى الهواء، هل وقع فى هوة ابتلعته، ستجد على كل حال بين القريتين مفتاح السر، ولن يشق عليها ذلك، فباستطاعتها أن تعثر على الرجلين فى مسكنهما سواء فى الوادى الواقع على اليمين أو الواقع على اليسار، من هذين الرجلين سيكون استفسارها هل طار نيقيفور إلى الشمس أم غرق بين الأمواج، لاشك فى أن الله أراد أن يبقى له أثر.

من واجبها الآن أن تكر راجعة على الطريق الذى قدمت منه.. وأن تجد هذا الأثر، فهذه هى إرادة القديسة حنة، التى سبق لها أن عبرت عنها بأن أسكنت الرياح ولمتها تحت سقف محرابها.

الفصل الثانى عشر

لم يكن هدوء الريح هو العلامة الوحيدة التى تكشفت عنها رعاية القديسة حنة لفيكتوريا وقيادتها لخطواتها، فقد تبعتها علامات أخرى.

الباب الخشبى الخلفى للحانة له فى مستوى الرأس طاقة صغيرة مستديرة من الزجاج، بدت وراءها مرة بعد مرة عين لها نظرة حادة، ثم تتخلى عنها للعين الأخرى.

وانفتح الباب فظهرت فى العتمة هاتان العينان ووجه ممتلىء وجسد عظيم البطن والوركين فتنحى صاحب الفندق ما أمكنه ليفسح المرور لزوجته فهى تلبس بلوزة منتفخة متراكمة الثنيات.

وبدا لفيكتوريا أن أكبر قدر من الاحترام واجب لمن له مثل هذه الفخامة، وهذه البشرة ناصعة البياض.

كانت الداخلة تلبس جوربا أحمر وخفا له نعل من جلد رقيق، له على الأرض وقع كالتصفيق الخفيف.

جلست على كرسى وقالت لزوجها:

ـ أنت تذكرت بصدق كل شىء، ولكن لا أدرى لماذا فاتك تذكر اسم أحد الرجالين، ألم تكتبه فى سجلك؟.

ـ لم أسجل إلا اسم بوغزا، وأنا أعلم أن الآخر يسمى بيورا.. أى فم الأرنب.

ـ مستحيل، بيورا هو اسم الشهرة المعروف به بوغزا، لأن أسنانه تشاهد من شرم الشفة، أما الآخر فيسمى إيليا، وكل الناس تعرفه، كما تعرف بوغزا، وكيف لاتعرفهما وهما يسكنان نجع شجرتى التفاح فى الوادى، أجابها زوجها وهو مندهش لها، مبتسما للضيفين:

ـ صدقت والله..

أجابتها فيكتوريا بصوت ينم عن تواضع شديد عجب له ابنها غيورغيتا:

ـ أنا مدينة لك بفضل كبير، ياسيدتى ولا أعرف كيف أشكرك على هذه المعلومات.

ثبتت المرأة الضخمة فى جلستها على الكرسى ونطقت بالخيلاء نقنها المتدلية طية بعد طية.. وقالت:

ـ يا صاحبتى، أنت تسعين وراء أحد هذين الرجلين لأنه مدين لك، فى جيبه نقود مستحقة لك، وهذا لايدهشنى، فقد بدت عليهما أخيراً مظاهر النعمة وانتفخت أوداجهما كالضفدعة المقاوحة، إن لى صلة قرابة بزوجة بيورا، وقد لاحظت أخيراً أنها أصبحت تتعالى ولا تتكرم بزيارتنا، فقلت لها ماذا جرى يا إيليانا، هل نسيت سحنة أصدقائك؟.

أجابتنى:

ـ لست كما تقولين، ما عاقنى إلا أننى لا أملك وقتى، فأنا مشغولة جداً هذه الأيام يا عينى.

أكاد أتميز من الغيظ حين أسمع منها هذا الكلام، يا خسارة حضرتها لاتملك وقتها.. على حين أنها رائحة غادية فى زيارات تارة لزوجة العمدة وتارة لزوجة القس، هل الدين المستحق لك باق من صفقة نعاج فى الخريف الماضى؟.

لزمت فيكتوريا الصمت وهى تثبت نظرتها عليها. ثم تكلمت بصوت خافت لاتخفى به إلا محدثها:

ـ من المحتمل أن يكون قد بقى فى ذمة أحدهما شىء من الثمن، ولكن كم وعن أى صفقة، لست أدرى..

ـ كيف، ألم يبع لهما زوجك نعاجه؟.

ـ هذا الذى مازلت أجهله فلم تكن لى وسيلة لأعرف الحقيقة.

ـ كيف، ألم يقل لك زوجك.

ـ ألم تسنح له فرصة، فالغائب أخرس، إننى يا سيدتى منذ هذا الخريف، عرفت الترمل قبل الآوان.

ـ هل هجرك.

ـ لا أعرف.. العلم عند الله.

أجابتها المرأة الضخمة بصوت خافت كأن الحانة ليس بها أحد غيرهما:

ـ قولى لى: ما اسمك؟.

ذكرت لها اسمها وعلمت منها اسمها هى أيضا..

استطردت تقول بصوت ناعم، تريد به إلا تنقطع عن مسامرتها لمحدثتها..

ـ ياعزيزتى فيكتوريا.. لابد أن أروى لك ما سمعته من زوجة الثانى.. زوجة إيليا كوتوى، اسمها غبافينا وهى متعالية أيضا ومتعاجبة بنفسها لأن زوجها يريد أن يراها دائما فى أحسن ثياب، فهى تظن أن جمالها لايفوقه جمال، جميلة فى عين زوجها فليكن، لكنها عندى محرومة من الجمال، كل همها بذل غاية جهدها فى التصنع والتلطف لزوجها لتجره من أذنيه فينقاد وراءها وهو غافل، حتى ليقال إنها عملت له سحراً، هى وزوجة يورغا من طينة واحدة، تأدب مفتعل وكلام معسول ولكنهما قادرتان على تقليع العين.

ـ وما السبب ياست ماريا؟.

ـ السبب أنهما عرفتا الترف، فقد هبط عليهما كنز من السماء.. وفى الربيع ستلد نعاجهن مائة حمل على الأقل، وبوغزا دائماً مخمور، يعود إلى بيته من الحانة وقلنسوته من الفرو مائلة على أذنه فيدفع زوجته إلى ركن ويضربها.

ـ من ياست ماريا؟.

ـ ألم تفهمى؟ أليانا زوجته.

ـ ولماذا؟.

ـ لا لشيء إلا ليثبت لها رجولته وقوته، ولكنها تهزأ بالضرب، هو عندها نوع من التسلية.

ـ والآن؟.

ـ من؟.

ـ كوتوى، إنه يشرب كذلك، ولكن أقل من زميله، غير أنه يسجد أيضا على أربع أمام زوجته غافيتا، اسمعى، سأروى لك ما قاله لها كوتوى عن النعاج، رغم أنه اشتراها هو وبوغزا من مالك لقطعان من أهل الجبل قدم من بعيد، وأنهما دفعا الثمن بالكامل نقدا، وأن المالك باع لهما كل قطيعه.

ـ طيب، وابن الجبل هذا، ماذا فعل بعد ذلك، أتراه عاد إلى بيته فى تاركا؟ لا، هل مرض فى طريق عودته.. لو حدث هذا لعلمنا به، هل نثر نقوده تحت أقدام غانية خضراء العينين فى هذه الناحية، إذن لبلغ الخبر وعلم؟ أيضا أناس غيرك، وأنت تقولين إنك لم تسمعى مثل هذا الخبر، فلابد إذن من أن يكون مرجع السؤال إليهما ليقولا لى ما يعلمانه ويتفضلا بإرشادى أين أجده، فلعله أستأمنهما على سر نكوصه عن العودة لبيته.

ـ لابد من حضورهما للإجابة على هذه الأسئلة وسنرى ماذا يقولان، سنرى حينئذ بعض الأنوف الشامخة تندس فى التراب.

جرى الحديث بينهما بانفعال، أغلق السيد بروغو سجله ونقل نظرته من واحدة إلى الأخرى وقال لهما:

ـ ما هذا الكلام؟ ماذا جرى لعقلكما، كيف تتولد عندكما شبهة بجريرة، علمى بها علمكما، بل اتهام بجريمة لا تتورعان عن توجيهها إلى رجلين من المزارعين الطيبين، يشهد لهما الناس جميعا بالأمانة والاستقامة، لكل منهما ثروة، ولكنه كسبها حلالاً، فكيف يخرج من يدهما قتل إنسان وسرقة ماله..

هذا فعل قطاع طرق مجرمين لا فعل مزارعين طيبين من بلدنا.

أجابته زوجته وهى ترسم علامة الصليب على رأسها وكتفيها:

ـ يا قوة الله، كيف تقول هذا الكلام، من الذى تحدث عن قتل وسرقة؟.

أعوذ بالله، لم يدر ببالى مثل هذا الظن، ولا دار أيضا ببال هذه المرأة المسكينة، ولكن ينبغى لهذين الرجلين أن يحضرا هنا لتبييض وجهيهما أمام هذه الأرمل التى تجوب الأرض على غير هدى، ينبغى أن يشرحا كيف وضعا يديهما على القطيع. وأن يقدما الدليل على أنهما دفعا ثمنه، وأن يرشداها إلى المكان الذى قصده نيقيفور ليبان، أليس هذا مطلباً عادلاً.

ـ نعم، مطلب عادل، فلتسألهما هذا هو حقها..

ـ إذن اتفقنا، هناك مبرر لسؤالهما، وعندى لها نصيحة صغيرة، أقول لها احذرى يا عزيزتى فيكتوريا من الذهاب وحدك، بمفردك، أو لا رفيق لك إلا ابنك، إلى مكان موحش منعزل عن العمران كنجع شجرتى التفاح، ربما لن تجديهما فى بيتهما أما إذا كانا بهما فلربما لحقك منهما أذى لأنك ذاهبة مطالبة بدين، وها هو زوجى يقول بأنهما قتلا صاحب القطيع. فلماذا لايقتلانك أنت أيضاً.

ذهل صاحب الفندق وقال وهو يضرب كفا بكف:

ـ أنا.. هل قلت هذا الكلام.. عالم؟.

ـ نعم، هذا ما قلته، وحتى إذا لم تكن قلته فالرأى عندى أن نبعث إليهما بصبى الفندق ليدعوهما إلى بيت العمدة بدعوى أنهما مطلوبان لمسألة تهمهما، وينبغى أن يضيف أن المسألة فى صالحهما وقد أذهب أنا بنفسى إلى بيت العمدة أيضا، فأنت لك هنا أشغال كثيرة، ولن يستغرب منى اصطحاب هذه المرأة المسكينة.. حتى لا تحس بضياعها ووحدتها، وكذلك أنفعها بإرشادها إلى بيت العمدة و أن أجد لها إذا لزم الحال محامياً وأدلها على الشهود، ألا تراها قادمة من بعيد، من تاركاد، فكيف تواجه وحدها رجلين غريبين مثل بوغزا وكوتوى وكلاهما بجح جشع، قال لها زوجها:

ـ لماذا تصفينهما بالجشع والبجاحة؟.

ـ هذا حكمى.. هل تنكر الآن أنهما جشعان بجحان؟، نعم أنهما جشعان بجحان.

ـ فليكن ولكن حذار من الإفصاح عن اتهامكما لهما. فهذا الاتهام لكى يكون من إنسان عاقل ليس إلا قمة الحماقة .

ـ حماقة ؟ وكيف لا تصدق هذه المرأة المسكينة التى تؤكد لنا أن زوجها لم يعد لبيته؟

– عاد أو لم يعد ، هذه مسألة أخرى .

– هل تعتقد ذلك حقا؟ ليس هناك إلا مسألة واحدة ، أين هو . هيا ضع الأغلال فى يد هذه المرأة المسكينة وخذها الى مستشفى المجاذيب فهى حسب قولك .. صرخ زوجها متفجعاً :

– وهل قلت أيضا مثل هذا الكلام ياعالم ؟.

– نعم قلته .

وينبغى الآن أن نبعث غيتشور يستدعيهما إلى بيت العمدة، وستتولى هذه المرأة استجوابهما بأدب ، وينبغى أن يجيبا عليه بأدب .

وغيتشور صبى نحيل طويل الرقبة، يملأ النمش وجهه ، وهذا هو مدلول اسمه .

– سارع بارتداء معطفك واسلك دربا مختصرا ليعتلى التل ، وفى أثناء ذلك دعت زوجة السيد بورغو فاسيلى ضيفتها فيكتوريا الى حجرتها الخاصة وراء الباب ذى الطاقة الصغيرة الزجاجية، لتأخذ راحتها وتطلق لسانها وتخوض فى سيرة كل امرأة متقمعة أو متكبرة ، أو مزهوة بجمالها، ورمت شبكتها على امتداد المنطقة كلها بقدر ما أسعفها بصرها ومكر فراستها وحصيلة معلوماتها ، ما أكثرهن ، ولكل واحدة عيبها ، ولكن أسوأهن جميعاً فى نظرها هى زوجة بوغزا كالسترات ، فهى محظوظة بجمالها وتدع زوجها مشروم الشفة يضربها مرة بعد أخرى ، إنها تستحق الضرب ولكن لا أثر له عليها .. بل قد تفوقها فى اتقان هذا الفن ، وما من امرأة تفوق زوجة معلم المدرسة فى معرفتها بأنواع السحر ووسائله وقدرتها عليه .

وقد عمدت ذات شتاء أن تحتجز لديها امرأة مجربة لمدة ثلاثة أسابيع لا لشىء إلا من أجل أن تتعلم منها ضروبا جديدة من السحر .

تركت فيكتوريا هذا السيل من الكلام ينصب فوق رأسها واستمعت لها

بتوقير وتصديق ، وإن كانت لم تمنحها إلا آذنا ساهية، فقد كان فكرها يطير مشتتاً يحاول أن يشق المعميات وينفذ إلى سر الأشياء كأنه مثقاب .

وكانت الشمس قد انحدرت حين رجع غيتشور ، فأقبلت عليه صاحبة الفندق تسأله بلهفة أن يقول هل وجدهما فى منزليهما أم لا ؟

– نعم ، وجدتهما فى منزليهما .

– وماذا كان جوابهما حين علما أنهما مطلوبان لبيت العمدة ؟

– لم يجيبا بشىء ، ولم يزد كوتوى عن قوله طيب ، أما بوغزا فقد ضحك ساخرا .

– ألم يطلب مزيدا من الايضاح عن سبب دعوتهما ، ألم يسألاك عن شىء آخر ؟

– نعم ؟.

– وماذا قلت لهما؟ .

لم أقل لهما شيئا .. فقد حاذرت كطلبكما أن أتكلم .

– وزوجة بوغزا ، ماذا كانت تفعل ؟

– لا أدرى ، فلم أنظر من النافذة .

– وزوجة كوتوى ؟

– لم أرها أيضا .

– ألم أقل لك يافيكتوريا أنهما يقضيان الوقت فى الزيارات ..

قال الصبى :

– كلا .. فإن زوجة كوتوى كانت فى البيت، وقد سمعتها تغنى ولكنى لم ألمحها ، والأخرى أيضا كانت فى بيتها ، وقد سمعت نكشها فى المخزن العلوى ، وقد سألنى بوغزا من هم المسافرون الذين نزلوا بالفندق.

– وهل قلت له ؟

– كلا .. لم أقل له شيئا ..

ولكنهما أدركتا أن الصبى قد باح بما استؤمن عليه ، فأبدت له سيدته غضبها موجهة إليه نظرة حانقة ولوت له فمها باشمئزاز .

– هل قالا متى سيحضران إلى بيت العمدة ؟

– لقد نزلا فى ضحبتى .

أحست فيكتوريا أن قلبها يثب فى صدرها، ومضت صاحبة الفندق تتكلم وتشير بحدة وسرعة وهى تلبس سترتها من الفرو ..

تركتا غيورغيتا فى الفندق بناء على نصيحة حكيمة من صاحبة الفندق ومضت الاثنتان وحدهما الى بيت العمدة وهناك وجدتا العمدة وموثق العقود يثرثران مع رجلين..

***

رمت بنت الجبل من النافذة نظرة خاطفة كالبرق ثم دخلت وقد نطقت ملامحها بالوداعة والتواضع ، تتبع صاحبة الفندق الآخذة لها تحت جناحها.

سكتت الأصوات الغليظة القوية وارتفع دخان السجائر إلى السقف. من نظرة واحدة تعرفت فيكتوريا على بوغزا كما تعرفت أيضا على كوتوى القصير الأسمر ، والعمدة وموثق العقود لهما تنم عن شبع وري، ويرتديان ملابس أهل المدن.

وكان بوغزا أول من تكلم ، قال بصوت سوقى متهكم :

– أنت ولا ريب زوجة ليبان .

هزت رأسها تقول نعم .

ثبتت عليه نظرتها وإن كانت قد بدت كأنما تديرها إلى ناحية أخرى.

وصمتت ..

انتظرت ماذا يحدث من جديد .

– هل جئت تطالبين بدين . أما أنا فقد دفعت له حقه عندى ، أما عن زميلى كوترى فلعله لايزال مدينا له بمبلغ من المال .

أجابه كوترى بلهجة حادة :

– ليس فى ذمتى دين مستحق له .

ضحك بوغزا ساخرا من جديد .

– إذن لعلك جئت لترى كيف نعيش هنا فى سوها . وها نحن كما ترين.. نعيش فى أحسن حال والحمد لله ..

تنهدت فيكتوريا وقالت :

– طبعاً .. معك حق ، أنتم أناس تعيشون فى راحة بال بلا هموم ، بعيدين عن الدور والمتمة على أنا .. آنا التى دفعنى ضغط الهموم على هجرة الدار والاغتراب ..

أحقا هذا هو حالك؟ إذن ماسبب همومك اذكريه لنا من فضلك وسنرى هل نستطيع خدمتك، الأجل هذا طلبت ياست حضورنا الى بيت العمدة ؟ .

***

خلع بوغزا على وجهه مظاهر الدهشة ورمى بنظرة ماكرة متصيدة إلى العمدة والموثق وقد بدت عليهما أيضا مظاهر الدهشة .

صمتت فيكتوريا وأحنت رأسها فتدخلت زوجة صاحبة الفندق وقالت :

– ألا تعلمون ياسادة أن زوج هذه المرأة لم يعد حتى الآن إلى بيته؟.

قذف إليها بوغزا بنظرة متعجبة ، وطرفت عينه اليسرى وابتسم من ركن فمه..

– وإذا كان زوجها لم يعد لها حتى الآن فماذا نستطيع أن نفعله نحن؟.

أجابته فيكتوريا برفق دون أن ترفع رأسها :

– وماذا تستطيعان فعله لى؟ ما أنا إلا امرأة مسكينة جئت أبحث عن أصدقاء أسألهم أى حديث جرى بينهم وبين نيقيفور زوجى حينما افترقوا عنه ، وأن يذكرو لى الجهة التى رأوه سائرا إليها فلربما قال لهم شيئا يرشدنى أن أبحث عنه ..

غرز بوغزا كفيه فى حزامه العريض ونظر إليها بإشفاق ثم هز كتفيه

وقال :

– ماذا أستطيع قوله لك؟

لقد اتفقنا على الصفقة ونحن فى الطريق عائدين من دورنا ، عددت له النقود ودفع كوتوى الحاضر أمامك حصة من الثمن، كما دفعت أنا حصتى .. ثم افترقنا .. حيث كان باديا على نيقيفور ليبان أنه مستعجل. قالت له فيكتوريا وهى تتنهد :

– هل لك أن تقول لى فى أى موقع كان الافتراق ؟ فى أى موقع ؟

– ذكرت لك أننا افترقنا على الطريق .

– فى أى موقع منه بالتحديد ؟

ضحك بوغزا بسخرية :

– للنساء فضول لا ينقصنى. وكيف تطلبين أن أعرف الموقع على وجه التحديد .. إن صحت ذاكرتى فقد افترقنا عند صليب الطليان .

– وإلى أى جهة سار زوجى بعد أن قبض النقود ؟

– أى وجهة تريدين ؟

إنه لوى عنان فرسه وكر راجعاً أدراجه ليعود الى بيته .

قالت فيكتوريا :

– لا تغضب منى ياسيد بوغزا .. خبرنى من فضلك .. هل حدث مرة أن انطق بكلمة تدل على أنه لا يعتزم العودة لبيته ؟

– لست غاضبا يا ست ولو أن كل هذه الاسئلة الملتوية التى وجهتها إلى غير مقصود بها أن تطيب لى ، إذا كانت عندك شبهة فافصحى عنها بصراحة دون تحويم حولى بها كالنحلة قبل أن تشك إبرتها ..

رسمت فيكتوريا على رأسها وكتفيها علامة الصليب وأجابته بلهجة محتجة :

– إلى هذا الكلام وما أنا إلا امرأة مسكينة .. صاننى الله من أن يدور فى خلدى خاطر سوء أو شبهة، لا أطلب سوى أن أعرف هل ألح لكما

زوجى بشىء فهمتم منه ماذا كان فى عزمه .

أجابها بوغزا وهو يهدهد بقية غضبه :

– لم يلمح لنا بشىء إطلاقا، فدفعنا له الثمن ومضى لحال سبيله .

– كنتم حينئذ عند صليب الطليان .

– نعم كما ذكرت لك .

– وهل كان القطيع يسبقكم ؟

– نعم .. كالعادة دائما .

– هذا يعنى أن لا أحد من إجراء الرعاة أو الحراس قد رآه بعد ذلك .. فلو كان قد صادف واحدا منهم لأخبره بما يعتزمه .

***

عادت فيكتوريا إلى الصمت محتفظة بوقفتها وانحناء رأسها على حين يظن بها أنها تريد أن تخرق الأرض بطرف عصاها البيضاء التى حملتها معها عند خروجها من دارها ..

وتدخلت زوجة صاحب الفندق بلهجة فاترة تدل على التطوع بلا اكتراث ، بعد أن تأملت الصور المعلقة على الجدران وغمزت بعينيها للحاضرين تفهمهم أنها مترفعة كل الترفع عن مشاركة هذه المرأة لوثتها وحماقتها .

– من قال لا أدرى فقد أصبح فى نجاة من ملاحقتها بسؤال آخر .

ابتسم بوغزا وهو يلف سيجارته بين أصابعه .

– كلام صحيح .

واستطردت زوجة صاحب الفندق تقول لفيكتوريا :

– لو كان السؤال لامرأة لعلمت منها المزيد ، أما الرجال فكلامهم قليل ، قد تجديدن أناسا آخرين ممن قابلهم زوجك فى الطريق يستطيعون إمدادك بأخباره ، مثلا أصحاب الفنادق التى نزل بها ولعلك تجدين أيضا شهودا كانوا حاضرين الصفقة عند عقدها أو عند دفع الثمن ..

رفعت فيكتوريا رأسها على مهل .. وأشعل بوغزا سيجارته وجذب نفسا

... الدخان من منخريه وقال :

... كفى . قلت لكّ ماتريدين سماعه .. وقلت كل شيء تذكرته . ولعل ... تنوى علما بتفاصيل أخرى .

لا علم لى بشيء أكثر مما قلته أنت .

... خلت صاحبة الفندق من جديد موجهة الكلام إلى فيكتوريا .

اذا كان من بين شهود الصفقة راع بقى هناك فإنك تستطيعين أن ... له وتسأليه ، وإذا كان هناك أيضا رجل من الغرباء فإنك تستطيعين ... اله عن مزيد من التفاصيل .

المهم أن نعرف على وجه التحديد من يكون هذا الراعى أو هذا الرجل الغريب ؟

أجابها بوغزا :

– أشوف ، إذا نجحت فى تذكر شيء من هذا فسأخبرك به أيضا ، ولكن خطرت لى الآن فكرة ، أليس من الجائز أن يكون قد ضاق ذرعا ببيعته فأراد أن يقيم له بيتاً جديداً .

قالت فيكتوريا :

– ماذا تعنى بقولك هذا ياسيد بوغزا ؟

أجابها بابتسامة ساخرة :

– أعنى أنه أخذ امرأة أخرى .

وابتسم أيضا جميع الحاضرين ..

أجابته فيكتوريا منقادة وقد علت فمها هى أيضا ابتسامة وإن تكن باهتة :

– كل شيء جائز ، وعسى ألا تكون الأحضان التى ورد ذكرها على لسانك هى أحضان عزرائيل .

جذب بوغزا آخر نفس يريده من سيجارته ورمى بها على الأرض .

ساد الصمت فى الحجرة ، واتجهت المرأتان إلى الباب ، فإذا بفيكتوريا

التفت قبل أن تخرج لتقول له بطرف لسانها :

– يا سيد بوغزا . لا تغضب منى ، من فضلك، فقد كنت صديقا لزوجى، سمح لى أزورك فى بيتك. فإذا تذكرت شيئا من الآن إلى أن نتقابل، ذكرته لى..

– نعم ، ومتى تنوين العودة ؟

– نعم أنوى العودة. لم يبق لى الآن إلا أن أعود لأبحث عن زوجى فى كل ... إنه كل مالى فى هذه الدنيا.. ولقد بحثت عنه على جانبى الطرق الرئيسية ، ينبغى أن أبحث عنه الآن على جانبى الدروب الفرعية، أو حتى فى مهاوى الجبال .

وسترعانى القديسة حنة فى دير بستريتا ..

ستقود خطاى ..

***

أمضى غيورغيتا المساء كله فى مساعدة السيد يورغوفاسيلى على إنجاز عمله ، على حين اختلت المرأتان فى الحجرة الصغيرة للتشاور كيف تتابعان التحريات ..

وكان من رأى صاحبة الفندق أن تذهب بنفسها إلى مربط الفرس ، أى إلى بيت بوغزا وكوتوى والسبب أنها تريد أولا أن تتأمل بإعجاب حوريتين هبطتا من السماء ، ولتحكم أيهما أخف فى الميزان ، الجمال أم الذكاء ، وإذا لم يتأت عن طريق المرأة التلصص على زوجها وهو راقد فى ارتخاء واقتناص إفشائه لداخيلته وهو مخمور أو لأسراره التى لا يفضى بها إلا إلى زوجته فلم يبق إلا القسم فى وجه الله هو الذى يضيء الظلام بنوره لفيكتوريا ، شفيعها أنها بذلت من قبل كل ماتستطيع من جهد معتمدة على نفسها ..

قالت فيكتوريا وقد غامت نظرتها :

– كان ليبان يكرر لى دائما مثلا سائرا.

– ماهو ؟

– لا يستطيع أحد أن يثب فوق ظله .. وهذا ينطبق علينا الآن كما ينطبق على أناس آخرين .

– مثل حكيم بلا شك .

اضطربت فيكتوريا فجأة وأغمضت عينيها ، فقد انقشع الظلام المحيط ببصيرتها ، وبدا لها شبح زوجها لأول مرة وهو يدير رأسه إليها ، مانحا لها وجهه ، متمتماً في وضوح بكلمات يريد أن تبلغ أذنها هي وحدها. وتكرر هذا أيضا في منام لها بالليل .

وجاءتها كذلك علامة أخرى كانت تترقبها.. فقد عاودت الريح هبوبها بعد سكوت. من ناحية الجنوب هذه المرة.

واستجابة للنصائح التي تلقتها ، وللعزم الذي عقدته ، غادرت هي وابنها الفندق تاركين به معطفيهما الثقيلين وبعض متاعهما ، واعتليا الجبل من جديد للوصول إلى ساباسا والبقاء بها زمنا ..

وكانت صاحبة الفندق، الست ماريا، قد نصحتها بأن تقوم فيها ببعض التحريات، أما فيكتوريا فقد كانت لها نية أخرى ..

سطعت الشمس من جديد بقوة .

وعند صعودهما مع الطريق الرئيسي المتعرج على سفح جبل ستينشورا، وصل إلى سمعهما هدير للسيول ، ما لبث أن تحول الى زئير عند مروهما على قنطرة السد المبنية بالحجر المطلة على هوة سحيقة .

***

ونزلا إلى سوباسا مع ابتداء ذوبان الثلوج. وكان جريان الماء يصحبهما طول الطريق ، ونزلا في فندق السيد توما وزوجته .. لقيا فيه صداقة وضيافة.. جديدتين عليهما، وبقدر ما كان توما ضخما كثير الشعر ، كانت زوجته كاترينا ضئيلة، ولكن لا تقل ثرثرة عن الست ماريا زوجة فاسيلي ، باختلاف واحد.. هو أنها تتكلم بصوت خافت تريد أن تجعله نوعا من المسامرة .

واعترفت هذه لفيكتوريا في أول حديث لها أنها عاشت طوال عمرها وهي

ترهب زوجها وترتعد منه. حقا أنه يجيد تلاوة التراتيل، وربما خيرا من القس ، ويركع بخشوع صباح مساء أمام الأيقونة ، مع ذلك فإن سورة من الغضب تنتابه مرارا يكون معها في هياج واندفاع الكركدن، غير أنه رغم ذلك كله ليس بالرجل الشرير ، إذ ما يلبث أن يهدأ بعد أن يتبين له أن سبب هياجه هو نسيانه طول النهار أن يشرب قدحا ولو صغيرا من النبيذ ..

جلست فيكتوريا إلى المائدة مع صاحب الفندق وزوجته وروت لهما كل شيء فعلته أو رأته أو علمت به في سوها ، على الجانب الآخر من الجبل، وطلبت منهما النصيحة، وسألتهما أن يؤديا لها خدمة ..

واختلطت أفكارها ، فإذا كانت تسمع فإنها لا تعي ما ينطبق به مضيفاها من آراء عديدة، غامضة ..

أما عن الخدمة التي سألتهما أداءهما لها فإن السيد توما نهض من فوره عن المائدة مستعداً لأن يصحبها تلف في القرية.

ارتدى سترته الجديدة المبطنة بالفرو ومسح بكفيه شعره الطويل المنحدر على جانبي رأسه ، ولبس قلنسوته الفراوية وتناول عصاه المركونة وراء الباب ، وخرج تتبعه فيكتوريا التي كانت قد حملت من سوها عصاها البيضاء التي بدا أنها تريد أن تخرق الأرض بها في بيت العمدة، حملتها تحت إبطها كأنها أداة نافعة وإن لم يكن لها أقل نفع عندها .

وسلكا طريقا مبتلا بماء الثلوج الذائبة، وسكان القرية يحتمون من البرد بالتدثر بثيابهم الثقيلة وببقائهم في بيوتهم المبنية على سفح الجبل في مهب الريح . ندر منهم من يجسر على الخروج أمام باب بيته ليرى المارة .

وقال السيد توما :

– حين ينتهي ذوبان الثلوج سيخرجون من أكنانهم ، أما اليوم فأهل الجبل هنا في نعاس . هذه هي عادتهم .

فلا نوم عندهم أحلى من النوم في شهر مارس ، وكل الناس يعرفون ذلك عنهم .

وكانت فيكتوريا تتريث أمام بوابات بعض البيوت وتطل من فوق أسوارها الخشبية .

قال لها السيد توما وهو ينفض قلنسوته:

- لم نصل بَعد. أمامنا مسافة أخرى لنبلغ مقصدنا .

وعند منحدر على الطريق انعطفا إلى درب ضيق يؤدى الى فناء المزرعة .. كانت مزرعة تبدو عليها مظاهر العناية، قرع السيد توما بعصاه السور الخشبى فتعالى نباح الكلاب على الفور .

أسرعت فيكتوريا تفتح الباب لتكون أول الاثنين دخولا منه ، وقبضت على عصاها استعدادا للدفاع عن نفسها .

وسار السيد توما خلف ظهرها فأمالا رأسه ومدّ عنقه ليملك الرؤية ، فهو متحرق إلى معرفة ماسيحدث .

أقبلت عليهما ثلاثة كلاب ضخمة ، تضج بشدة، مالبث أكبرها - وكان فى الوسط - أن سكت وجمد ، فحذا الآخران حذوه ، ثم ابتعدا وهما يزمجران.

أما الكلب الذى كان فى الوسط فقد بقى مكانه ، مثبتاً نظرته على فيكتوريا .. هو كلب رعاة رمادى شعره طويل وأذناه وذيله مقطوشة جريا على عادة رعاة الجبل.

نقلت فيكتوريا عصاها إلى اليد اليسرى ومدت للكلب يدها اليمنى .

- يا سبع الليل .

نادته بصوت لم يفلح السيد توما فى التقاطه ، وإن كانت قد هتفت بالألفاظ من قراره قلبها .

***

إنه كلب زوجها ..

أخذ يهمهم بوداعة ويئن بحنان. ثم رفع خطمه وبدأ يلحس يد فيكتوريا وهى تربت عليه ، كادت فيكتوريا أن تتهاوى على الأرض من فرط الانفعال، ومن فرط الفرح على السواء ، لأنها كأنما وجدت فى هذا الحيوان بضعة من زوجها الذى اختفى .

الفصل الثالث عشر

السيد توما .. صاحب الفندق .. دقت على رأسه طبول كثيرة .

إنه يلم بالأحداث جميعها .. مع ذلك فلم يتمالك نفسه من الدهشة حين علم بمغامرة فيكتوريا ..

لم يكن السيد توما يتصور أن تنبرى امرأة .. ربة بيت .. لترحل من أعالى جبال تاركاو وتقوى على متابعة السفر حتى تبلغ جبال ساباسو وتعتمد على كلب زوجها .

وكذلك صاحب المزرعة التى وجدت عنده فيكتوريا سبع الليل ..

لقد دهش أشد الدهشة حين رآه يأتى إلى فيكتوريا حين نادته باسمه ، بل ويزيد من الفرح الشديد حين تعرف على سيدته، روى لها مجيبا على أسئلتها العديدة أن هذا الكلب كان ضالا فى مهاوى الجبل ثم أتى للمزرعة ذات يوم فى الخريف الماضى .

شوهد أولا وهو يدور حولها ، ثم اعتلى ربوة وأخذ يعوى عواء الكلاب الضالة، ثم نزل والتزم سور المزرعة ورقد على بطنه علامة على الاستسلام ..

تبين للرجل أن الكلب ضل عن صاحبه .. إذ مما لاشك فيه أنه كلب أحد الرعاة الذين مروا من هذه الناحية بقطعانهم، وأدرك لأول وهلة قيمته وحَدة ذكائه ، فإذا به يهتف من بعيد لزوجته لتأتى له بنصيب من العصيدة البائتة فأتت بها فى طبق وضعته فوق الأرض أمامه، فانقض عليها يأكلها دفعة واحدة بنهم شديد.

ثم اقترب من باب السور ينتظر أن يؤذن له بالدخول، فتحه له صاحب المزرعة فدخل بلا تردد، فما لبث أن تعرض لهجوم من كلبين هرمين يتوليان حراسة المزرعة، لم يهرب، لم يقابل الهجوم بهجوم مماثل، لم يكشر لهما عن

أنيابه، بل ثبت مكانه صابرا وقوس ظهره قليلا كأنه يريدهما أن يفهما من حاله أنه كلب ضال مسكين، يبحث عن سيد ورفقة ..

ثم اتجه بهدوء إلى مخزن العربات، فتقبله الكلبان بلا اعتراض ..

أطلق عليه خدم المزرعة اسم «نزيل» ففهم معناه وارتضاه لنفسه، وظل طول الشتاء أمينا على أداء واجبه، يحرس المزرعة من أركانها الأربعة ويستحل بذلك طعامه ..

***

اعترف صاحب المزرعة بحق فيكتوريا وقال لزوجته :

مادام أن هذه المرأة قد وجدت كلبها وأنها فى حاجة إليه ، فما علينا إلا أن نرده لها بلا نقاش ، لا نطلب منها إلا نفقة إطعامه عندنا، ولكن لن أغالى فى تقديرها وبالأخص لأنه كلب مالك لقطيع، ابن حلال، مفتقد الأثر .

كان هذا الكلب فى الأسابيع الأولى من إقامته معنا يهرب فى بعض الليالى الى الجبل كأنه يبحث عن شىء لا شك أنه يبحث عن صاحبه .

وهذا هو مصداق أقوال المرأة القادمة من تاركاو، لعله يبحث عن حدث فى مكان منعزل موحش، فلما نزل الثلج وغطى الأرض هدأ الكلب قليلا ، ومع ذلك كان يخرج من جديد لجولته فى الجبل، فإذا بلغه توقف طويلا كأنه يتدبر معضلة تحيره، ثم ينصرف ويرجع الى الدار. فهيهات أن تكون لكلب ذاكرة الإنسان ؟

لاشك أنه نسى أين كان الطريق ، فلا خروج له إلا للبحث عن سيده.

وأدركت فيكتوريا أن هاتفا ودودا أراد هدايتها ، فأوحى لها فجأة بأن تبحث عن الكلب .. فمن يكون هذا الهاتف ؟.

حقا أن جسد زوجها قد اختفى ، ولكن روحه هى التى جاءتها ولا ريب لتهمس لها بما ينبغى أن تفعله ، بل تعتقد أن الإيحاء جاءها أيضا من هاتف علوى ظل يصحبها ، لا تنفك تحنى رأسها له إجلالاً وخشوعا .

فكت شالها ودفعت لصاحب الفندق مبلغاً يفوق ما كان يؤمله ، قدر أولا أنها تعجلت ولم تستوثق من مقدار المبلغ الذى دفعته ثم خامره اشتباه بأنها قصدت دفع مبلغ فدفعت خطأ مبلغاً أكبر منه وهى لا تدرى ، فمد لها تحت بصرها خمس أوراق تسلمها منها قيمتها مائة لاى .. فأشارت إليه أنها مدفوعة له عن عمد لا عن خطأ ..

وكررت له شكرها ..

صحبها الكلب طائعا ..

له بين الحين والحين نبحات سريعة خافتة ، فكانت تحنى كتفها إليه وتربت بيدها على قمة رأسه، كانت تخاطبه فى سرها وتسأله ، هل سيصدق أملها فيه وهو سيصدق ولا ريب، فما كانت لتهتدى إلى هذا الرفيق لولا هاتف من عناية علوية .

أبقت الكلب إلى جانبها وقادته مرارا إلى المرتفعات، عسى أن يتذكر المكان ويهتدى إليه ، لعله لن ينجح إلا بمشيئة من الله .. بعد زمن .. حين تنحدر السيول وتنكشف الثلوج عن الأرض فيمضى الكلب من غور إلى غور، ومن سفح إلى سفح باحثا عن رفات سيده وسلاحه، أما جواد نيقيفور ليبان فلا ريب أنه اختفى، لعل الجناة باعوه فى سوق قريبة أو لعلهم دفعوه ليتردى فى هوة كصاحبه ويصبح طعاما للغربان ..

أدركت فيكتوريا منذ البداية أن حياتها ستصدمها أكبر فجيعة ، وأحست منذ أول يوم بانقباض شديد يعصر قلبها ، جزعا على زوجها ، وهذا - من جانب - أرحم لها ، فعلمها بموت زوجها لا يطعن كرامتها مثل علمها بأنه يخونها بين ذراعى امرأة أخرى ، على فراش امرأة أخرى ، ولكن مادام

القدر أراد له أن يموت والا وسيلة لانقاذه . فإن ربها قبل شفاعة قديسات دير بستريتا ، وهداها بعد تخبط ودوران، إلى المكان الذى تعثر فيه على زوجها .. عزيزها وحبيبها ، فتضم رفاته وتنقلها لتدفنها فى أرض مباركة، وبعد أداء كافة الطقوس الدينية، فيكون له قبر معروف . يرقد فيه بسلام.

أما الآن فهى منقادة إلى نصيحة زوجها السيد فاسيلى وإلى رأى السيد توما .. وترى أنه من الأصوب لها أن تمد طريقها إلى بوركا، لعلها تستفسر من جديد ، وفى مسرح الحوادث ذاتها ..

هل تأتى لأحد ولو صدفة ، أن يرى نيقيفور ليبان عائدا من ستتشورا، فإنه لو كان قد عاد ، فلابد أن يكون قد نزل فى الفندق الذى صادفه فى طريق سفره ، فمن ينزل فى فندق ويستريح إليه يعود له مرة أخرى إن لم يكن التماساً لطعام فإرواء للعطش ، أو على الأقل إكراما لصداقة مع صاحب الفندق ، وهى تعلم أن نيقيفور ليبان لم يمر هناك إلا مرة واحدة ، فقد رآه السيد توما وهو يوليه ظهره ، ماضيا فى طريقه فوق جواده بين زميليه من أهل الجبل .. أما أن يراه عائدا مقبلا عليه بوجهه فهذا هو ما ضاع الأمل فيه إلى الأبد .

كان ابنها غيورغيتا قد فرح أيضا حين رأى الكلب ، وربطه بسلسلة، كما طلبت منه أمه ، وأبقاه بجانبه بجوار الجوادين .

وبعد تناول العشاء نهض السيد توما عن المائدة وشد قامته الطويلة وطوح شعره الغزير وراء رأسه وقال إنه تذكر فجأة أن جريمة مماثلة وقعت ذات يوم وهو شاب صغير .. وكان مسرحها أيضا مرتفعات ستتشورا الموحشة ..

ولاشك أن القاتل لا يفلت من عقاب ربه .. فهو ملعون ومنته ، ولابد من وقوع التهمة على رأسه .. ستتعقبه الناس بل ستطارده وحوش الأرض كلها. فلو أتيح لنا أن نفهم هذا البلاغ الذى تنطوى عليه هبة ريح أو

صيحة طائر أو عويل حيوان أو فزع حشرة ، لما شق علينا أن نعثر على القاتل وأن نقبض عليه، إن يوم وقوعه فى يد العدالة آت لا ريب فيه وإن تأخر .. ولأن السيد توما رجل مستقيم خدوم فقد تطوع أن يربط جواده إلى زحافته ويقود فيكتوريا بنفسه ، إذا شاءت ، إلى بوركا ، ثم يعود بها إلى ساباسا ، ويكون لهم فى الطريق تريث واستقصاء حيثما وحينما يريدون ..

كان الأمر من قبل قاصرا على الشك ، أما الآن وقد اقتربت رحلتها من نهايتها ، فقد تحول الشك إلى يقين .. فمن المقطوع به الآن أن نيقيفور ليبان قد هلك على الطريق ما بين ساباسا وسوها ..

ولم يكد السيد توما يفصح عن رأيه هذا حتى اندفعت زوجته السيدة كاترينا فى البكاء وتقديم العزاء لفيكتوريا ، أما بنت الجبل فقد رأت هذه المرة أن الوقت وقت أداء واجب ومواصلة البحث وإنجاز عمل ، ستبكى فيما بعد ،أما الآن فليس عندها وقت لذرف الدموع ..

ومضت فيكتوريا وابنها غيورغيتا راكبين جواديهما إلى سوها يصحبهما سبع الليل طائعا ، وإن طوقته سلسلته ..

كانت السيول تنحدر بهدير من كل جانب ، ومالت الريح إلى الدفء ، وتربثا حين بلغا القمة ليلتقط سمعهما صوت تحطيم السيول لكتل من الثلج فى قاع من الوادى لا يدريان أين هو ..

وحلقت فوقهم غربان ونسور ولكن لم يهتف لهما واحدا منهما ببلاغ .

وصلا مع المساء إلى فندق السيد فاسيلى وكانت فيكتوريا تتوقع بحدسها أن تقع فيه على نبأ جديد ، فإذا بحدسها لايخيب ..

***

علمت أن قصتها قد ذاعت وأثارت اهتماما شديدا فى القرية وقال بعض أهلها أنه لابد من استقدام قاض للتحقيق ، حتى يتبين كيف تمت صفقة النعاج ويطلب إلى المشترين أن يقدما الأوراق التى تثبت أن النعاج بيعت فى دورنا ، ويقدما له أيضا الإيصال الذى تسلماه من البائع دلالة على دفعهما للثمن .

لم يكن هذا القول عن ريبة فى رجلين من خيرة المزارعين لا يتصور أنهما قادران على ارتكاب جريمة ، بل لأن العدل يقتضى أن يثبتا أن لا غبار على أمانتهما .

وتشدد بعض أهل القرية - ولا يدرى أحد من هم على وجه التحديد - وأعلنوا أنه لابد لهذين الرجلين المحترمين أن يوضحا أين تمت الصفقة ، ومن هم الشهود الذين حضروها وحضروا دفع الثمن كاملا عيانا بيانا .

فمن المحتمل أن الغريب أو الغرباء الذين حضروا الصفقة ، هم الذين تعقبوا ليبان وقتلوه وسلبوه نقوده.

وقد يكون شهود الصفقة - كما يحدث أحيانا - من الغرباء ، فلا يستطيع كاليستراث أو إيلى أن يذكرا أسماءهم . ولكن لابد لهما من الأدلاء بوصف تفصيلى لهيئتهم وملابسهم وجيادهم .

فقد يكون فى هذا الوصف إشارة واحدة تكفى وإن كانت ضئيلة ، لتعقب المتهم والقبض عليه .

وأقبلت السيدة ماريا زوجة السيد فاسيلى صاحب الفندق تقول لفيكتوريا بانفعال :

- عندى لك أخبار جديدة ، تصورى يا عزيزتى فيكتوريا أن زوجة بوغزا عادت فتذكرت - كأنما فجأة - أننى صديقتها وجاءت تزورنى ، لم أقدم

ماء ولا قهوة ولا مربى ، يكفيها ما تجده عند حبيبتها زوجة العمدة، ولكنى دعوتها للجلوس .. فما الذى قالته لى حسب ظنك ياعزيزتى فيكتوريا؟.

أتتصورين أنها ذكرتنى بما بيننا من قرابة ، وقالت إنها جاءت تزورنى لتعرف مصدر هذه الإشاعات الخبيثة التى تلاحق زوجها ، فأجبتها ومن أين أعلم يا نور عينى ، لعل مصدر هذه الإشاعات هم أصدقاء أو صديقات عزيزات عندك. حلال عليك محبتهم لك .

ثم إذا بى أراها تستدرجنى فى الحديث بأسئلة عديدة لتعرف هل بنت الجبل القادمة من تاركا قد عادت لقريتها ، وماذا كان مطلبها ، فأجبتها أنه ليس لك مطلب محدد ، وأنك هائمة فى البلاد على وجهك من فرط حزنك على زوجك ، فإذا بالست إيليانا تنخرط فى البكاء ، ثم قالت أنها أسفت لاستدعاء زوجها إلى بيت العمدة ، فإن هذا الاستدعاء هو الذى أثار الشائعات الباطلة، وكان أجدر ببنت الجبل أن تذهب لمقابلة زوجها فى بيته. إذن لأكرمها - كما تقول - وقدم لها قدحا من النبيذ - وطيب خاطرها - بل وأضافت أن زوجها كان جديرا بأن يساعدك فى البحث عن الجناة إن كانت قد وقعت جريمة.. فأجبتها بنعم هناك جريمة.. وهناك جناة ..

ذلك شىء مؤكد ..

بل ومن المؤكد أيضا أن أمرهم سينكشف قريبا .. أما عن بنت الجبل فأنا أوافقك على رأيك ، كان ينبغى أن تذهب إلى بيتكم ..

وابتسمت السيدة ماريا بخبث .. فابتسمت فيكتوريا أيضا دون أن تنطق بكلمة.. واستطردت السيدة ماريا بنفس الخبث تقول :

- وبعد هذا الحديث قامت وانصرفت ، وهى لا تخفى خيبتها .

ثم لم تكد تمضى ساعة واحدة حتى قدمت زوجة الآخر ..

- هل جاءتك جافيتا أيضا ..

- نعم ، جافيتا زوجة كوتوى بشحمها ولحمها ، هى أكثر أناقة من صاحبتها ولكنها أقلّ ذكاء منها وانطلقت فى حديث متشعب لم أخرج منه بشىء ، فجاريتها وأسمعتها ما تنتظره على لسانى من مديح لأناقتها تارة، ولجمالها تارة .

ثم قلت لها :

- من المؤسف حقا أن يغتابك الناس ، وبالأخص إذا كانت الغيبة من صديقة عزيزة عندك ، لا أذكر اسمها حتى لا أتسبب فى الوقيعة بينكما، فهى كما قلت صديقتك ، بل هى زوجة رفيق لزوجك كوتوى ..

فسألتنى :

- هل تكون هى إليانا ؟

فأجبتها بهدوء لا، ليست إليانا ..

فقالت : لا شك أنها إليانا، لا تكذبى على ، فماذا قالت عنى ؟

فأجبتها أننى لم أقل إنها إليانا .. وإنما كانت تلك التى إغتابتك فانها لم تنسب لك شيئا اختراعا من عندها ، بل كانت تكرر ما يتحدث به أهل القرية جميعا من أن رجلا يعرفون من هو يزورك فى بيتك بالليل حين يكون زوجك غائبا فى مربط نعاجه .

فلما سمعت هذا الكلام انطلقت منها صرخة فز لها زوجى من مقعده ، ولو أنه كان فى ردهة الحانة بعيدا عنا .

وقالت : هل بلغت بها الوقاحة والجرأة إلى هذا الحد ؟

أليست زوجة بوغزا هذه التى تغتابنى هى مدينة لزوجى لأنه أنقذها من مخالب الفقر ، فقلت لها :

- لم هذا الهجوم على صديقتك إيلينا وأنا لم أذكر لك أنها هى التى

اغتابتك؟، أجابتنى :

أنا خبيرة بها وأعلم على أى شىء هى قادرة ، إنها فى الكنيسة لا تنفك ترقبنى لترى كيف تخيرت ملابسى ، وتدل نظرتها على أن الغيرة تنهش قلبها ، لماذا لا تنشغل بحالها بدلا من انشغالها بحال غيرها من الناس .. فلست أنا امرأة مثلها يدفعها زوجها المخمور فى ركن ، وينهال عليها ضربا ، ثم إن زوجى لايخطرف فى نومه كما يفعل زوجها فى أحلامه المزعجة..

***

انقطعت السيدة ماريا عن الكلام وتبادلت نظرة سريعة مع فيكتوريا التى ارتعشت أجفانها وتقطب جبينها .. وقالت بهدوء :

- سأذهب لزيارتهما غدا .. والتمس منهما الصفح عنى لأنى كنت مصدر متاعب لزوجيهما ، إننى متلهفة على معرفة أسماء شهود الصفقة ، وأوراق البيع والشراء وإيصال دفع الثمن ولكن همى الوحيد الآن أن أعرف كيف أحملهما على الفضفضة لى بما عندهما .

فأنا أعرف مثلك يا ست ماريا كيف أقول كلاما من قبيل الاستفزاز وتسميم الدم ، فلا يكتمان عنى أسرار قلبيهما به إلىّ ، وإلا فلن أبالى بهما وأتركهما لحالهما، فليس من حقى أن ألقى التهمة جزافا على أبرياء ، لا هم لى إلا أن أعثر على زوجى ، سأقيم له صلوات فى الكنيسة حتى تنزل السكينة على روحه ، قد رأيته فى آخر حلم لى مقبلا نحوى بوجهه ، إنه كان يناديني إليه ..

***

تدارست المرأتان طويلا كافة الأحتمالات حتى أهتدتا إلى أفضل الحلول.

سيقوم السيد فاسيلى من غد صباحا باستدعاء بوغزا وكوتوى للاتفاق معهما على صفقة من الجبن يتعهدان بتوريده للفندق ، ثم لتسوية حساب سعهما ، كانت تؤجل من موعد إلى موعد طوال الشتاء ، أما الآن فقد أقبل الربيع ، وبدأ موسم نشاط التجارة ..

سيقومان إذن من نجع شجرتى التفاح لتوقيع العقود وقبض العربون ، ولابد وفقا للعرف فى مثل هذه الأحوال من تبادل الدعوة إلى الشراب ومن دردشة غير قصيرة ، ويكون غيورغيتا حينئذ مختبئا فى المخزن بأقصى الفناء حتى لا يبصره الرجلان ويعلمان أنه حضر مع أمه وتتسلل الست ماريا وفيكتوريا وتذهبان معا أولا إلى بيت بوغزا ثم إلى بيت كوتوى ، أو يتقاسمان المهمة فتذهب واحدة منهما ، منفردة إلى كل من المنزلين بالتناوب، والقصد أن تطبقا الخناق على الزوجتين وإرباكهما بأسئلة محيرة وتقليبهما على جمر قليلا قليلا حتى يكون لهما التواء كالدود .

ستحكم فيكتوريا بنفسها على مقدار ما تعلمانه عن أفعال زوجيهما أو حتى من أسرارهما التى لم يفضيا بها إليهما بعد انتزاع أيمان مغلظة بالكتمان ، وتستطيع بنت الجبل بعد ذلك أن تستأنف طوافها للبحث عن زوجها ، وتبقى الست ماريا حيث هى لتحكم نسج خيوط الشبكة التى تصطاد الجناة ..

***

لا ريب أن المولى سبحانه هو الذى يعلم وحده كل الحقيقة ، لكن هم الست ماريا ومنى عينها أن ترى زوجة كوتوى فى ورطة تجنى على أناقتها..

فلقد عادت المرأتان من الزيارتين دون أن تسفر تحرياتهما إلا عن معلومات ضئيلة .. ودخلتا الفندق وهما تتبادلان الرأى والحكم فى انفعال شديد ، وامتطت فيكتوريا جوادها لأنها اعتزمت أن تجتاز الجبل مع ابنها غيورغيتا ..

القنوات التى تنحدر فيها السيول بدأت تفرغ من الماء .. وانحسر ذوبان الثلوج عن الطريق فانفتح لسير العربات ، وانبعثت من غابة أشجار الصنوبر همهمات لطيفة ، وتصاعدت أنفاسها كلها بخار يجللها .. وما بين الأشجار أرض غمرتها الشمس بعد الثلوج ، فكشفت عن ثرى خصب ، وبدأت البرارى تكتسى بالخضرة .

ووجدت فيكتوريا على حافة حفرة بين أوراق شجر جافة زهورا من الأقحوان يتألق بياضها ، فترجلت عن جوادها لتقتطفها وتملأ عينيها برؤيتها فوق سيقانها الرشيقة ، ثم رفعت رأسها للسماء وتشممت أريج الغابة ..

لفت اللجام على ذراعها وسارت فى مدق بجانب الطريق ، تتجاوب فى كيانها كله أناشيد الربيع المختال بمقدمه ، تمنح وجهها للشمس وتفتح قلبها للجذب، ولكنها تحس فى الوقت ذاته أن هذا القلب قد ذبل ، مثل هذه الزهور البيض التى تمسكها ما بين أصابعها ، وتراها قد رثت سريعا ، وفقدت نضارتها ..

بدأ الكلب ينبح بطلب الفكاك من سلسلته ..

أثار ذلك انتباه المرأة فقالت لابنها فورا :

– أطلقه يا غورغيتا ..

***

ترجل الابن وفك السلسلة عن رقبة سبع الليل، لكن الكلب لم يحاول الابتعاد ، وأخذ يجرى حولها هنا وهناك وخطمه مرفوع للشمس ، يبدو عليه أحيانا أنه على وشك العطس .

فرج شفريه كشف عن أسنانه ، وأخذ يتشمم ويملأ منخريه بالروائح التى تنفثها الغابة ..

وأخذا يصعدان الجبل .

كانا يتحركان خطوا مجتازين قنطرة بعد قنطرة حتى إذا بلغا القمة تريثا ..

الكلب باق على ترقبه ، أقعى على ساقيه الخلفيتين وهو يتأمل الوديان السحيقة بنظرة تماثل نظرة الإنسان .. يشوقه أن يعجب بجمال الطبيعة ، هذا هو مالاحظه غيورغيتا مرارا ، فغمز بعينه لأمه ينبهها إلى حال الكلب وهو يضحك .. فقالت له بلهجة جادة ..

- سبع الليل يحب أن يرى الدنيا هو أيضا ..

وبدأ نزولهما على السفح المواجه - لقرية ساباسا ، وحين بلغا القنطرة الثانية ، وقف الكلب واضطرب كأنما تملكه القلق فجأة ، وأخذ يهاجم الجوادين وهو ينبح كأنما يريد أن ينهال عليهما عضا ..

قال غيورغيتا وهو يعجب لمسلكه ويحار فى فهمه ..

- لا أفهم ماذا جرى اليوم لسبع الليل .. وكنت فى الصباح أربطه إلى جانب فى مخزن السيد فاسيلى فأراه يريد أن ينطلق من السلسلة من كل بد، ويزمجر بصوت كالرعد يأتى من بعيد.

قالت له فيكتوريا :

- هل فعل هذا ؟

- نعم :

ولم يهدأ إلا بعد وقت ، أى بعد أن انصرف الزائران الآن فماذا به الآن حتي تفتر رغبته فى الانطلاق ..

- لنر ماذا يريد ، فلنقف هنا ..

كف الكلب عن مهاجمة الجوادين وعدل عن صب غضبه عليهما ليصبه الآن على فيكتوريا وابنها ، تسلل وراء سور حافة الهاوية وبدأ ينزل إلى قاعها .

تزحلق مسافة غير قصيرة على المنحدر ، حتى بلغ أرضا حديثة انكشفت لثلوج عنها ، فلمعت تحت أشعة الشمس ، ثم عاد الكلب يصعد إلي الطريق، واندفع يغرز أسنانه فى ذيل معطف غيورغيتا ، فضربه الشاب بقدمه ، فنزل مرة أخرى إلى الهوة طبقا لما فعله أول مرة ، دون أن ينقطع له نباح .

قالت بنت الجبل :

- يا ولدى .. افعل مثلى ، اربط جوادك إلى شجرة واهبط بسرعة وراء الكلب ، لقد سبق له النباح فى هذا المكان بالأمس ، ونحن نصعد هذا السفح ، لكنه لم ينطلق لأنه كان مربوطا ..

- لماذا أهبط المنحدر ، لعل هناك مدقا يصلح للنزول براحة ..

- قلت لك أهبط وراء الكلب ، فإنى أسمعه ينبح ، لابد أنه عثر على شئ ..

اندفع الدم إلى وجهها فجأة ولمعت عيناها ، ففهم الشاب أن لا مفر .

دخل وراء سور حافة الهاوية المبنى بالحجر ، وبدأ ينزل إلى الهوة وهو محنى يغرز قدميه فى الأرض ويسند فوق كفيه ..

وانحنت المرأة فوق الهاوية لتنظر قاعها ..

كان غيورغيتا حينئذ قد بدأ يتزحلق ببطء على المنحدر الرطب ، فيقلقل أحجارا صغيرة تتدحرج إلى الهوة ..

الكلب غير مرئى لكن نباحه مسموع من قاع الهوة ..

* * *

أبصرت فيكتوريا ابنها معتدل القامة وهو يخطو بحذر على جانب المنحدر القاسى .. وفجأة وثب إليها هتاف مرعوب ، أدركت عن يقين سببه ، فأحكمت لف ثيابها حولها وألقت بلمتها إلى أمام ، ثم تركت جسدها يهبط

على المنحدر وراء ابنها حتى وصلت إلى القاع ، والعروق تنبض بعنف على صدغيها .. بينما الكلب ينبح بقوة ..

رأت غيورغيتا واقفا يهتز متشنجا بالبكاء .

أسند جبهته إلى ذراعه الأيمن وأخفى عينيه ..

فلقد انتشر على الأرض أمامه بياض عظام متناثرة ، تنز غضاريفها بالرطوبة .

هذا هو حذاء نيقيفور .. وذلك هو جرابه .. ثم حزامه الجلدى وقلنسوته من الفرو الرمادى .. كلها أمامها . أما هو فقد نهشت الوحوش جثته ..

وإلى جانبه غير بعيد ، عظام جواده ، وقد تكوم فوقها السرج والسجادة..

إنه أيضا كصاحبه .. نهشت الوحوش جثته .. ندت من المرأة صرخة عالية مشروخة :

- يا غيورغيتا ..

انتفض الشاب وأدار نحوها رأسه ، لكنها لم تكن تناديه ..

بل تنادى زوجها ..

فذلك هو اسمه عند مولده .. متكتم إلا بينه وبينها .

ركعت وجمعت على عجل العظام المتناثرة ، وضمت الأشياء بعضها إلى بعض .. أما جمجمة الميت .. فقد كانت مشقوقة بضربة من بلطة ..

* * *

الفصل الرابع عشر

فى حركة محمومة، ولكن بدون ذرف للدموع ، أدت فيكتوريا أول واجب وقع على عاتقها ، متاع زوجها تفشت فيه الرطوبة وفاح بالعطن ، تخيرت من بينه سجادة وسترت بها رفات ليبان .

ابنها غيورغيتا أسقط فى يده .

بدأ بعد لأي يدرك أن الذى يراه أمامه هو كل ما بقى من أثر لأبيه .

بكى كالطفل الصغير فتورمت عيناه وانفجرت شفتاه ، وظلت فيكتوريا واقفة وقد عقدت ذراعيها على صدرها وهى تتلفت حولها ليستقر المكان فى ذاكرتها ..

من فوقها وابتداء من السور على الطريق يهبط إليها المنحدر بميل قاس كأنه القمع لهوة سحيقة ، فى قسمه الأعلى ضعف قابل للانهيار فتقيم له جدار يسنده . ما بين هذا الجدار من فوقها والشق الذى تقف فيه مسافة لا تقل عن عشرين متراً، والسفح حيث هى له تجويف حانته مقببة تغطيها الأعشاب وتحوطها قطع من الحجارة ، ومن تحتها الهوة تزداد اتساعا .

إنه مكان شديد الضيق ، شديد العزلة ، شديد الاختفاء ، أشعة الشمس وحدها هى التى تصل إليه وتغمره . لا مدق يؤدى إليه ، ولا معبر عنده لمكان آخر مجاورا ، هنا أراد القدر لنيقيفور ليبان أن يسقط كأنما فى قعر بئر ، ضربته ودفعته يد عدو . فلم يتأت لأحد أن يشهد مأله الفظيع ، يمر المسافرون من فوق على الطريق، وهم لا يدرون ماذا تحتهم .

حتى الرعاة .. هيهات أن تحدثهم نفوسهم بالاقتراب بقطعانهم من مثل هذا المكان .

لم تبق إلا شمس الخريف فى شروقها وغروبها تبعث أشعتها لتربت على رفات الميت والجواد المحطم ، ثم هبط المطر الكثيف كأنه ستارة من العتمة فوق الجثتين ، وأحاطت بهما أسراب العقبان والغربان تلتزمهما ولو سهرت الليل بطوله ، وخرجت الوحوش من كهوفها فى بطن الجبل وغرزت مخالبها فى الجثتين لتسمرهما فوق الأرض وأعملت فيهما أنيابها ..

كلب نيقيفور وحده هو الذى شهد كل ما حدث . ثم التزم المكان دون أن تغمض عينه إلى أن دفعه الجوع إلى التماس صحبة من ناس ، ولما وجدهم عاد للمكان بين الحين والحين وجمد عنده يترقب ، ثم هبط الثلج ذات يوم وغطى الفجوة .

إرادة المولى وحدها هى التى قضت بأن تتولى الشمس إزاحة الثلوج عن هذه المغارة لكشفها، إنها السبب فى أن يشم الكلب رائحة الرفات وهو مار على الطريق فينبح وينبه فيكتوريا ..

ورأت فيكتوريا أن ابنها لم يتمالك جأشه بعد ، فقاست بنظرتها المسافة بينها وبين سور الهوة ، من فوقها ، وتدبرت الوسيلة التى تعينها على صعود المنحدر لكى تبلغ الطريق .

تحسست الأرض فى بعض المواقع بقدمها ، تبحث عن موطئ لها مأمون ، وأخذت تتعلق بذراعها على ما تجده فى الصخر من نتوء يسعفها حتى وصلت بعد تعرج وبشق النفس إلى الطريق ، وهتفت لابنها غيورغيتا :

- لى مطلب من صعودى إلى الطريق وسأعود إليك فورا ..

فلما استقرت على الطريق انحنت فوق الهوة ونادت سبع الليل إليها فطلع إليها ببطء متعقبا أثرها ..

جعلته يقف لحراسة الجوادين حتى تستأمن عليهما من عابرى الطريق .

ثقبت فى متاعها ونزلت على السفح ومعها علبة كبريت ، شعلتها وثبتتها فى ركن مستور من المغارة ، بجانب رفات زوجها

كل حركاتها ونظراتها تفصح عن القوة الهائلة التى تجندت فى كيانها

استقرت على رأى، فقالت لابنها :

- يا غيورغيتا . ستبقى أنت هنا لحراسة رفات أبيك . أما أنا فسأهبط من الجبل بسرعة إلى قرية ساباسا لأبلغ الخبر إلى أهلها وسأعود مع نسيد توما وعربة أنقل عليها الرفات إلى القرية لأداء الطقوس الدينية اللازمة.

أجابها وهو يشهد :

- أمرك يا أمى . سأبقى هنا كما أردت .

طلعت إلى الطريق وركبت جوادها ومضت، تاركة سبع الليل مع الجواد الآخر .

ثبت الشاب نظرته على الشمعة الموقدة لا يكاد يتبين نورها من شدة الشمس الهائلة التى يعشى لها بصره ، ساقه مألوف طبعه إلى الجلوس غير بعيد ، مديرا ظهره للسجاد الفلاحى الذى تناثر فوق العظام والغضاريف ، والشعر ومتعلقات أبيه ، ليس التقزز على وجه التحديد هو الذى يجده فى نفسه ، بل هو مأخوذ بمشهد مرعب لم يسبق له أن رأى طول عمره مثيلا له .

رفع رأسه ومد بصره بعيدا فأدرك أنه فى مكان منعزل تمام الانعزال ، مضيع تحت قبة السماء ، بين الصخور ومخاطر الهوة ، الغابة قريبة ، وبقى شئ من الثلج متجمعا كالجزر الصغيرة فى باطن الاغوار ..

وفجأة أصبحت الشمس لا تلحق إلا رءوس الأشجار والقمم العالية ..

ورأى بطرف عينيه أن نور الشمعة زاد وضوحا فى جوف المغارة . ثم

ساد الصمت كأن كل شئ قد جمد وتحجر ، فجمد هو أيضا فى مكانه .

ينصت إلى دقات قلبه .

ثم ارتجف حين انطلقت من فوقه طى ضوء فى صبغة من الذهب ، صيحة نسر ، تكررت مرة بعد مرة ، ورآه يحوم فوق رأسه وقد فرد جناحيه .

قد يقال إنه يرقب الشاب بنظرة فاحصة ، وصلت إليه من بعيد صيحة مماثلة . فاتجه إلى مصدرها هذا النسر المحوم فوق رأسه ، وخلت السماء ثم ما لبث أن هبط من هذه السماء الخالية ظلام الليل كأنه غلالة من ندف الثلج .

امتحن الشاب نفسه فحكم أنه غير خائف ، ولو أنه كان يتمنى أن يجد بجانبه إنسانا .. أما الكلب فواقف فوقه على الأرض .. لم ينبح إلا مرة واحدة ، أما الآن ، فهو صامت مع هبوط الليل .. وهذا دليل على أن المرور على الطريق قد انقطع ..

للنجوم لمعان . وللريح أحيانا هبة مفاجئة ، وسمع غيورغيتا زمجرة وحش فى بطن المغارة فقال لنفسه :

- لعلى واهم .

ومع ذلك كان الغم يكويه ويخترمه كصعقة البرق من جوفه إلى مخه ، فر واقفا ، وبدأ يتسلق المنحدر كما فعلت أمه ، ينشب أظفاره فى الصخر ..

ويتحسس .. وهو مقوس الظهر نتوءا يستند عليه كعب حذائه ، حتى وصل وهو يلهث ويتصبب عرقا ..

استقبله الجواد بصهيل خفيف ووثب إليه الكلب وبدا له أن الطريق أقل اظلاما ، عما قريب سيطلع القمر ويغمر الكون بضوئه ويصل به إلى بطن الهاوية ، لا ريب أن الميت قد هب واقفا فى المغارة ، متدثرا بثيابه مطالبا بأن تقام له الطقوس الدينية التى حرم منها .

وأصاخ غيورغيتا سمعه ، لم يطرقه إلا حفيف النسيم . وخيل إليه أن أذنه التقطت مرة وقع أقدام تتفحص الأرض فى بطن الهوة ، ومرة صوت همهمة من حوله .. ثم تبين له أنه يسمع صدى هدير السيول البعيدة ..

وحين تقدم الليل عبرت أسراب من الطيور المهاجرة فوق أشجار الصنوبر تحت ضوء القمر ، وفى قلب الجبل الموحش المتفرد بقبقت مياه الربيع ورمت الحياة من جديد ، بقنطرة فوق هوة الفناء ..

هل أصبح لنيقيفور ليبان إذن نشور يتمثل فى وقع أقدام أو انطلاق اجنحة أو صياح مدو ؟

أحس الشاب من حوله رعبا متكتما نابعا من جذور ممتدة إلى قلب الأرض .. أخذ يخاطب الجواد والكلب بكلام لا معنى له .. أراد أن يزجى فراغ وقته فانشغل بإخراج مخلاة الشعير .. ثم بحث عن مكان يرقد فيه ويتغطى بسجادته ، هدأت أصوات الليل ، وهن جسده ووهن تشوقا للنوم ، فإذا به يسمع سبع الليل ينبح فجأة تجاه الوادى .

هب واقفا على الفور فصدمت جبهته المخلاة المعلقة برقبة الجواد ، وهتف بخوف :

- من هناك ؟

فلم يجبه إلا الكلب بنباح جديد ، ثم صمت ، وتبين الشاب فى الصوت الشامل المحيط به صوتا لقعقعة كأنها دقات جرس منبعثة من حديد مفصلات عربة نقل سائرة ، ثم تهادت إليه نداءات زادت اقترابا منه ، فعرف صوت السيد توما .

عادت فيكتوريا لا فى صحبته وحده .. بل أيضا فى صحبة عمدة القرية وأحد حراس الغابات ، وقفوا عند سور المغارة وفكوا الفرس من عربتهم ، واوقدوا نارا من كوم صغير من الحطب. كان أول كلام لفيكتوريا مع ابنها هو سؤالها له :

- هل الشمعة لا تزال مشتعلة ؟

أجابها بتردد :

- أظنها لا تزال مشتعلة .

أجابته بعتاب :

- يا سبحان الله . ألا تدرك يا بنى كم كان واجبك مهما ، اهبط وتحقق مما تقول .

إليك بهذا القنديل الذى أخذته من الكنيسة . فعليه علامة الصليب ، أشعل شمعته وضعه على رأس أبيك . اعلم أننا لن نستطيع نقل رفاته لا اليوم ولا غدا فى أغلب الاحتمال ..

فعلينا السهر حول رفات أبيك مالزمنا السهر، وقد طلبت إلى القس تيودوراكا أن يحضر لإقامة صلاة هنا ..

أجابها وقد اغبر وجهه :

- ولماذا لا نستطيع نقل رفاته فورا ؟

- هذا غير ممكن فهناك إجراءات لابد لهم من القيام بها ..

- من تعنين ؟

- رجال الحكومة ، فلهم إجراءاتهم ، ينبغى ألا يلمس أحد شيئا هنا .. إلى أن يصل وكيل المأمور الذى قابلناه فى فاركاشا ، ثم يعقبه الطبيب الشرعى ووكيل النيابة ..

- وما الداعى لحضورهم . ماذا يريدون منا ؟

- لا مطلب لهم عندنا .. ولكن مطلبهم هو الميت . ليعرفوا سبب الوفاة ، فلابد أن يثبت لهم أنه مات مقتولا من قبل أن يبحثوا عن الجناة . ولقد بح صوتى فى مناشدتهم أن يتركونى أنقل رفات زوجى بهدوء وأقيم له الطقوس الدينية .

فنهض السيد توما - وها هو واقف أمامك ونصحنى ألا أتدخل وإلا رمانا القاضى فى الحبس ، فاضطررت إلى الاستسلام ، فلا حيلة لى، ليفرغوا سريعا من إجراءاتهم ويدعوا لى زوجى ، لن يبقى لهم بعد ذلك مطلب منى ولا يبقى لى مطلب منهم ..

تدخل السيد توما بلهجة غاضبة :

- حيلك يا ست فيكتوريا ، إنهم لا يصدرون عن غلظة قلب ، بل هى إجراءات يراد بها الكشف عن القاتل ..

- لا تغضب يا سيد توما ، أتظن أن إلقاء نظرة على الرفات يؤدى إلى العثور على القاتل ..

- ليس النظر إلى الرفات هو كل ما سيفعلونه ، فأنت تستطيعين مثلا مدهم بما عندك من معلومات وشبهات .

هتفت له بدهشة :

- أنا ؟

وكانت قد مدت نظرة من طرف عينيها إلى الجمع الذى جاء معها من ساباسا ، ثم صمتت وسترت فمها بكفها الأيسر .. واستطردت ، بعد لحظة تقول بصوت رقيق :

- أشكرك يا سيد توما من كل قلبى على عونك لى ، أريدك أن تتكرم بارسال العربة لى من غد أيضا ، ويأتى معها القس كما التمست منك ، من قبل ، سأدفع لك كل ما تطلبه ولن أنسى أبدا جميلك .

ضع فى العربة بجانب القس عشرين رغيفا وأقتين من الزيتون وعشر سمكات مملحات وخمس زجاجات من خمر الزبيب ، وقيد كل هذا على حسابى فى سجلك ، مع حساب ماوافيتنى به الآن ، سأفرق كل هذا إكراما لروح الميت وأعطيه لمن يريد الحضور سواء ليروا الرفات أو ليسهروا حوله، إننى سأعجل الآن بدعوة حضرة العمدة والخفير للمشاركة فى رحمة الميت،

فاذهب يا غيورغيتا وانتزع من تحت العلف إبريق الخمر واحضره إلى هنا وضعه بجانب النار ..

* * *

طاب للرجال شرب الخمر ومنحوا فيكتوريا ابتسامة عبرت اليها من خلال لهيب النار، كانت هى التى صبت الخمر فى قدح واحد أدارته عليهم فشربوا منه جميعا دون أن يفوتهم الترحم على الميت، وكان دعاء السيد توما بالأخص هو الذى نفذ إلى قلب فيكتوريا:

– رحمتك يارب بنيقيفور ليبان، واغفر له خطاياه التى تعمدها والتى لم يتعمدها . وامنحه يارب يمنك وكرمك، منذ هذه اللحظة رقدة فى أرض مباركة .

ولما رأت فيكتوريا أن المأمول منها حينئذ هو التعبير عن حزنها بقطرات من الدمع وأنها من قبل أن تشرب من القدح قد صبت قدرا من الخمر على الأرض ، هدية للميت .

كان هذا رأيها منذ أن أسفرت لها حقيقة الفاجعة عن وجهها .

ونزل غيورغيتا بالفانوس إلى المغارة، وبقى الآخرون على الطريق ينتظرون مطلع الفجر وهم يجلسون حول النار ويشربون من إبريق الخمر بين الحين والحين .

وفى الصباح هبطوا هم أيضا إلى المغارة ليتأتى لهم بدورهم اكتشاف الرفات ورؤيتها .

وعاد السيد توما إلى القرية ومعه حارس الغابات، استجاب لرجاء فيكتوريا واستأجر جوادا ثم بعث بالحارس إلى وكيل المأمور السيد أناستاس بالميز برجاء أن يسرع فى إنجاز الإجراءات الرسمية، هذا رجاء الأرملة، إنها تتقدم به والدموع فى عينيها وتبدى استعدادها لدفع كل الرسوم المقررة .

ورضى القس أن يأتى إلى المكان خلال النهار ، ووقف بين سلة الأرغفة وأباريق الخمر فاستطاع بشق الأنفس أن يهبط إلى المغارة مع أن فيكتوريا كانت قد مهدت له فى الصخر تدرجا من نتوء ليستند إليه، والقس رجل هرم اكرش، فلم يكن من السهل عليه أن ينزل إلى حيث تستدعيه وظيفته الدينية.

لبس وشاحه ومسح لحيته البيضاء بكفه وفتح كتاب الصلوات وقرأ منه صلاة موروثة من قديم، يتريث بين الحين والحين ليلتقط أنفاسه ، ورفعت فيكتوريا عن الرفات طرف السجادة لكى يتأتى للميت أيضا أن يسمع الصلاة وأن يمد إلى السماء نظرة من فراغ محجريه، هذا بينما كان الفلاحون والمارة لايتريثون لسماع الصلاة، بل ليكون لهم نصيب فى الخمر والخبز المفرق على الميت، وانبرت النسوة يحكين لمن يريد استماع كل التفاصيل .

وتسربت إشاعة من قرى الجانب الآخر من الجبل محمومة على جناح الريح أو سارية فى بطن الثرى تقول إن الجناة هم رعاة يسكنون تلك النواحى.

استمعت لها فيكتوريا بانتباه واعتزمت من كل بد أن تزور صديقتها الست ماريا، لتدعوها إلى قداس الدفن ، ولتعلم منها هل فضفضت بعض الأفواه وماهى حصيلة آخر تحرياتها .. بل عرفت شيئا من السرور حين تصورت إن إنسانا قد بقى هناك لايكف عن الاستقصاء والاستجواب.

ولم يستطع رجال الحكومة أن يحضروا لمكان الجريمة إلا فى اليوم الثالث ..

* * *

أوشكت فيكتوريا أن تدير ظهرها لحديث يجرى بين أناس لا زوجها من معدنهم، ولا هم من معدنه، وجدوا الرفات ونظروا إليها وتولى واحد منهم فحص الجمجمة، ثم كتب على ورقة نتيجة المعاينة، وجرح قلب بنت الجبل

لأنها لم تر واحدا منهم يفكر أو يتنازل أو يرسم علامة الصليب أو ينطق بكلمة واحدة فيها ترحم على الفقيد .

وتذكر السيد أناستاس باميز وكيل المأمور أنه قابل بنت الجبل من سابق فسألها :

- أهذا هو رفات زوجك الذى تبحثين عنه ؟

- نعم هى لزوجى يا حضرة وكيل المأمور .

- أرأيت كيف صدق حدسى، فقلت لك إن اللصوص قتلوه وسلبوا ماله.

أجابته برفق :

- نعم يا حضرة وكيل المأمور، ولكن بعض النقود لاتزال هنا فى كيسه، وكذلك حزامه الجلدى لم ينهبه اللصوص .

- إذن .. أيكون الدافع على القتل هو الانتقام لا السرقة ؟

- وكيف يجول بالخاطر فكرة كهذه ، إنه منذ دورنا كان مسافرا فى صحبة أصدقاء .

أجابها بلهجة لاتخلو من الدهشة .

- ومن هم هؤلاء الأصدقاء ؟

* * *

رأت فيكتوريا من واجبها أن تروى له كل ماعندها من علم عن الحوادث التى وقعت بعد صفقة النعاج فى دورنا . وكيف أن زوجها قد قطع الطريق إلى المكان حيث هى واقفة الآن راكبا جواده مع زميلين صديقين هما الآن لايزالان يسكنان وراء جبل ستتشورا فى نجع يسمى نجع شجرتى التفاح ، وهما يؤكدان أنهما اشتريا نعاجا من ليبان ودفعا له الثمن .. فلم يبق لزوجها بعد أن قبض النقود فى القرية الجبلية إلا أن يفارقها ويأخذ طريقه للعودة إلى بيته .

فمن المحتمل يا سيادة وكيل المأمور أن أحد شهود الصفقة بينه وبين صديقيه وما صحبهما من دفع وقبض للثمن قد تعقبه وضربه ونهب منه ثمن الصفقة. فليس هناك احتمال اخر فى رأى فيكتوريا لأن صديقيه كالسترات بوغزا وإيليا كوترى، أكدا لها ذلك .. فالواضح أن نيقيفور ليبان لم يجد فرصة ليضع ثمن الصفقة فى كيس مع بقية نقوده.. كان لايزال قابضا عليه بيده فضربه القاتل ونزع النقود من يده ، إذ أنه سقط فى الهوة فورا بعد الضربة الأولى ومعه جواده .

ومن العسير يا سيادة وكيل المأمور، أن نتصور أن القاتل هبط وراءه، إذا كان عليه أن يتعرض لهجوم الكلب عليه دفاعا عن سيده، فكان يلزمه قبل أن يسلب الميت ماله أن يقتل الكلب أولا، وهذا ما لم يحدث، فالكلب ما يزال حيا .

ينبغى يا حضرة وكيل المأمور أن نعرف من هو هذا الشاهد الغريب الذى حضر عد النقود ودفعها إلى ليبان، غاية ما فهمته من أقوال زميلى زوجى أنهما لايتذكران اسم هذا الشاهد .. ولكن إذا وقع عليهما ضغط من الحكومة فسينتهيان حتما إلى الافضاء باسمه ويلزمهما بطبيعة الحال أن يثبتا شراء الصفقة بتقديم إيصال يكون نيقيفور قد خطه بيده فى قمة الجبل.

وكيف يخطه ؟

ليست هناك فى قمة الجبل أدوات كتابة وليس من عادة الريح أن يحمل ويطير بقلم ومحبرة، أما صورة عقد البيع والشراء بين ليبان وأصحاب النعاج البائعين له، فأيدى الرجلين خلو منها.. إنها باقية فى كيس نيقيفور ليبان.

* * *

ومن الذى يخالفهما إذا أكدا أنهما دفعا له ثمن نصيبهما من النعاج الذى تنازل لهما عنه وأنهما قاما بعد النقود وهما يدفعان الثمن أمام

شهود، حقا أن الدنيا مليئة بالخداع والغش، وقد سرت إشاعة على جانبى الجبل تؤكد أن الحكاية، يا سعادة وكيل المأمور، فيها شىء مريب.. وفيكتوريا لا ترجم أحدا بتهمة جزافا فهى واثقة أن ربها سيحق الحق ويبطل الباطل .

* * *

قال لها السيد أناستاس باميز وكيل المأمور وهو يلوى شفتيه:

لا أستطيع أن أستخلص شيئا من أقاصيصك يا وليه، فهل هناك شاهد على الصفقة التى تمت بين زوجك وزميليه ؟

– ومن أين لى أن أعرف يا حضرة وكيل المأمور، عليك باستجوابهما لترى ماذا يقولان ؟

طيب اتركى لنا أداء واجبات وظيفتنا، ولكنى أسألك أنت الآن :

هل عندك علم عن هذا الشاهد، أم هل هو من اختراعك؟

– إنه ليس من اختراعى يا حضرة وكيل المأمور، لابد من الجزم بوجود شاهد، فإن لم يكن قد حضر الصفقة شاهد ننسب له ما حدث من بعد، فلابد أن ننسبه إذن لزميلى زوجى .

– لايفهم العفاريت كلامك يا وليه، أتراك تتهمين صديقيه كاليسترات بوغزا وإيليا كوتوى؟

– معاذ الله . إنى من جانبى لا أتهم أحدا .

يلزمها أولا الإفضاء بأقوالهما والادلاء بشهادتهما شأن المزارعين الشرفاء أمثالهما، غاية ما أقوله لك أن الرجال الذين كانوا يسيرون راكبين جيادهم وراء القطيع إلى أن بلغوا قرية بوركا، لم يقل عددهم عن ثلاثة، ثم لم ير الناس خلف القطيع بعد ذلك إلا رجلين، أما الثالث فقد نهشت العقبان والغربان جثته كما ترى أمامك .. عليهما أن يقولا من الذى ضربه ببلطة، فالجمجمة شاهدة بلا أدنى ريب على أنها مشجوجة بضربة من حد بلطة.

فمعرفة اسم الشاهد ليست مطلوبة منى ولا منك يا حضرة وكيل المأمور.. بل مطلوبة منهما وحدهما ..

– أى شاهد تعنين ؟ قد وجعت رأسى بحكاية هذا الشاهد .

– خذ كلام امرأة مسكينة مثلى على علاته .

– خلصينا من حكاية هذا الشاهد، فواجبى الآن أن استجوب الرجلين، وأعصرهما إن بدا منهما مكر أو دهاء .. سيريان أنى أشد دهاء ومكرا، صدقينى، فقد سبق لى أن كشفت السر فى جرائم أشد غموضا ..

ضمت فيكتوريا كتفيها وزمت شفتيها:

– فى يدك أن تفعل ما تريده يا حضرة وكيل المأمور، لا أطلب إلا أن تدعنى أدفن زوجى وأقيم له الطقوس الواجبة ككل من دخل فى ملة المسيح، وأرجوك أيضا أن تكتب رسالة إلى الرعاة .

– أى رعاة تعنين ؟

– الرعاة .. خدمة زوجى ليبان، حراس القطيع، فلا شك أن عندهم خبرا لو أن زوجى باع قسما من النعاج التى اشتراها .

– أتراك تتكرين أن زوجك باع قسما منها وتزعمين أن الرجلين قتلاه للاستيلاء على نعاجه كلها .

– لم أقل هذا يا حضرة وكيل المأمور .. وإنما قلت لك رجائى بأن تكتب لهؤلاء الرعاة، فإن زوجى لم يدعهم ينصرفون عنه دون أن يدفع لهم أجورهم وفوقها البقشيش المعتاد .

– معك حق . ومن اللازم أيضا أن نستجوبهم، ومن الخير لك يا وليه أن تأتى معى إلى الناحية الأخرى من الجبل لتحضرى استجوابى لبوغزا وكوتوى .

أجابته فيكتوريا طائعة :

– هذا هو ما أريده .

ولم لا ؟ يلزمنى آن أذهب معك إلى هناك فإن لى مطلبا أيضا عند إحدى صديقاتى، هى زوجة صاحب الفندق، إذ سأدعوها لتحضر نقل الرفات إلى القرية لدفنها فى قبر يليق بها، ثم ينبغى لى كذلك دعوة هذين الرجلين لحضور الجنازة مع زوجتيهما .

– ما معنى هذا؟ آنا أعتزم استجوابهما ، وأنت تريدين دعوتهما للجنازة؟

– ولم لا ؟

نعم سأدعوهما لحضور الجنازة والمأدبة التى أقيمها بعدها ، فهما يعتبران عندى من الناس الطيبين المتدينين .

إنى لا أحمل لهما ضغينة .. فإن المولى سبحانه وتعالى لم يرفع بعد سبابتى لاتهامهما .. إنى لا آبه بحديث الناس ولا يقول زوجة بوغزا إن الكابوس يركبه فى نومه، فيفضفض بكلام علمه عند ربى، أما أنت يا حضرة وكيل المأمور فمن سلطتك استجوابهما .

وأنا .. ماذا يخرج من يدى؟ ماذا يخرج من يدى إلا أن أقيم جنازة تليق به؟ من المؤكد أننى سأدعوهما، ولم لا ؟ وسأدعوك أيضا إذا لم يكن لديك مانع .. وهكذا لاتفارقهما نظرتك .

هز السيد أناستاس بالميز رأسه واستغرق فى التفكير، هذه المرأة الجبلية يصدر عنها الرأى الصائب هذه المرة أيضا .

لكنه رأى من كرامته ألا يفصح عن حكمه، لابد له من إجراء التحقيق بتؤدة وحكمة متخفية .. فهذه هى أفضل وسيلة للكشف عن الجناة والقبض عليهم .

لن يجد الرجلان مفرا من حضور الجنازة فى قرية ساباسا حيث يتم ما

يسمى فى القانون بالمواجهة بين القاتل والجثة. سيشرح هذه المسألة القانونية لفيكتوريا إنه الآن يدرك مرمى كلامها .

* * *

وتبين له مقدار دهائها ولطف حيلتها ، بين التكتم والافصاح، لاتعرف فيكتوريا شيئا عن الإجراءات القانونية ولا عن المواجهة .. لكنها تلقت بسرور عزم الرجل على ترتيب هذه المواجهة .

ومن حسن الحظ ، هكذا حدثها قلبها، أن هذا الرجل الضئيل اللابس قلنسوة مدببة، ستنغرز قدمه فى خضم من إشاعات ووشايات ودسائس لاتنفك تتكاثر فى الوادى المجاور لقرية سوها .

هذا الرجل يعتبر نفسه من السادة أصحاب المقامات ولكن هذا لم يمنعها ولم يمنع السيدة ماريا من الإيقاع به فى شبكتيهما .. هو والآخرين جميعا .. من بينهم أيضا الطبيب . وبوغزا . وكوتوى. وزوجتى الأخيرين ..

* * *

انتهى التحقيق فأسرعت فيكتوريا برمى الغطاء من جديد على الرفات .. ثم أشعلت شمعة أخرى، وهى تتنهد وتئن بخفوت دون أن تحيد نظرتها لحظة واحدة عن الغرباء الواقفين حولها متشحين بالسواد . منتبهة أشد الانتباه لحديثهم ووشوشتهم .

* * *

الفصل الخامس عشر

وفى قرية سوها قام السيد أنستاس باميز بإجراء التحقيق بحنكة يعتز بها لاينكرها عليه أحد، استدعى الرجلين بوصفهما شاهدين والتزم أن يصغى إليهما بصبر وتسامح .

أجاب الرجل المشروم الشفة، بلهجة فيها تأكيد ووثوق وإن تكتمت شيئا من الحنق والغضب :

- ماذا تريدون منى يا حضرة وكيل المأمور؟، أنا لا أعلم شيئا على الإطلاق.

لم يعارضه السيد أناستاس، وقال له عاملا على تهدئته :

- كلامك مصدق، فأنت رجل لك مقام ويحترمك الناس ، لكن واجبى أن أستجوبك وعليك أن ترد .. جاوب . فأنت قد صحبت نيقيفور ليبان من دورنا حتى هنا . سرتما معا وأكلتما معا، ألم يحدث ذلك؟

- نعم حدث .

- حلو، إذن قل لى من فضلك فى أى مكان افترقتما؟

- أطلب استدعاء إيليا كوتوى لاستجوابه أيضا فقد كان هناك مثلى.

- ثق أننى سأستجوبه أيضا .. فمن مصلحتى أن أعرف كل التفاصيل كى أضع يدى على المجرم . وهل تظننى أسمح لنفسى أن أخطو إليه أول خطوة إلا إذا كنت واثقا كل الثقة من صحة اتهامه؟.

إن من طبعى ألا أضطهد أحدا أيًا كان ، والآن وبعد أن سمعت كلامى قل لى متى افترقتما لكى أمسك بأول الخيط ؟

- أى خيط تقصد ؟

- أقصد بداية طريق تقودنى أو نقطة انطلق منها للبحث عن الأدلة .

– هذه الأدلة تهمك ولا تهمنى .. إذ لا شأن لى بها .. دعنى .. لا تتعبنى هكذا فلى هموم كثيرة ، أنا لا أعلم شيئا عن وفاة هذا الراعى الجبلى ، كل الذى أستطيع قوله إننا نحن الاثنين – كوتوى وأنا – افترقنا عنه حين بلغنا قمة جبل شنشورا فإنه حين أدرك عندها كم هو طويل ما بقى من طريق حتى يبلغ وادى ملدوفا ثم مدينة برات رأى أن لا همة له فى متابعة السير واعتزم أن يتخلى أيضا عن قطيعه ، وقال لنا إنى أمتلك ما يكفينى من الغنم بجوار مستنقع جيجيا ، أنى أبيع لكما قطيعى إذا أضفتما على الثمن الذى دفعته عند شرائه علاوة بسيطة ، كما يعتكما النعاج المائة من قبل ، وادفعا لى أيضا ثمن العلف منذ الشراء إلى اليوم ، فخذا القطيع وانصرفا بسلام ، حلال عليكما كل مكسب منه ، أما عن نفسى فإنى راجع إلى بيتى ..

– هل قال هذا ؟

– نعم ، هذا كلامه بالحرف الواحد ..

– وهل دفعتما الثمن له ؟.

– نعم ..

دفعنا له الثمن .. فعد النقود .. وكانت – وهذه أمارة – من فئة مائة لاى وألف لاى ..

كانت الأرملة جالسة بادية الاتضاع فى ركن من الحجرة .. أمالت رأسها نحو المدفأة وسندت كوعيها إلى ركبتها وأحاطت وجهها بكفيها .. تمتمت بهدوء دون أن تتحرك ..

– نعم .

لا شك أن هذا هو الذى حدث ، فقد عد المشتريان النقود ودفعاها إلى البائع ، ولكن الشاهد الآخر الذى كان يراقبهم جميعا ، هل رأى المبلغ ينتقل من يد إلى يد ؟

زمجر بوغزا وعقد حاجبيه وقال لها :

– أى شاهد تعنين ؟

وأمرها وكيل المأمور قائلا :

– كفى عن ازعاجنا ، ودعينى لعملى فهذا تشويش للتحقيق ..

* * *

أجابت الأرملة فيكتوريا :

– ما قصدت التشويش .. بل قصدت أن أبرىء ساحة هذا الرجل الطيب، فلا جناية له ، إنى أجزم أن شاهدا حضر عد النقود ، هذا الشاهد هو الذى يجب تتبعه وإلقاء القبض عليه .

قال لها وكيل المأمور :

– لم يشهد الصفقة أحد ، قلت لك هذا من قبل . تدخل بوغزا قائلا :

– من المحتمل أن يكون هنـاك من شهد دفع الثمن وقبضه.

قالت فيكتوريا :

– وهذا ما أقوله أيضا ، أنى أجزم بوجود هذا الشاهد ، وهل ظننتنى يا سيد وكيل المأمور أننى قصدت به كوتوى ؟

– أصابها بشىء من الضيق ؟

– إذا كان هناك شاهد فليخبرنا هذا الرجل من هو .. هل تعرفه ؟

– لا أعرفه وربما يعرفه كوتوى ..

قال لها السيد باميز :

– هو أيضا لا يعرفه ، ومن أين له أن يعرفه ، فلنقل إذن أن بعض قطاع الطرق هجموا على زوج هذه المرأة وقتلوه ..

وافقته فيكتوريا قائلة :

– من الجائز أن يكون هذا هو ما حدث ..

رد عليها وكيل المأمور :

– إذا كان هذا رأيك فلماذا إصرارك على زج شاهد فى الصفقة للتحقيق ..

– إنى لا أريد أن أزج به فى التحقيق يا حضرة وكيل المأمور ، ولكننا نحن أهل الجبل ، من عادتنا أن نعقد صفقاتنا أمام شهود لا بكتابة عقود أمام موظف ، فما بالك إذا كان البائع والمشترى من الأصدقاء كما هو حال السيد بوغزا والسيد كوتوى .. إنهما من أصدقاء زوجى .

اعلموا أيها السادة أننى ما جئت هنا إلا لادعوكم لحضور دفنة زوجى ..

هذا آخر واجب معلق برقبتى هنا. وبعد أدائه سأعود إلى بيتى. تاركة للحكومة رجائى أن تتولى هى الكشف عن الجناة ..

وإننى لواثقة.. أن السيد وكيل المأمور سيوفق فى الاهتداء إليهم والقبض عليهم .

فأنا من هذه الناحية مستريحة البال.. ولا شك أنك يا سيد بوغزا ستقدم له.. وكذلك زميلك كوتوى.. كل ما لديكما من معلومات ..

ستبذلان غاية الجهد فى معاونته ، فأنتما من خيرة المزارعين الطيبين ..

وآخر ملتمس لى ألا تتخلفوا عن حضور الدفنة ..

* * *

أخذ وكيل المأمور يضرب حذاءه بعصاه القصيرة وقد نفد صبره، وسكرتير التحقيق الجالس إلى مكتبه ينصت ولا يدرى ماذا يكتب ، نهضت فيكتوريا وزررت سترتها من الفرو ، فى رأيها أن التحقيق لم يعد يهمها ..

قالت :

– زوجى رجل طيب ، فهو جدير بأن تحضروا دفنته ، إكراما له .

أدى بوغزا موافقته باستسلام لا باقتناع وقال :

– سنعمل على حضور الدفنة إذا أذن لنا السيد وكيل المأمور .

أجابته فيكتوريا :

– أرجو أن تحضرا مع زوجتيكما .. غدا سننقل رفات زوجى إلى مثواه الأخير ، وسيحضر السيد وكيل المأمور أيضا..

هتف لها مستغربا :

– أنا ؟

– نعم ، ولا غرابة فى حضورك على الأقل تستريح هناك من متاعب التحقيق ، ولعل ذاكرة السيد بوغزا تسعفه هناك أيضا على نحو أفضل .

نقب كاليسترات بوغزا فى حزامه الجلدى وأخرج علبة التبغ وفتحها وأخذ يلف لنفسه سيجارة غليظة .

وضع المرأة يدها على قبضة الباب وانتظر وكيل المأمور انصرافها وهو يغالب ضيقه .

كان يود أن يأمرها هو بالانصراف لكنه صبر لأنه رجل مؤدب ..

وأضافت المرأة وهى تنطق كلماتها بوضوح :

– لى كلمة أخيرة، لكنى سأبقيها إلى غد، فالوقت متسع. ستعرفونها بعد أن أفرغ .

– من أى شىء تفرغين ؟

– من دفن زوجى نيقيفور ليبان ، هو الذى قال ما أراد أن يقوله ، أرجوك ألا تتخلف عن الحضور يا سيد بوغزا .

أجابها وهو يدخن سيجارته بشراهة ويطلق الدخان من منخريه فى دفعات سريعة متتالية :

– طيب .. طيب .

وانصرفت فيكتوريا ، وكان كوتوى فى الحجوة المجاورة مع الخفراء

جالسا على دكة منعزلا ، وهو يدخن سيجارة غليظة كسيجارة بوغزا ..

تريثت فيكتوريا أمامه وقالت له :

- هل بينكما أيضا تعاهد على التماثل فى حجم السيجارة وفى وقت التدخين؟ السيد بوغزا يلقى الشبهة عليك ..

قفز كوتوى غاضبا وقال :

- أهو الذى يفعل هذا ؟

- وهل تعرف ماذا يقول عنك .. يقول إنك حضرت دفع الثمن وقبضه ، أما أنا فكنت أتحدث عن شاهد آخر ..

أجابها بتخاذل وهو يجلس ..

- لا أفهم ماذا تقولين .

- قلت للسيد وكيل المأمور أننى أجزم بوجود شاهد حضر الصفقة وقبض الثمن، إن هذا الشاهد هو الذى قتل زوجى طمعا فى ماله ، ولكن ثبت من التحقيق أن الصفقة تمت دون شاهد عليها ، فيحق لنا إذن أن نقول مادامت هذه الصفقة قد تمت بدون شهود ، فهذا يجيز الافتراض بأن الثمن دفعه وقبضه عند عقد الصفقة ، فإذا لم يكن زوجى قد قبض الثمن فلماذا وقع الاعتداء عليه .

ولو كان لم يقبض الثمن لما وجد داع للعودة إلى بيته لأنه كان سيسير بقطيعه حتى يبلغ به مربضه .

- ما هذه المزاعم الفارغة ، ألم أقل لك من قبل أن الثمن دفع كله لزوجك حين توقفنا على قمة الجبل .

- أعرف هذا يا سيد كوتوى ، فليس عن هذا حديثى ، فلا تغضب .

- كيف تقولين أنك لا تتحدثين عن هذا .. إذن ما قصدك؟.

- قصدت أن أقول شيئا.. إنى أدير أفكارا فى رأسى وأرتبها كما يفعل

كل هؤلاء الناس الذين شغلوا انفسهم بحكايتنا.. أنت عندك الخبر اليقين ، فتستطيع أن تتكلم.. والميت أيضا قد أفضى إلينا بخبره.. قال لنا كل ما عنده .

إنه قد تكلم. لماذا تحملق فى وجهى هكذا ؟

الدور فى الكلام جاء عليكما الآن.. تكلما ..

فينتهى الأمر وينولى السيد وكيل المأمور حفظ التحقيق .

إن لى أملا كبيراً أن تمد إلى يد العون ، ولقد رجوت بوغزا كما أرجوك أيضا يا سيد إيليا ألا تكون متخليا عن صديق لكما ، ها نحن عثرنا عليه ، فتعال أنت والسيد بوغزا لتحضرا دفن عظامه فى مثواه الأخير ..

* * *

أنصت لها كوتوى باهتمام وإن ظل مشيحا عنها نظراته :

- ماذا تقولين ؟

- انتظر حضورك وقد وعدنى السيد كالسترات بأنه سيأتى أيضا .

إذا كان موافقا فلا مانع عندى أنا أيضا .

- أشكر لك فضلك ، ولا تنسيا أن تأتيا ومعكما زوجتاكما فإننا سنقيم مأدبة المأتم المعتادة ..

وانصرفت بخطى نشطة وهى تدق الأرض بكعب حذائها ..

ذلك أنها وفقا لعادتها فى مثل هذه الظروف ، وتكريما منها لذكرى زوجها الراحل ، كانت قد استبدلت بخفها حذاءها الطويل اللامع ، واتجهت إلى فندق السيد يورغوفاسيلى من أقرب سبيل ، متتفعة بدروب تختصر المسافة تكشفت عنها التلوح .

ووجدت عند باب الفندق ، العربة المستأجرة وهى تنسع لأن تجلس فيها إلى جانبها صديقة عزيزة عليها مثل السيدة ماريا زوجة صاحب

الفندق .

وكيف لا تكون من أعز صديقاتها وهى تعلم أنها الآن فى حجرتها الخاصة تستقبل السيدة جافيتا بعد أن بعثت بفيتيشور صبى الفندق ليستدعيها على عجل ..

دخلت وخلعت سترتها من الفور وجلست على مقعد وهى تصوب إلى السيدة ماريا نظرة تنبىء عن الرضا ، ثم استدارت نحو جافيتا وقالت لها إنها سعيدة جدا برؤيتها إذ لم تكن تتوقع أن تلتقى بها ، ومما زاد فى سرورها أنها تستطيع أن تروى لها كل ما جرى فى بيت العمدة حيث أجرى وكيل المأمور تحقيقه . فكان السيد كاليسترات أول من استجوبه ثم تلاه السيد إيليا .. أما عن نفسها فهى غير راضية عن المعاملة التى لقياها من المحقق .. سألتها جافيتا وقد بدا عليها القلق :

– وماذا طلب منهما؟ وكيف استجوبهما؟

– وجه إليهما عددا من الأسئلة ، نسيت أن أقول لك إننى قبل أن أدخل بيت العمدة أبصرت بالسيدة زوجة بوغزا وأخته بجواره ..

– هل رأيتها ؟ لأى غرض ذهبت هناك ؟

– لا أدرى ..

راقبتها لأنها تريثت قليلا أمام الباب قبل أن أدخل .

كما تأتى لى أن أسمع حديثها مع نساء أخريات وأستطيع أن أوكد لك شيئا واحدا .. وهو أننى تمنيت حينذاك ألا تأتى سيرتى على لسان من يزعمن أنهن صديقاتى ..

– إذن كانت تغتابنى .

– إننى لواثقة من ذلك .. وأنا لا أستطيع أن أجيبك لأننى لا أحب نقل الكلام .. وأكره الوقيعة .. كل الذى أستطيع قوله هو أننى لا أؤمن بأن كل النساء نحيلات أو سمينات أو دميمات .. لا أؤمن بأن امرأة تكون يوما

عشيقة موثق العقود – ويوما عشيقة شيخ الخفر ، كل هذه الأقاويل مردها إلى الغيرة .

لكن بقى شىء واحد لم أستطع فهمه وهو هذا التطوع من الباب للطاق لاتهام الأبرياء .. حمانا الله ..

إننى أشقى امرأة فى الأرض ، ولا حد لعذابى ، أصبحت أرملة .. تخرب بيتى ، مع ذلك لا أجرؤ على إلقاء الشبهة على إنسان ما ، وبالأخص على إنسان أفضى باستقامته ، له مسكن يتمسك به ويعتز به ، وزوجة يحبها ولا يبخل عليها لكى تكون أنيقة ..

لا أجسر أن أنطق بكلمة واحدة يشتم منها أن لى شبهة فى إنسان .. لذلك .. فإنى رجوت السيد إيلى كوتوى أن يأتى غدا إلى قرية ساباسا على الناحية الأخرى من الجبل ، لحضور دفنة صديق قديم له ..

جافيتا لها قامة طويلة رشيقة ، ووجه جميل لا تشوبه شائبة ، عيناها واسعتان ، لوزيتان سوداوان لامعتان ، يعلوهما حاجبان مقوسان ، ترتدى سروالا مبرقشا بالترتر وصديرية أنيقة وحذاء بكعب عال ..

تورد خداها فزاد جمالها وهى تنصت لكلام فيكتوريا وقد خلطت فيه بين الحفاوة والهجوم ابتسمت بمرارة حين تصورت لؤم هذه الصديقة .. التى اغتابتها ، وهم لسانها أن ينطلق بكل ألفاظ السب فى حق نساء رزئت بهن الأرض ونكب فى الوقت ذاته نجع شجرة التفاح ..

إنها اليوم تعلن كما أعلنت من قبل مرارا ، أن الغيبة تحت قدمك، إننى أشقى امرأة، ومع ذلك لا أتهم أحدا.. إنى أنتظر من الله أمره باحقاق الحق.. حين تشاء إرادته ..

أجابتها جافيتا بصوت مرتفع حاد وقد ظهرت القسوة فى نظراتها :

– اليوم قبل غد ، حتى ينزل العقاب سريعا بصاحب اليد التى ضربت ، وحتى ينقلب الضحك إلى بكاء .

* * *

قالت لها فيكتوريا وهى تطمئنها :

- أعلم كل هذا وأعلن أن السيد إيليا سيجيب بكل صراحة على أسئلة وكيل المأمور ، لا يخامرنى أقل شك من هذه الناحية .

إننى أضع أقوال الناس دبر أذنى ، واحتفظى بحكمى على بوغزا ، فأنى إلى اليوم لم أجد قرينة على الجريمة إلا ما أمدنى به الميت رغم صمته ..

- ولكنك تعلمين يا ست فيكتوريا .. أنه من المستطاع العثور على قرائن أخرى .

- نعم ، أعلم ذلك ، أعلم ذلك .

- كلا - الحق أنك لا تعلمين شيئا ، أتظنين أنى ألقى الكلام على عواهنه أو أنى أتكلم لمجرد الكلام، إننى لم أقل لك ما قلت إلا لأننى أعانى منذ زمن من عذاب شديد ، لم أعد أعرف الفرح ولا الراحة. وكل هذا بسبب امرأة سافلة.

ـ أصدقك يا عزيزتى.

تدخلت السيدة ماريا وقالت بلهجة تعمدت ترقيقها:

- طولى بالك ، أنت ستبقين من أنت .. لا أجد من يجسر على المساس بك ، كما لا يستطيع إنسان أن يسلبك نعمة وهبها الله لك.

هدأت جافيتا وأخذت تضحك ، فزاد جمالها تألقا ، ترقبها المرأتان بطرف من العين ، وتتبادلان نظرات حادة ، وحين أفرغت الاثنتان ، كل ما في جعبة الزائرة من كلام سمحتا لها بالانصراف وخيم الحزن علي عيني فيكتوريا، إنها بين جدران الحجرة الصغيرة المكسوة بالسجاجيد والستر المزخرفة قد مدت نظرتها نحو الشرق حيث الأيقونة ، ورسمت علامة الصليب ثلاث مرات ، وركعت أمام تصاوير القديسين ثم استدارت فتلاقت نظراتها ونظرة مضيفتها وقد ضاقت حدقة عينيها من شدة اللهفة على سماع الأخبار ، فأسرعت فيكتوريا تروى لها مسار التحقيق الذى تولاه

وكيل المأمور ، ولم تكتف بذلك بل روت لها أيضاً كيف كان لافتا للنظر بذل بوغزا كل جهد للتهرب من التهمة القاضية التى تشير بها إليه قوة عليا تفوق قوة البشر.

وقالت فيكتوريا لمضيفتها بمرارة:

- إنه يحاول الإكثار بكل حيلة ، فلا يعلم هذا المسكين أن لا مهرب لإنسان من حكم القدر المسطور على جبينه.

إننى الآن أعلم كل ما يخفيه هذا الرجل ، قرأت ضميره كأنه كتاب مفتوح ، ويبقى لصاحبنا السيد الضئيل الجسم ، اللابس للقلنسوة المدببة من فرو الاستراخان أن يلعب. يوما أو يومين لعبة القط بالفار.

إنه أيضاً أدرك الحقيقة ، فهو ليس أعور العين أو ناقص العقل ، غير أنى رجوته أن يطيل صبره قليلا ، إذ من الأنسب أولا أن يطبق على المتهم بمشيئة من الله أدلة واضحة لا يرقى إليها الشك ، أمنيتى حينئذ أن يتخبط فى قبضة اليأس كما تخبط زوجى وهو يهوى بين شعاب الجبل..

كم أتمنى أن أفعل بالمجرم ما فعله بزوجى ، أن أضربه ببلطة ، أخت البلطة التى ضرب بها زوجى وأن أشج رأسه على النحو الذى شج به رأس زوجى ، إذن لاسترحت وهدأت نفسى ولكن هيهات أن أفوز بذلك ، ولا أريد أن أورط ابنى فى هذه القضية فهو ما يزال شابا غرا ، لهذا كانت أمنيتى أن أضربه أنا.. أن أمزق جسده لتنطفئ أخيرا هذه النار التى تحرق قلبى منذ زمن ، ذلك أننى يا ست ماريا لم أكن أعيش إلا من أجل زوجى ، وكنت سعيدة فى جواره ..

أما أيامى من بعده فهى معدودة ومحرومة من الإشراق ، ولكم سألت نفسى مرارا من قبل كيف واتتنى القوة على تحمل كل هذا وعلى الوفاء بالواجب الملقى على عاتقى ، وكان ينبغى حين عثرت على زوجى أن أنهد على الأرض ، وأبكى عليه بكاء يغتال كل همى عليه.

لكنى أعلم من هو الذى وهبنى ما كنت فى حاجة إليه من النقود

والشجاعة. مضيت فى سبيلى وسأمضى فيه ، طالما بقى فى صدرى نفس يتردد ، لقد علوت الجبل من الناحيتين ، وذهبت إلى بوركا مرارا ، ونثرت نقودى يمينا ويسّارا ، وأقلقت القساوسة مع الكثير من الناس ، بل إننى تكلمت فى سلك من الحديد يمتد حتى مدينة بياترا ، كنت فى بيت العمدة فى باركا ، وكان مأمور المركز فى بياترا على الطرف الآخر من السلك .. استأذنته أن أدفن فى المقبرة رفات زوجى التى عثرت عليها فى مغارة بالجبل، حتى لا تبقى هذه الرفات عرضة للذئاب وحتى أجد لها قبرا فى أرض يعلوها الصليب ، أترين كيف رضيت لنفسى أن أرتكب هذا الأثم ، بأن أتكلم فى سلك من الحديد، وقد هزأ بى الناس حينما رأوا رجلى وحين سمعت صوتا يأتينى من بياترا وأنا فى بوركا ، لقد ارتكبت آثاما أخرى ولكنى عما قريب سأطوى آخر صفحاتها ..

***

أسندت فيكتوريا رأسها إلى كتف زوجة صاحب الفندق وانخرطت فى البكاء والنشيج ثم جففت دموعها بعزم.

ضغطت على كل عين بطرف كم ثم تهيأت للانصراف ..

أمتلأت العربات بخليط غير متجانس من أهل سوها ، تتشابك فيه عواطف وصداقات ودسائس وشطحات ومخاوف متكتمة وآمال وأحلام ، واجتازوا قمة جبل ستيفيشورا ليبلغوا المكان الذى تضئ فيه شمعة بجانب رفات ميت ينتظر أن يهدأ كثيراً فى قبره وأن تقام له الشعائر الدينية..

ولم يفت السيد توما أن يستحضر عربة نقل تجرها بقرتان جسيمتان ، وأن يزينها بفروع من شجر الصنوبر وأن يضع فوقها التابوت الفارغ ، ثم جلب معه أيضا – بناء على أمر فيكتوريا – ثلاثة قساوسة ، وثلاثة رجال ينفخون فى أبواق يتنادى بها أهل الجبل ، وأربع ندابات تولى السيد توما اختيارهن .. اثنتان من باركا واثنتان من ساباسا .. ليس لهن مثيل فى القدرة على رفع الصوت بالنواح وعلى التهتهة وقذف الدموع.

ووضع السيد توما صدقة الميت من طعام وشراب فى عربة مرتلى

الأناشيد . أما عربة القساوسة العتيقة فقد كانت مدهونة بطلاء أخضر ..

واصطف رجال يحملون الأعلام والصلبان ، وقام رجال آخرون بانزال التابوت إلى المغارة ، حيث كانت فيكتوريا موجودة بها .

شمرت عن ساعديها وانفردت وحدها تجمع رفات زوجها بخشوع ، ووضعتها بيدها فى التابوت بعد أن رشتها بالنبيذ ، ورفع الرجال هذا الحمل الخفيف على أكتافهم ثم وضعوا التابوت فوق العربة وغطوه بسجادة مخططة بالأحمر والأسود ثم صاحوا :

– كل شئ تمام ؟.

فقام سائق العربة بنخس البقرتين وأشار بيده إلى الواقفين أمامه من حملة الأعلام والصلبان لبدء المسير..

وفى أول وقفة للركب نزل القساوسة عن عربتهم لتلاوة الأدعية وترتيل الأناشيد.

أما فيكتوريا فلم تركب .. ظلت تجرى من أول الموكب إلى آخره ذهابا وإيابا كى تشرف على حسن انتظامه وتطمئن على مطابقته للتقاليد .. لا تساعدها إلا امرأة عجوز تحمل غلالات من قماش تفرشها تحت أقدام السائرين فى الموكب عند كل وقفة .. طبقا للتقاليد.

وكان الموكب إذا عاود سيره قام رجال الجبل بالنفخ فى الأبواق ، كأنهم يبعثون بنداء إلى مكان بعيد.. فإذا فرغوا بدأت الندابات الأجيرات فى النوح والبكاء بصوت مرتفع ، وكانت فيكتوريا مفتحة العينين والأذنين ، هذا يوم لا يشق على أحد كما يشق عليها ، وعذابها فيه أصدق وأشد من عذابات الندابات المصطنعة ، ومع ذلك كانت راضية النفس مستريحة الضمير.

حضر رجال الحكومة ، وكذلك أهل نجع شجرتى التفاح ، وسار بوغزا وكوتوى كل منهما منفردا على جانب من الطريق ، لم يتبادلا كلمة ولا نظرة. ومع ذلك فحين حمل الرجال التابوت من المغارة ، ووضعوه فوق العربة

مكشوفا ، مد كاليسترات بوغزا عنقه ليلقى من فوق أكتاف الواقفين حوله نظرة على رفات الميت.

وخيل إلى فيكتوريا أنه لم يستطع مقاومة إغراء يتملكه . فهذا الرجل لم ينجح ولو لحظة واحدة فى ضبط أعصابه ، هو كالمحموم ، ليس له إلا هم واحد ، هو أن يشبع نهم عينيه .. النظر - وحبذا عن قرب شديد - إلى جمجمة الميت ليرى كيف حالها، ذلك أنه إذا لم يتكشف للعيون أثر ضربة عليها بأداة حديدية قاطعة فقد يظن الرائى أن نيقيفور ليبان قد لقى مصرعه لأنه كان مخمورا ومسافرا بالليل فهوى من على الجبل هو وجواده .. إن كان هناك قاتل فهو الخمر ..

وسارت زوجتا الرجلين كل منهما منفردة أيضا على جانب من الطريق .. تتبادلان بين الحين والحين نظرات ملؤها الحقد والكراهية .. ترقبهما فيكتوريا وتصدر عليهما حكمها فى سرها..

لم تدخر جهدا لكى يتم للموكب انتظامه وفقا للتقاليد ، ومع ذلك استطاعت أن تنتزع نفسها لحظة من مشاغلها لتقترب من السيدة ماريا وتهمس لها فى عجلة ببضع كلمات.

أما ابنها غيورغيتا .. لم يكن حاضرا.

كانت أمه حين جاوزت قمة ستيفشورا قد أمرته أن يركب جواده وأن يسبق الركب لينزل إلى قرية ساباسا مصطحبا الكلب وحاملا ما تبقى من متعلقات أبيه.

***

وتابع الموكب سيره إلى أن تجلى لعيون الرقباء الإجراء الواقفين على برج الكنيسة ، فبدأت النواقيس تدق..

وخرج سكان القرية أولا إلى عتبات بيوتهم ، وقد ظللوا عيونهم بالأكف .. ثم خرجوا جماعة متجهين إلى المقبرة..

***

وأقيم فى الكنيسة قداس جميل ، قلما يشاهد له مثيل فى ساباسا ..

كانت رفات نيقيفور ليبان فى التابوت المكشوف بادية للعيون ، تسقط عليها أشعة الشمس مائلة ، ورتل القساوسة دعاء للمولى أن ينزل رحمته بردا وسلاما على عبده.

ثم رتلوا بعد ذلك أناشيد صلاة الميت واقتربت فيكتوريا من السيدة ماريا، والتمست منها بإلحاح أن تتولى الاشراف على المراحل الأخيرة من الطقوس الدينية ، وأوصتها بالأخص ألا تنسى طلب النبيذ ورشه على التابوت عند نزوله إلى القبر ، وكذلك طلب دجاجة سوداء لتقذفها وراءه ، وفقا للتقاليد .. وكانت المرأة العجوز التى استأجرتها فيكتوريا لمساعدتها فى ذلك اليوم مكلفة بحمل هذه الاشياء فى كيس تبقيه معها .. فما على السيدة ماريا إلا أن تطلبها منها عند اللزوم ..

كررت السيدة فيكتوريا ملتمسها ، إنها خدمة جليلة تلك التى تنتظرها من السيدة ماريا ، فإنها تريد ألا يفوتها أن تكون بجانب زوجها لحظة الفراق .. إنها حينئذ تراه آخر مرة ، أما من بعد ، فلا لقاء إلا يوم النشور بين يدى الله..

***

اقتربت فيكتوريا من التابوت ثم وضعت يدها على قمة رأسها وجذبت شالها الأسود إلى رقبتها ثم مسحت الجبهة بأصابع متخشبة كأنها مخالب طير كاسر .. كأنما تريد أن تقتلع عينيها من محجريهما وصرخت :

- يا غورغيتا، إلى أين ؟ ولمن تركتنى ؟

وارتجفت للصرخة قلوب الحاضرين ثم تهاوت فيكتوريا وجثت على ركبتيها وأسندت جبينها إلى حافة التابوت .

أسرعت السيدة ماريا إليها وهى تشق طريقها وتزيح الواقفين يمنة

ويسرة، انحنت على فيكتوريا وأمسكتها من الكتفين وقادتها إلى مكان تعتزل فيه..

استسلمت لها فيكتوريا ثم إذا بها تتملص بخفة وتنطلق إلى رفات زوجها وتركع بجوارها .. ثم هتفت :

- فليتقدم ابنى أيضا ..

كان ابنها بجوارها فاقترب وهو ويستر وجهه بذراعه اليمنى ، مضيعا لا يدرى ماذا يفعل .

إنه خجل من أن يبكى كالنساء أمام الرجال وعمدت السيدة ماريا إلى رفع فيكتوريا مرة أخرى عن الأرض ، وأسرع رجال بوضع الغطاء على التابوت ودقوا المسامير على أطرافه ، ثم سارعوا بإنزاله إلى القبر فوصل للأسماع صوت مكتوم ينبئ عن انهيال كتل من الثرى المبتل فوقه.

وانصرفت فيكتوريا وهى أهدأ نفسا بعد أن رمت هى أيضاً بحفنة من التراب على التابوت الذى ضم رفات زوجها..

***

الفصل السادس عشر

وقفت فيكتوريا عند الباب الرئيسى للمقبرة يحف بها السيد توما وزوجته السيدة ماريا ، لمعاونتها ، ولكل من حضر الدفنة عند خروجه كأس من النبيذ وربع رغيف ، رحمة على الميت ، فيتمتم - لا فرق بين الرجل والمرأة - بدعاء تقتضيه الطقوس :

- اغفر له يارب كل خطاياه .

ثم يشرب الكأس جرعة واحدة ، ويقضم من الرغيف لقمة يمضغها لتخفف من هذه اللهلبة اللاذعة التى خلفها النبيذ فى فمه ، وتعالت ضحكات صبية يتدافعون فى لعب بين المقابر..

ولما أتم القساوسة توزيع الطعام والشراب والقرص المصنوعة من دقيق القمح - رحمة على الميت - خلعوا حلل القداس ولكن بقى عليهم أداء جانب يسير من الطقوس ، فسارعت إليهم فيكتوريا لتدعوهم قبل انصرافهم لحضور مأدبة المأتم التى ستقيمها فى فندق السيد توما ، وقالت لهم إنهم سيقابلون فيها رجال الحكومة والسيد وكيل المأمور وكذلك أصحاب المزارع والقطعان من سكان الجانب الآخر من الجبل..

وحرصت زوجة السيد توما على أن يتم كل شئ بأحسن ترتيب ممكن ، ولم يكن من السهل اختيار أنواع الطعام إذ كان الوقت وقت الصوم الكبير ، أما عن الشراب فأمره ميسور.. إنه مبذول بوفرة ومن أجود الأصناف ..

جلسوا إلى المائدة مع الغروب ، والميت على مرمى حجر مستريح أخيراً فى قبره ، أما الأحياء فقد أخذوا يطعمون من أطايب الأكل المسموح به فى الصيام الكبير ، البليلة والكرنب المقلى فى زيت بذر الكتان ، واحتل القساوسة والسيد وكيل المأمور رأس المائدة فى غيابة الحجرة ، أما القادمان من نجع شجرتى التفاح فقد جلسا دونهم واتخذت فيكتوريا

مقعدها بجانبهما .. وشرب كل من الحاضرين عدة كئوس ترحما على الميت. ثم أخذ الجميع في تبادل الاحاديث عن شئون الدنيا ، قالت فيكتوريا لجارها:

- أراك يا سيد كاليسترات لا تأكل بشهية كبيرة .

- لماذا ؟ شهيتي مفتوحة والحمد لله ..

- ولكني لم أرك تشرب ، أفليس من الواجب أن تشرب ترحما على صديق؟

- نعم يا ولية ، إنني أشرب ، غير أني عامل حساب طول الطريق للعودة إلى بيوتنا .. وينبغي أن ننصرف عند مقدم الليل ..

- كيف تقول ذلك ، أفأنت تخشى السير بالليل وهاأنذا أراك متسلحا ببلطتك..

- صدقت .. إنني أحملها ..

- ما أجملها من بلطة ، أشرب كأسا ، رحمة على الميت ، ولك أن تشرب كئوسا أخرى إن شئت ، أرني البلطة فإني أود أن أتأملها ، وابني غيورغيتا له بلطة مماثلة.

ضحك في وجهها وهو يتكئ حنقه عليها وازدراءه لها وناولها البلطة ، فنادت ابنها الواقف وراءها.

- انظر يا غيورغيتا، إنها تشبه بلطتك، بفارق واحد، هو أن بلطتك خرجت لتوها من يد الحداد بعد احمرارها في كوره، وطرقها على سندانه، أما هذه البلطة، فهي اشد عراقة وأكثر تجربة..

ودون أن تكف عن الضحك، ناولت البلطة إلى ابنها، مد بوغزا يده إليها، لكنه سارع بإرخائها إذ كان الشاب مستغرقا في تفحص سن البلطة الحاد المقوس وصفحتيها المنبسطتين..

واستطردت فيكتوريا تقول بلهجة تنم عن احتجاج:

- دعه إذن يتأمل البلطة ويتفحصها يا سيد كاليسترات واشرب أنت كأسا أخرى من النبيذ الطيب، فأنت تعلم أنه كان الشراب المفضل لزوجي نيقيفور ليبان..

وفجأة.. تبدل صوتها وواجهت الضيوف وقالت:

- سأقول لك يا سيد كاليسترات كيف أتصور ما حدث لزوجي.

كان مسافرا بالليل وحده فوق جواده، صاعدا إلى قمة ستنشوا. لا شك أنه كان يفكر في قطيعه، ولعله كان يفكر أيضا في أنا، طبعا إنني لم أكن معه هناك. لكنني واثقة أن فكره مال نحوي. فهذا هو الذي قاله لي بنفسه وأنا ساهرة بجواره في المغارة..

كرر بوغزا ضحكته الخبيثة وسألها:

- وماذا قال لك؟

أجابته وهي تحدق في عينيه وتبتسم:

- روى لي كل ما حدث..

- وتطلبين مني أن أصدق هذا الكلام.. مستحيل..

نعم، ينبغي أن تصدقه، فلعلك تذكر يا سيد كاليسترات، كان له كلب يصاحبه.

- نعم، أذكر ذلك، كلب اسمه سبع الليل. وأشهد أنه كلب ذكي وشجاع.

- أحسنت يا سيد كاليسترات، ولكني اعلم شيئا آخر، اعلم أن هذا الكلب دافع عن سيده، عن زوجي، حين رآه يواجه خطرا يهدده بالموت.

- جائز.

- هل تظن أن الكلب مات أيضا؟

– لا أظن أنه مات.. الأغلب أنه شرد واختفى..

– وهذا ما كنت أقوله لنفسى أيضا، فإذا كان قد اختفى فمن الجائز أن نعثر عليه.

– بعد مشقة لا يستهان بها.

ليست المشقة بهذا الحد يا سيد كاليسترات.

إذا اقتضت مشيئة الله أن نعثر على الكلب، اشرب هذه الكأس أيضا، أتريد إذن أن أروى لك ما حدث وكيف حدث؟

خيم الصمت على الضيوف واستيقظ انتباه وكيل المأمور فأسند مرفقيه إلى المائدة وتسمع حديثها بأذنه اليسرى فهى أفضل من اليمنى وأخذ يرقب فيكتوريا وجارها بنظرة من طرف عينيه، ولما أحس بوغزا أن الأبصار ترمقه.. خرج عن هدوئه، وقال بلهجة فيها استفزاز:

– أنت تعرفين ما حدث.. ربما.. أما أنا فلا أعرف شيئا، وإذا كنت تعرفين فهيا تكلمى..

– نعم سأتكلم يا سيد كاليسترات، وسأقول ما حدث كيف حدث.

كان زوجى يفكر فى قطيعه وربما يفكر فى أنا أيضا، وهو صاعد فوق جواده على الطريق المؤدى إلى صليب الطليان..

وهنا توقفت فيكتوريا فهتف لها وكيل المأمور وهو يبتسم:

– ماذا حدث؟ استمرى.. لماذا توقف كلامك؟.

– قد يزعم بعض الناس أن زوجى لم يكن صاعدا إلى صليب الطليان بل نازلا عنه. ولكنى على يقين بأنه كان صاعدا لا نازلا، وأنه لم يكن معه إلا كلبه ورجلان، لكن أحدهما ثار جواده فجرى به إلى قمة الجبل فوقف عندها يراقب الطريق، وبقى الثانى يسير على قدميه وراء زوجى وهو يقود جواده من لجامه..

لم يكن الليل قد هبط إنما مالت الشمس إلى الغروب، وفى ظن بعض الناس أن مثل هذه الجريمة لا تقع إلا بالليل، أما أنا فأعلم أن هذه الجريمة قد وقعت بالنهار، قبيل الغروب، وكان بدء التنفيذ متوقفا على إشارة تصدر من الرجل الواقف على القمة تنبىء أن المكان خلو وأن لا داعى للاحتراس، فلما صدرت هذه الإشارة أطلق الرجل السائر جواده وترك لجامه على رقبته وتناول البلطة المعلقة على جانبه الأيسر وتقدم وهو حذر بخطى لا يسمع لها وقع لأنه يرتدى خف الرعاة حتى بلغ ليبان وهوى عليه من ورائه بضربة واحدة من البلطة، لكنه أودعها كل قوته، كأنما أراد بهذه الضربة أن يشج جذع شجرة غليظة.. ضرب زوجى الهواء بذراعيه دون أن تصدر منه صرخة واحدة.. سقط إلى أمام واندست أنفه فى عرف جواده.

رفع الرجل بلطته من جديد وضرب بها بغل.. الجواد أيضا.. ثم هوى وراكبه إلى مغارة تحت الجبل، فى تلك اللحظة هجم الكلب على الرجل فضربه بقدمه تحت خطمه..

وكان مشهداً تردى الجواد مفزعا، فحين دفع به سقط وتدحرج حتى وصل إلى بطن المغارة، وانحدر الكلب عن الطريق وهو ينبح بقوة.

ولكنه حين رأى الرجل يهم أن يضربه مرة أخرى بقدمه ترك جسده ينزلق على سفح الجبل وأخذ يزحف حتى بلغ المكان الذى ثوى فيه سيده.

هكذا انتهى كل شىء.. فركب الرجل الذى كان يسير وراء زوجى جواده، وأسرع لكى يلتحق بزميله الواقف رقيبا على قمة الجبل ثم مضيا معا..

لم يرهما حينئذ أحد..

وإلى اليوم لا يعرفهما أحد.

وصمتت فيكتوريا وصوبت نظرة وهى تزم شفتيها إلى السيدة ماريا.

غلبت الدهشة على زوجة صاحب الفندق وعلى جميع الضيوف، وارتسمت على ملامحهم علامات الترقب.

هناك شكوك ساورت الجميع. فجرى همسا تبادل الآراء والظنون.. أدركوا مغزى كلام فيكتوريا. تماما أو على وجه التقريب، ولكن بقى شىء واحد لم يفهموه، هذه المرأة الغريبة القادمة من بعيد، لماذا تضنى نفسها بحكايات من وحى خيالها، لا تضمر إلا الشر، إذا كانت لديها ريبة فلتفصح بها، إذا كان لها اتهام لأحد فلتقل لنا من هو..

مثل هذه الأفكار جالت بالأخص فى رأس كاليسترات بوغزا وقد تملكه غضب شديد.

لقد أدرك منذ بدأ الأمر حين رأى فيكتوريا لأول مرة أنها تعده غريمها. مع ذلك فقد صبر رافضا الاعتقاد بأن الكشف عن جريمة لم يتخلف عنها أقل أثر.. أمر ممكن.

كان يقول فى سره:

– سنناضل هذه المرأة، ولكن بلا طائل، ثم تعود خائبة لبيتها.

لكنها لم تعد.. بل تعمدت أن تطلق إشاعات مؤذية وتنسج خطوط مؤامرات تشبه ألاعيب النساء، وتتحدث إلى إيليانا بكلام معسول ولكنه سموم، وتطلق بتلميحاتها الخبيثة كل ما يضمره الناس له من ضغينة..

تركها تتكلم وهل كان يستطيع منعها، حقا إنها امرأة مسكينة، ما هى إلا أرملة تستحق الرثاء، خرجت تبحث عن زوجها المفقود، لكن من المدهش أنها استطاعت أن تعثر على زوجها فى مغارة بالجبل منعزلة تمام الانعزال، ومن العسير الوصول إليها.. بل والأدهش من ذلك كله هذه الحكايات التى تخترعها، وآخر المتمة روايتها الآن لما حدث لزوجها القتيل، أحمق ومغفل من ظن أنها كانت حاضرة هناك.. بل وأشد حمقا منه من أعتقد أن الميت قد كلمها كما تقول، فهذه أمور لم يعد أحد يصدقها، ومع ذلك فإن هذه المرأة التى تلاحقه استطاعت أن تروى الحادث كما قد وقع بالتفصيل.

أنه يتذكر الآن أقوال إيليانا وتأكيدات جافيتا قبل أن يسمم الحقد قلبها، بأن للسحر مفعولا أكيدا مجربا.. فهل يؤمن الآن هو أيضا بالسحر، بمزايا

تنبىء عن الماضى والمستقبل، لا يليق برجل عاقل أن يجارى النساء فى مثل هذا الاعتقاد.. ولكن ماذا يقول:

إن الخطر الذى يتعرض له يصوره المثل القائل:

– لا دخان بلا نار..

ينبغى فى نهاية الأمر أن تفصح هذه المرأة عما تعلمه وتقول أيضا كيف علمته، لعل زوجة إيليا كوتوى هى التى أفشت لها سرا.. إذن فيالها من مصيبة أن تكون له معارف نكد مثل إيليا وزوجته.

ولكن إيليا كوتوى لم يبصر بعينيه ما حدث، بكل التفاصيل، بل هو نفسه لا يدرك تمام الإدراك كيف حدث الذى حدث.

إنه لم يدرك إلا الآن كيف وقع الحادث.

***

اضطربت نفسه لهذه الأفكار، وأحس النظرات مثبتة عليه.

شرب فى جرعة واحدة كأسا كبيرة من النبيذ ثم تلاها بثانية ثم إذ به من غير أن يدرى لماذا، يتخذ قرارا رهيبا، المرأة امرأة والرجل رجل، إنه عاش طول عمره وقد صدق عليه وصفه بأنه رجل تهابه الناس..

مد يده وهو لا يزال ضابطا لأعصابه وطلب من غيوريتا أن يعيد إليه البلطة فقاطعته فيكتوريا قائلة:

– اصبر قليلا حتى نقوم عن المائدة.. احتراما للتقاليد.

ثم أضافت وهى تضحك..

– ماذا بك يا غيورغيتا حتى تنظر إلى البلطة هكذا، هل بدت لك كتابة عليها؟.

زمجر بوغزا غاضبا:

- اسمعى ياوليه، لماذا تجعلينى هدفا لسهامك إن كان لك اتهام لى فافصحى عنه..

- لا داعى للغضب يا سيد كاليسترات.. إنى لم أقل شيئا غير سؤالى لابنى هل رأى على البلطة كتابة أم لا؟

وصرخ بوغزا:

- كفى كفى..

وكان قد ضرب المائدة بقبضة يده ضربة عنيفة وانتصب واقفا..

تبعثرت الأطباق وفزع الضيوف فقاموا عن المائدة.

هذه استثارة لا تليق فى مأدبة، وبالأخص إذا كانت مأدبة مأتم.

بوغزا إذن له بعض الحق فى غضبه.

وعاد يصرخ من جديد:

- كفى كفى.

وإذا بصوته يبح فجأة لكنه استطرد ليقول:

- كفى، كل عمل يلقى على الأرض جزاءه مرة واحدة، وحتى ولو كنت أنا المجرم فأنا أقبل العقاب الذى يرضاه لى من فى يده سلطة الحكم..

لست أنا المجرم.. فماذا تبتغين منى يا وليه؟

أجابت فيكتوريا وقد دهشت كل الدهشة لهذا السؤال المفاجىء.

- أنا لا أبتغى منك شيئا.

زاد غضب كاليسترات وبحركة عنيفة من ظهر كفه بعثر الأقداح والأطباق فوق المائدة وصرخ:

- كيف تقولين أنك لا تبتغين شيئا، ألتلثى تجسرين على توجيه هذا الكلام يابهيمة.. أنك لا تستحين منى كأنك كنت شريكة فراشى..

ثار حنقها فصاحت لابنها:

- ياغيورغيتا.

أظن أن البلطة مكتوب عليها كلمة واحدة هى دم.. وهذا الرجل الواقف أمامك هو قاتل أبيك.

تحول بوغزا كاليسترات عن مكانه وهجم على الشاب ليسترد بلطته.

وأقبل كوتوى يسد عليه الطريق ويحتجزه ويضمه بقوة بين ذراعيه، ولكن بوغزا المتين الجسم كان يتفجر بغضب لا سبيل لمقاومته، هوى بقبضة يده على وجه كوتوى وأوقعه على الأرض، وفك التزاحم من حوله بلكزات عنيفة من كوعيه ثم اندفع نحو الباب المفتوح وقد أحنى رأسه كأنه ثور مهاجم.

جرت فيكتوريا وراءه وكان ذراعيها جناحان، وبسرعة البرق وصلت إلى الباب وصرخت:

- ياغيورغيتا، أطلق الكلب.

وكان الشاب قد رتب من قبل خطة لإطلاق الكلب حين تأمره أمه، ومع ذلك لم يستطع فك السلسلة التى تربط الكلب إلى خنه فى المخزن.

هجم بوغزا على الكلب من جنب حين أبصره فى ضوء الغسق فانطلق من الكلب نباح مخيف، وأخذ يشد السلسلة وهو يزمجر بحشرجة ويكاد يختنق، ثم عاد يلح بالشد على السلسلة حتى قطعها واندفع.

وكاد يقع على بوغزا لولا أنه تفاداه بسرعة، وقفز على البلطة فانطلقت من الأم صرخة أخرى فتدفقت فى جسد ابنها قوة أشد مضاء وشرفا من قوة القاتل.

صوب ابنها غيورغيتا إلى بوغزا ضربة عنيفة من كتفه ودفعه عنه ثم هوى بالبلطة على رأسه.

ترنح بوغزا وهجم الكلب على حلقه وانشب فيه أنيابه وولغ فى دمه وهو يزمجر..

***

اندفع الضيوف يحجزون ما بين الاثنين. وصرخ وكيل المأمور إلى رجل بجانبه أن يسرع باستدعاء الخفراء الذين كانوا يتناولون طعامهم على مائدة أعدت لهم، وفقا لمكانتهم، فى مخزن ملحق بفناء الفندق..

فجاء الخفراء يجرون وسلم كوتوى نفسه إليهم بلا معارضة، ومضت كل من الزوجتين تبكى.. وتلعن المرأة الجبلية، وأبعد الضيوف الكلب، عن فريسته بضربه بعصا مشقوقة وبالقاء الماء عليه وبطرح قطعة من القماش الغليظ عليه لتلفه فيجذبونها وهو بداخلها.. ثم رفعوا بوغزا على الأذرع وحملوه إلى الشرفة.

***

كان الليل قد هبط وقام أحد الضيوف بوضع مصباح على حافة النافذة وطلبت السيدة ماريا أن يؤتى لها بماء فحملته فيكتوريا فى إبريق من الخشب وأخذت الاثنتان ترشان الماء على الرجل الجريح.

وكان بوغزا يلهث ويكاد يختنق، ثم هدأت أنفاسه قليلا قليلا وصوب إلى المجتمعين حوله نظرة متخاذلة.

سألته بنت الجبل بصوت فيه نشوة:

– أبقى لك مطلب؟

فهمت من إغلاقه لجفنيه إنه يقول لها نعم.

فسألته:

– وما هو طلبك؟

– أريد قسيسا لأعترف بين يديه.

***

ساد الصمت فى الحجرة، وتقدم القس الأكرش وهو يلتقط أنفاسه من شدة البهر، وكشف الرجال عن رءوسهم وارتفعت أصوات الخفراء بجانب

المخزن وهم يوجهون إلى كوتوى أسئلة عديدة، فطلب منهم الواقفون حول بوغزا أن ينقطعوا عن الكلام، فالتزموا الصمت وتقدموا على أطراف أقدامهم حتى التحقوا بالواقفين وقد اقتادوا معهم كوتوى وكان يقول فى تلعثم:

– هل ستعذبوننى؟ هل ستقتلوننى؟ إننى مستعد عن طيب خاطر أن أقول الحقيقة كلها.. اعلموا أن الحادث وقع كما وصفته المرأة الجبلية الأرملة، بلا زيادة أو نقصان.

أشار إليهم الواقفون مرة أخرى بالتزام الصمت، وبدأ الرجل المتين الجسم الراقد على الشرفة فى الاعتراف وقال هو يلهث من جديد:

– تحدثنى نفسى يا أبتى أننى سأموت، من أجل هذا أود الاعتراف.

هنا اعلموا أننى أنا الذى ضربت نيقيفور ليبان ودفعته إلى المغارة من فوق الجبل كما أكدت زوجته، لا أدرى كيف علمت ما حدث ولكن روايتها صادقة كل الصدق..

همست فيكتوريا للقس:

– فليعترف أيضا بالسبب الذى دعاه إلى قتل زوجى.

فهم الجريح قولها ورد عليها:

– ارتكبنا القتل لنستولى على القطيع، وكنت أظن أن الجريمة لن تنكشف أبدا. والآن يقتضى العدل أن يعود القطيع إلى صاحبه الشرعى.

قالت فيكتوريا فى سرها:

– على بركة الله.

أدار بوغزا وجهه نحوها وثبت عليها نظرته.

كانت عيناه مبتلتين، وبريقهما يتذبذب ويتكسر، وشفته العليا المشقوقة كأنما جعلت الفم كله يلتوى فى تقلص عجيب.

واستطرد يقول للقس وهو بادى القلق:

- لا تتركنى أموّت هكذا يا أبتاه.. ضع شالك على رأسى وردد دعواتك بغفران آثامى، وأنى ألتمس من هذه المرأة وابنها الصفح عنى.

أشارت فيكتوريا إلى ابنها فتقدم وكرر الجريح تضرعه إليهما.

- اصفحا عنى..

فقالت فيكتوريا بصوت خافت:

- لماذا يجزم بأنه سيموت فليقبض على الحياة بكلتا يديه وبعد ذلك تتولى الحكومة أمره؟.

فهتف إليها الرجل وهو يحتضر:

- سامحينى.

لقد مزق الكلب حلقى، سأموت أنا أيضا، سألتحق بنيقيفور ليبان.. فيلزمك أن تسامحينى.

قالت فيكتوريا:

- فليسامحك الله.

زمت شفتيها وصوبت إليه نظرة طويلة دون أن يطرف لها جفن.

ثم قامت ونضت عنها استنامتها لما يحدث أمامها وعاد لها انشغالها بهموم أخرى ونادت ابنها وقالت له:

- تعال هنا يا غيورغيتا.

عليك بتمشيط الجوادين كما تعلمت من أهل هذه الجهة، ثم قدم لهما علفا.. وسندفع حق القساوسة وحق كل إنسان أفادنا بعون، وبعد ذلك نستريح ثلاثة أيام ونقيم بعدها أول قداس على روح أبيك، ثم نركب جوادينا ونمضى إلى ستينانشتى على نهر بروت لنصل بعدها إلى القطيع فى رارأو،

وأظن أننا لو حثثنا الجوادين نستطيع والجو معتدل أن نعود إلى ساباسا هنا دون أن تفوتنا صلاة اليوم التاسع لدفنة أبيك، وبعد ذلك نذهب أيضا إلى جيجا لنستشير الراعى الشيخ إليكسا ونتفق معه على ترتيبات سوق القطيع إلى الجبل عند حلول الصيف.

وبعد أربعين يوما نعود إلى هنا مرة أخرى ونلتمس من السيد توما مساعدتنا على أداء آخر واجب نحو الميت.

فنقيم مأدبة الأربعين على قبره، ستكون مأدبة أفضل هذه المرة، فالشواء سيكون من لحم الحملان الصغار.

وسنكتب إلى أختك مينودورا لتحضر من دير فارتيك وتعرف مكان قبر أبيها.

فإذا فعلنا كل هذا رجعنا إلى قريتنا باجورا، نستأنف معيشتنا من حيث قطعناها.

أما عن أختك.

فاعلم أنى أرفض كل الرفض زواجها من هذا الفتى الأحمق كبير الأنف، ابن المرأة زوجة طوبور.. مرتل الأناشيد فى الكنيسة..

بطاقة فهرسة
الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
سودفيانو ، ميخائيل
البلطة ، ميخائيل سودفيانو
ط ١ ، القاهرة، دار الهلال ، ٢٠٠٨
٢٢٠ ص ، ٢٠سم - (روايات الهلال)
تدمك ٤ - ٣١٠ - ٠٧ - ٩٧٧
أ - القصص العربية
رقم إيداع ٢٠٠٨/١٤٧٩١

ميخائيل سادوفيانو

- روائى وكاتب قصة وصحفى وسياسى.
- ولد عام ١٨٨٠، وتوفى عام ١٩٦١ .
- من أهم كتاب الرواية الرومانية.
- واشتهر بأعماله ذات الطابع التاريخى «روايات المغامرات، بالإضافة إلى كتاباته البيئية.
- حاصل على وسام الجمهورية الرومانية تقديراً لإبداعه الممتد لنصف قرن.
- من أشهر رواياته: البلطة، عائلة سومارشتى، الإخوة جيدرى، علامة السرطان.
- نال الكثير من الجوائز الأدبية فى بلده وفى الاتحاد السوفيتى السابق، وترجمت رواياته إلى لغات عديدة.
- يميل إلى وصف القرية وحياة الرعاة والفلاحين وخصائص الطبيعة فى بلاده، ويسجل فى بعض كتاباته تاريخ شعبها وكفاحه الطويل ضد الغزاة.

غلاف الطبعة الرومانية

غلاف طبعة دار الكتاب الجديد ١٩٧٢

هذه الرواية

صدرت رواية «البلطة» سنة ١٩٣٠ فى رومانيا، فتلقاها النقاد والقراء بحماس كبير، وبلغ من شهرة هذه الرواية أن مؤلفها عاد بعد سنين إلى شواطىء نهر سوبا التى جعلها مسرحاً لروايته، فأخبره الناس هناك أنه لم يأت إلى ربوعهم زائر غريب إلا سأل أين قبر نيقيفور ليبان، بطل الرواية المقتول بالبلطة. وأصبح قبره مزاراً مثل قبر غادة الكاميليا للفرنسيين.

وهذه الرواية قرأها الكاتب الكبير يحيى حقى صدفة، ودفعه لذلك سأمه من قراءة الروايات المشهورة حينها، لاهتمامها بالصنعة على حساب الحياة والجوهر الإنسانى بقدرتهما على البقاء والتواصل رغم مرور السنوات. وعن ذلك قال فى تقديمه لهذه الرواية: " رواية قرأتها صدفة، أرجو أن تقرأها صدفة، وأن تشفيك - أياً كانت قيمتها عند النقاد - من سأم قراءة الروايات شديدة الذكاء الغارقة فى الرمز والتعقيد، ستشملك كل العواطف الإنسانية لقوم بسطاء يستريح قلبك لمعاشرتهم، وقد ترجمتها لك عن الفرنسية، وأرجو أن تحتمل تحدث الرعاة من أهل الجبل فى رومانيا بالعربية الفصحى، فليست العبرة إلا فى ترجمة الفكر، وما اللغة إلا طريق يؤدى إليه".

تدور أحداث هذه الرواية فى رومانيا، فى منطقة الكربات الجبلية، وتروى مأساة هبطت على أسرة من الرعاة، خرج عميدها نيقيفور ليبان ليشترى النعاج من سوق بعيدة، فقتله اللصوص بالبلطة وانقطعت أخباره عن زوجته فيكتوريا التى رأت أحلاماً وإشارات دفعتها للخروج فى رحلة بحث عن زوجها المغدور علها تجده حياً أو ميتاً. وعندما عثرت على رفاته لم تتوقف حتى عرفت قاتله وأنزلت به العقاب. رحلة بحث ربما تذكرنا فى كثير أو قليل منها برحلة بحث إيزيس عن أوزوريس.

رواية قرأها قبل أكثر من ثلاثين عاماً، الكاتب الكبير يحيى حقى، فشفته ببساطتها ووضوحها وشخوصها وبيئتها من سأم التعقيد والتكلف. ونرجو أن تساهم فى شفائنا نحن كذلك، خاصة وأننا أحوج ما نكون لها الآن.

روايات الهلال

للأديب والكاتب الكبير

تصدر: ١٥ أغسطس ٢٠٠٨

رئيس مجلس الإدارة
عبد القادر شهيب

رئيس التحرير
مجدى الدقاق